

مصر وأهل البيت عليهم السلام

بقلم

علي الكوراني العاملي

الطبعة الأولى ٢٠١١م - ١٤٣٢هـ.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل وأتم السلام على سيدنا ونبينا

محمد وآله الطيبين الطاهرين .

وبعد ، فقد لاحظت في بعض أحاديث مدح الشام تعابير تشبه مفاهيم الإسرائيليات وتعصبات اليهود . ثم رأيت أن بعض هذه الأحاديث لا يكتفي بمدح الشام حتى يذم الحجاز والعراق ومصر .

وقد انتقد السيوطي وهو محدث واسع الإطلاع ، المحدثين بأنهم ضعّفوا بعض الأحاديث الصحيحة التي تمدح مصرًا ، تحكّمًا وهوىً !

ثم رأيت أن أئمة أهل بيت النبوة عليهم السلام ردوا عددًا من أحاديث مدح الشام ، وكان ردهم أحياناً شديداً ، كأنه رد عدوان على الإسلام !

من ذلك ما رواه في الكافي: ٤/ ٢٣٩: « عن زرارة قال: كنت قاعداً إلى جنب أبي جعفر (الإمام الباقر عليه السلام) وهو مُحْتَبٍ مستقبلَ الكعبة ، فقال: أما إن النظر إليها عبادة . فجاءه رجل من بجيلة يقال له عاصم بن عمر فقال لأبي جعفر: إن كعب الأخبار كان يقول: إن الكعبة تسجد لبيت المقدس في كل غداة ! فقال أبو جعفر: فما تقول فيما قال كعب؟ فقال: صدق القول ما قال كعب ! فقال أبو جعفر: كذبت وكذب كعب الأخبار معك ، وغضب ! قال زرارة: ما رأيته استقبل أحداً

بقول كذبت غيره ، ثم قال: ما خلق الله عز وجل بقعة في الأرض أحب إليه منها، ثم أوماً بيده نحو الكعبة ، ولا أكرم على الله عز وجل منها ، لها حرّم الله الأشهر الحرم في كتابه يوم خلق السماوات والأرض ، ثلاثة متوالية للحج: شوال وذو العقدة وذو الحجة ، وشهر مفرد للعمرة وهو رجب .

وعندما تتبع مصدر أحاديث الغلو في مدح الشام ، وجدت أن ناشرها كعب الأخبار وتلاميذه ، وحامل رايتها معاوية وأعوانه . لذا قررت التوقف في كل حديث يمدح بلاد الشام وأهلها ، وحتى بيت المقدس وأهله ، حتى يثبت من طريق ليس فيها رائحة اليهود وبنو أمية .

وكان آخر ما صادفته في الموضوع من أحاديث أهل البيت عليهم السلام حديث صحيح لعلي عليه السلام يفضل فيه مصر وأهلها على الشام وأهلها ! فتعجبت منه وأهديته الى صديق عزيز من علماء مصر، هو السيد محمد عامر حفظه الله ، فطلب مني بقية أحاديث أهل البيت عليهم السلام في الموضوع ، فأهديت له ما تيسر منها .

فعاودني قائلاً إن أصدقاءنا قالوا إن هذا الموضوع يحتاج الى كتابة بقلمك ، خاصة وأن مصر تنفست بثورتها عبّ الحرية ، وهو عبّ أهل البيت عليهم السلام .

فأجبت طلبه بكتابة هذا الموضوع ، آملاً أن يكون فيه خدمة للعلم ، ورضاً لله تعالى ، ورسوله وأهل بيته الطاهرين ، صلوات الله عليهم .

كتبه: علي الكوراني العاملي

غرة رجب الأصب ١٤٣٢ هـ . ٤/٦/٢٠١١ م .

تفضيل النبي ﷺ وعلي ؑ لمصر على غيرها

معاني تفضيل البلاد وأهلها

١. قد يكون تفضيل البلد بسبب بقعة فيه ، كتفضيل مكة بسبب الكعبة والمسجد الحرام ، فعندما تقول مكة أفضل بقاع الأرض ، فإنك تُفضل البقعة لساكنيها . وعندما تقول المدينة أفضل بقاع الأرض ، فأنت تقصد البقعة التي ضمت جسد رسول الله ﷺ أو بقعة مسجده ، ولا تقصد تفضيل كل بقاع المدينة ، ولا ساكنيها .

قال الشوكاني في نيل الأوطار: ٩٩ / ٥: «قال القاضي عياض: إن موضع قبره ﷺ أفضل بقاع الأرض وإن مكة والمدينة أفضل بقاع الأرض، واختلفوا في أفضلها ما عدا موضع قبره ﷺ فقال أهل مكة والكوفة والشافعي وابن وهب وابن حبيب المالكيان: إن مكة أفضل ، وإليه مال الجمهور . وذهب عمر وبعض الصحابة ومالك وأكثر المدنيين إلى أن المدينة أفضل... وقد استدل القائلون بأفضلية المدينة بأدلة ، منها حديث: ما بين قبري ومنبري روضةٌ من رياض الجنة ، كما في البخاري وغيره .»

وقال ابن حجر في فتح الباري: ٣/ ٥٥: « استثنى عياض البقعة التي دفن فيها النبي صلى الله عليه وآله ، فحكى الاتفاق على أنها أفضل البقاع ».

٢. قال الإمام محمد الباقر عليه السلام عن الكعبة إنها أحب بقعة الى الله: (ما خلق

الله عز وجل بقعة في الأرض أحب إليه منها). (الكافي: ٤/ ٢٣٩).

وكونها أحب البقاع الى الله تعالى ، لا يمنع أن يكون غيرها أفضل منها كالتربة التي دفن فيها النبي صلى الله عليه وآله ، ومنها التربة التي دفن فيها سبطه الحسين عليه السلام ، لأن حسينا منه وهو منه ، وتربته من تربته صلى الله عليه وآله .

٣. أما تفضيل أهل بلد على غيرهم ، فالمقصود بهم المعاصرون لصدور

النص ، أو من رضي بفعلهم ، وليس أبناءهم ولا كل كل من سكن ذلك البلد من الأجيال . فعندما يذم النبي صلى الله عليه وآله أهل مكة فمقصوده المعاصرون له منهم ، أو من فعل فعلهم ورضي به ، وليس كل جيل منهم ، ولا كل من سكن مكة .

وعندما يذم علي عليه السلام أهل الكوفة ، أو أهل العراق ، فمقصوده الجيل المعاصر له ، وليس كل جيل منهم ، إلا من رضي بفعلهم .

٤. وقد يكون تفضيل أهل بلد على بلد في المستقبل في ظرف معين

كالتفضيلات التي وردت لأهل بعض البلدان والأقوام الذين ينصرون الإمام المهدي عليه السلام ، أو يعادونه ويقفون ضده ، فهو تفضيل خاص بذلك

الفصل الأول: تفضيل النبي ﷺ وعلي عليه السلام مصر على غيرها ٧

الظرف ، ولا يشمل كل جيل ، أو كل قومية .

وبكلمة: لا يوجد في مفهوم الإسلام سمات ذمّ لجنس أو سكان بلد مطلقاً .

٥ . وهناك تفضيل لأهل البلد بمعنى أنّ فيه ما يقتضي أفضلية أهله بسبب

تكوينه ومقوماته الإجتماعية . وبهذا المعنى تفضيل النبي ﷺ لأهل اليمن على أهل نجد ، كالذي رواه البخاري: ٩٨ / ٤: «الإيمان يمانٍ . ألا إن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين ، عند أصول أذنان الإبل ، حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر» .

وفي صحيح مسلم: ٥٢ / ١: «الإيمان يمانٍ والكفر قبل المشرق . والسكينة في أهل الغنم . والفخر والرياء في الفدادين أهل الخيل والوبر» .

فالأفضلية هنا اقتضائية ، بمعنى أن بقعة نجد وطبيعة الحياة فيها تقتضي أن يكون أهلها بهذه الصفات ، وبقعة اليمن والحياة فيها تقتضي- أن يكون أهلها أفضل . فالأفضلية هنا للمجموع الكلي ، وليس لكل فردٍ فرد بالعموم الإستغراقي .

وبهذا المعنى قول علي عليه السلام: إن مصر أعظم من الشام خيراً ، وخير أهلاً، فهو

يعني أن مصر خير من بلاد الشام ، لأن في تكوينها وطبيعتها حياتها ما يقتضي تفضيل أهلها على أهل الشام .

والمفضل هو المجموع الكلي لأهلها ، لا أن كل فردٍ فردٍ في مصر أفضل من

كل فرد في الشام ، فقد يكون شاميًّا ما أفضل من مصريًّا ما .

٦. ويوجد معنى آخر لتفضيل البلاد ، هو تفضيل شخصية البلد

الإجتماعية وسلوكه الجمعي العام على غيره ، فإن الأسر والعشائر والقرى والمدن والبلدان والأقاليم ، لها شخصيات متفاوتة ، فمنها القوي والضعيف ، ومنها الحسن والسئ .

ولذلك تعرف الأسر بصفات لمجموع أفرادها ، فتقول إن أسرة حاتم الطائي أسرة كرم وجود ، تقصد مجموعها لا جميعها فقد يكون فيهم بخيل . وتقول: اليهود جبناء تقصد مجموعهم كشعب ، وقد يكون فيهم شجاع . وعندما تقول: أهل مصر أهل فهم ورقة قلب ، تقصد مجموعهم كشعب ، وقد يكون فيهم غبي وقاسي القلب ، لكنه لا يمنع تفضيل مجموعهم .

حديث الصحابي عمرو بن الحمق الخزاعي رضي الله عنه

رواه الحاكم في المستدرک: ٤/٤٤٨: «عن عمرو بن الحمق رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال: ستكون فتنة أسلم الناس فيها ، أو قال لخير الناس فيها الجند الغربي ، فلذلك قدمت مصر- . هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه». والطبراني في المعجم الأوسط: ٨/٣١٥ ، والكبير: ٨/٣١٥ ، وتاريخ البخاري الكبير: ٦/٣١٣ ، ومجمع الزوائد: ٥/٢٨١ ، وغيرها.

قال السيوطي في شرح مسلم: ٤/٥١٣: «روى الطبراني والحاكم وصححه ، عن

الفصل الأول: تفضيل النبي ﷺ وعلي ﷺ لمصر على غيرها ٩

عمرو بن الحمق قال: قال رسول الله ﷺ: تكون فتنة أسلم الناس فيها الجند الغربي . قال ابن الحمق: فلذلك قدمت عليكم مصر .

وأخرجه محمد بن الربيع الجيزي في مسند الصحابة الذين دخلوا مصر- ، وزاد فيه: وأنتم الجند الغربي ، فهذه منقبة لمصر في صدر الملة ، واستمرت قليلة الفتن معافاة طول الملة ، لم يعترها ما اعترى غيرها من الأقطار ، وما زالت معدن العلم والدين ، ثم صارت في آخر الأمر دار الخلافة ومحط الرحال ، ولا بلد الآن في سائر الأقطار بعد مكة والمدينة ، يظهر فيها من شعائر الدين ما هو ظاهر في مصر». انتهى .

والجُند: بضم الجيم أصله للجيش، ويستعمل بمعنى المدينة والبلد . قال ابن منظور في لسان العرب: ٣/ ١٣٢: «والجُند: المدينة ، وجمعها أجناد.. يقال الشام خمسة أجناد: دِمَشْقُ ، وحمص ، وقنسرِين ، والأرْدُنُّ ، وفِلَسْطِين ، يقال لكل مدينة منها جُند» .

وتفسير عمرو بن الحمق رضي الله عنه للجند الغربي بمصر بقوله: «ولذلك قدمت عليكم مصر» حجةٌ ، لأنه تفسير صحابيٍّ معاصر لصدور النص . ومعنى الحمق: خفيف اللحية . وهو صحابي جليل يشبه أويساً القرني رضي الله عنهما ، فقد أخبر عنه النبي ﷺ المسلمين قبل أن يسلم ، وبعث اليه سلامه ودعاه الى الإسلام ، فأسلم وجاء الى النبي ﷺ .

وفي مصنف ابن أبي شيبة: ٤٣٧ / ٧: « أنه سقى النبي صلى الله عليه وآله لبناً فقال: اللهم أمتعه بشبابه . فلقد أتت عليه ثمانون سنة لا يرى شعرة بيضاء !»

وكان من خاصة شيعة علي عليه السلام . وقد اتهمه معاوية بالتحريض على قتل عثمان ، وطارده سنوات ليقتله فجاء الى مصر ، ثم تخفى في الموصل فقبض عليه والي معاوية وقتله ، وأرسل رأسه الى معاوية !

قال الشعبي: « أول رأس حمل في الإسلام رأس عمرو بن الحمق ». (الطبقات: ٢٥ / ٦ ، وتاريخ خليفة / ١٤٦ ، وثقات ابن حبان: ٢٧٥ / ٣ ، وتاريخ دمشق: ٤٥ / ٤٩٦ ، و٥٠٣ و: ٦٩ / ٤٠ ، واليعقوبي: ٢ / ٢٣١ ، وابن أبي شيبة: ٨ / ٣٥٧ ، وأوائل ابن أبي عاصم / ٧١ ، وشرح النهج: ٢ / ٢٨٩) .

فكتب له الحسين عليه السلام: «أولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله العبد الصالح الذي أبلته العبادة ، فنحل جسمه واصفر لونه . بعدما أمنتته وأعطيته من عهود الله وموآثيقه ، ما لو أعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبل ! ثم قتلته جرأة على ربك ، واستخفافاً بذلك العهد» (الكشي: ١ / ٢٥٢) .

أما حديثه في تفضيل مصر وجندها على الشام فلا يعجبهم ، لأن أهل مصر اعترضوا على عثمان وحاصروه !

وقد تبنى الأمويون قول كعب الأحبار في تفضيل الشام على العالمين !

أحاديث نبوية أخرى في مدح مصر وأهلها

روت المصادر بضعة أحاديث نبوية حول مصر، وعقد لها ابن تغري فصلاً في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١/٢٧).

واستوفاه السيوطي في كتابه: (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة).

وأشهرها ما رواه مسلم (٧/١٩٠) عن أبي ذر رضي الله عنه ، قال: «قال رسول الله ﷺ: إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحماً ، أو قال ذمة وصهرأ فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة فاخرج منها. قال: فرأيتُ عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان في موضع لبنة ، فخرجتُ منها».

ومعناه أن النبي ﷺ أخبر المسلمين بفتح مصر وأوصاهم بأهلها، وأوصى أبا ذر أن يغادرها إذا رأى نزاع رجلين من المسلمين على موضع منزل ، فلما رأى أبو ذر ابني شرحبيل بن حسنة يتنازعان على منزل ، غادرها .

وليس في هذا الحديث كبير مدح لأهل مصر- إلا الوصية للفاتحين بأن لا يظلموهم! وروي بالفاظ مثل: إذا ملكتم القبط فاستوصوا بهم . فاتقوا الله في القبط ، لا تأكلوهم أكل الخضر! (فتوح مصر/٥٢).

وفي لفظ الحديث إشكال ، فلعل الوصية النبوية صدرت ، لكن الرواة رووها

بصيغة تبرر ظلم الولاة لأهل مصر ، وكان النبي ﷺ قال لهم: ستملكون أهل مصر وتأكلونهم ، وعليكم بالعافية ، لكن كلوهم وأبقوا منهم ، ولا تأكلوهم كما تأكلون الخضار وتستوفونها كلها !

ولفظ مصادرنا أبلغ: عن أم سلمة رضي الله عنها أنه ﷺ قال: « الله في القبط ، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله ». (وسائل الشيعة: ١١/١٠١) ومهما يكن ، ففي حديث عمرو بن الحمق ، وما ثبت عن أهل البيت عليهم السلام ، غنى عن البقية .

جواب ملك مصر المؤدب للنبي ﷺ

قال الأحمدي في مكاتيب الرسول ﷺ: ١/١٨١: « لما تم صلح الحديبية في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة ، رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة .. فعندئذ كتب إلى الملوك من العرب والعجم ورؤساء القبائل والأساقفة والمرازية والعمال وغيرهم ، يدعوهم إلى الله تعالى وإلى الإسلام ، فبدأ بإمبراطوري الروم وفارس ، وملكى الحبشة والقبط ، ثم بغيرهم ، فكتب في يوم واحد ستة كتب ، وأرسلها مع ستة رسل ».

فكان أحسن رد جواب المقوقس ملك مصر ، وأسوأ رد جواب كسرى ، فقد مزق كتاب النبي ﷺ وطرد الرسول وحمله كيس تراب !

الفصل الأول: تفضيل النبي ﷺ وعلي ﷺ لمصر على غيرها ١٣

قال الأحمدي في مكاتيب الرسول ﷺ: ٤١٦/٢: « كتابه ﷺ إلى المقوقس: بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله ، إلى المقوقس عظيم القبط: سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجره مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط و: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .

قال المقوقس: إني نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه. ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكذاب . ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى ، وسأناظر . ثم أخذ الكتاب وجعله في حق من عاج وختم عليه ، ودفعه إلى جاريته .

وأرسل المقوقس يوماً إلى حاطب فقال: أسألك عن ثلاث . فقال: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك ، قال: إلى م يدعو محمد؟ قلت: إلى أن نعبد الله وحده ، ويأمر بالصلاة خمس صلوات في اليوم والليلة ، ويأمر بصيام رمضان ، وحج البيت ، والوفاء بالعهد ، وينهى عن أكل الميتة والدم .. إلى أن قال: فوصفته فأوجزت ، قال: قد بقيت أشياء لم تذكرها: في عينيه حمرة قلما تفارقه ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، يركب الحمار ، ويلبس الشملة ، ويجتزي بالتمرات والكسر ، ولا يبالي من لاقى من عم أو ابن عم .

ثم قال المقوقس: هذه صفته ، وكنت أعلم أن نبياً قد بقي ، وكنت أظن أن مخرجه بالشام ، وهناك تخرج الأنبياء من قبله ، فأراه قد خرج في أرض العرب في أرض جهد وبؤس ، والقبط لا تطاوعني في أتباعه ، وأنا أظنُّ بملكي أن أفارقه ، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما هاهنا ! وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفاً واحداً ، ولا أحب أن تعلم بمحادثتي إياك !

ثم دعا كاتبه الذي يكتب له بالعربية ، فكتب إلى النبي صلى الله عليه وآله : بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله ، من المقوقس عظيم القبط : سلام عليك ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقي ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وبثياب ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك .

ثم عدد الأحمدي هدية المقوقس للنبي صلى الله عليه وآله : أربعة جوار ، مارية أم إبراهيم بن رسول الله ، وسيرين أخت مارية ، وقيسر أخت مارية أيضاً ، وجارية أخرى سوداء إسمها بريرة ، وغلاماً خصياً أسود إسمه مابور . وبغلة شهباء وهي دُلْدَل ، وحماراً أشهب يقال له يَعْفور . وقيل وألف دينار وعشرين ثوباً ، وألف مثقال ذهباً ، وفرساً وهو اللزَّاز .

الفصل الأول: تفضيل النبي ﷺ وعلي عليه السلام لمصر على غيرها ١٥

وأهدى إليه عسلاً من غسل نبها من قرى مصر، ومكحلة ومربعة توضع فيها، وقارورة دهن، ومقصاً ومسواكاً ومشطاً ومرآة. وقيل عمائم وقباطي وطيباً وعوداً ومسكاً، مع ألف مثقال من ذهب مع قرح من قوارير، وخفين ساذجين أسودين، وطيباً يداوي مرض المسلمين... وقال حاطب: كان المقوقس لي مكرماً في الضيافة وقلّة اللبث ببابه، وما أقمت عنده إلا خمسة أيام، ودفعت له مائة دينار وخمسة أثواب... ذكر بعضهم أن هرقل لما علم ميل المقوقس إلى الإسلام عزله... راجع المناقب: ١٣٩/١، و: ٦٥/٢، وابن هشام: ٣/١، و: ١٢٣، والشفا: ١/١١٥.

علاقة المصريين بعثمان وعلي عليه السلام

عرف أهل مصر محمد بن أبي بكر رضي الله عنه وأحبوه من أول فتح مصر، ثم كان يتردد إليها مع صديقه الشاب محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة الأموي رضي الله عنه، وقد شارك في فتح إفريقيا الذي انطلق من مصر. وفي عهد عثمان طمع الروم باحتلال مصر وغزوها بسفنهم، فكان المحمدان القائدين الميدانيين لجيش المسلمين في غزوة ذات الصواري البحرية التي رد فيها المسلمون غزو الروم. وكان أهل مصر يجبانها ويكرهان الوالي الأموي عبد الله بن أبي سرح، لسوء إدارته، ولأنه وأباه كان عدوين لله ولرسوله ﷺ.

قال أبو داود في سننه: ٣٢٨/٢ ، والنسائي في سننه: ١٠٧/٧: « كان عبد الله بن سعد ابن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ فأزله الشيطان فلحق بالكفار ، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح ».

وفي الكافي: ٢٠١ / ٨ ، عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ: « نزلت في ابن أبي سرح الذي كان عثمان استعمله على مصر ، وكان رسول الله ﷺ يوم فتح مكة هدر دمه ، وكان يكتب لرسول الله ﷺ فإذا أنزل الله عز وجل: إن الله عزيز حكيم . كتب: إن الله عليم حكيم ! »

وقال ابن حبان في ثقات (٣/ ٢١٤): « وكان أبوه سعد بن أبي سرح من المنافقين الكبار ، وهو أخو عثمان من الرضاعة » .

وسنذكر وفود المصريين الى عثمان ، وطلبهم منه أن يولي عليهم محمد بن أبي بكر ، والحركة التي قادها محمد بن أبي حذيفة فبايعه المصريون بالإمارة عليهم ، وطردها والي عثمان ابن أبي سرح .

وعندما تولى أمير المؤمنين علي عليه السلام الخلافة ، أرسل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه والياً على مصر ، وكتب له عهد الولاية ، وجاء فيه كما في نهج البلاغة: ٢٧/٣: « واعلم يا محمد بن أبي بكر أني قد وليتك أعظم أجنادي في

الفصل الأول: تفضيل النبي ﷺ وعلي ﷺ لمصر على غيرها ١٧

نفسى أهل مصر ، فأنت محقوق أن تخالف على نفسك ، وأن تنافح عن دينك
ولو لم يكن لك إلا ساعة من الدهر .

ولا تسخط الله برضا أحد من خلقه ، فإن في الله خلفاً من غيره ، وليس
من الله خلف في غيره . صل الصلاة لوقتها الموقت لها ولا تعجل وقتها
لفراغ ، ولا تؤخرها عن وقتها لاشتغال ، واعلم أن كل شئ من عملك تبعٌ
لصلاتك » .

وتعبيره الإمام ﷺ: (أعظم أجنادي في نفسي- أهل مصر-) يعني أن مصر-
كانت يومها أهم بلد برأيه في فتوح الإسلام وحمل رسالته . فهو يفضلها
كبلد وشعب ، على كافة بلاد الدولة الإسلامية يومها ، ويشير الى ترشيحها
لهذا الدور في المستقبل . وكفى بذلك فخراً .

تفضيل علي ﷺ لمصر على بلاد الشام

روى الثقفى في الغارات: ٢٨٨/١ ، وهو أقدم من الطبري وأوثق ، عن جندب بن عبد
الله قال: « والله إني لعند عليّ ﷺ جالس ، إذ جاءه عبد الله بن قعين جد كعب
يستصرخ من قبل محمد بن أبي بكر ، وهو يومئذ أمير على مصر-، فقام علي
فنادى في الناس: الصلاة جامعة فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله
وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال: أما بعد فهذا صريخ محمد بن أبي
بكر وإخوانكم من أهل مصر ، وقد سار إليهم ابن النابغة عدو الله وعدوكم

فلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم والركون إلى سبيل الطاغوت ، أشد اجتماعاً على باطلهم وضلاتهم منكم على حقكم ، فكأنكم بهم قد بدؤوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر .

عباد الله إن مصر أعظم من الشام خيراً ، وخير أهلاً ، فلا تُغلبوا على مصر فإن بقاء مصر في أيديكم عزٌ لكم، وكبت لعدوكم . أخرجوا إلى الجرعة (مكان بين الكوفة والحيرة) لتتوافي هناك كلنا غداً إن شاء الله .»

أي أن مصر خير للمسلمين بمواردها الإقتصادية، وأهلها كشعب خير من أهل الشام.

مدح نهر النيل

في كامل الزيارات/ ١١١: « عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نهران مؤمنان ونهران كافران ، نهران كافران: نهر بلخ ، ودجلة . والمؤمنان: نيل مصر ، والفرات ، فحنكوا أولادكم بهاء الفرات .»

وفي الخصال/ ٢٩١: « عن حفص بن البختري ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن جبرئيل كرى برجله خمسة أنهار ولسان الماء يتبعه: الفرات ، والدجلة ، ونيل مصر ، ومهران ، ونهر بلخ ، فما سقت أو سقي منها فلإمام .»

مصر في خلافة عمر وعثمان

تم فتح مصر بدون قتال وأسلم قسم من أهلها

أثبتنا في كتاب « قراءة جديدة للفتوحات الإسلامية » أن المصريين طلبوا من ملكهم المقوقس أن يعقد اتفاقية مع المسلمين ، ويعترف بهم حكاماً ، بعد أن هزموا الروم في فلسطين وسوريا ، وانسحب هرقل الى القسطنطينية وسحب قواته من بلاد الشام ومصر . فدخلها عمرو العاص في ثلاثة آلاف وخمس مئة رجل ، واستقبله ملكها المقوقس ووقع معه عهد الصلح على أن يدفع عن كل مصري دينارين سنوياً ، ويدفع مبلغاً فعلاً . وقد تم ذلك بدون ضربة سيف ولا سوط ، وحكم المسلمون مصر- بدل الروم ، وأخذوا يديرونها ، ويأتون اليها للسكنى ، وأسلم قسم من أهلها . ويدل على ذلك: قول عمرو بن العاص نفسه لعمر بن الخطاب إن موقف المصريين أن لا يقاتلوا المسلمين ، ليقتلوه بغزو مصر .

قال ابن الحكم المصري في كتابه: فتوح مصر/ ١٣١: «قال: يا أمير المؤمنين إئذني لي أن أسير إلى مصر- ، وحرضه عليها وقال: إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهي أكثر الأرض أموالاً ، وأعجزها عن القتال والحرب . فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك ، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها ، حتى ركن عمر لذلك ، فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عكّ ، ويقال بل ثلاثة آلاف وخمسة مائة .» ونحوه تاريخ اليعقوبي: ١٤٧/٢ ، وغيره .

وفي فتوح مصر وأخبارها/ ١٣٦: «وكان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين ، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط ، يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقي عمرو ، فيقال أن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً.. ثم توجه عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف ، حتى نزل القواصر ..

سمع رجلاً من لحم يحدث.. كنت أرعى غنماً لأهلي بالقواصر ، فنزل عمرو ومن معه ، فدنوت إلى أقرب منازلهم ، فإذا بنفر من القبط فكنت قريباً منهم فقال بعضهم لبعض: ألا تعجبون من هؤلاء القوم يُقدِّمون على جموع الروم وإنما هم قلة من الناس! فأجابه رجل آخر منهم فقال: إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه.»

الفصل الثاني: مصر في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ٢١

وقد روى المؤرخون نص عقد الصلح بين المسلمين والأقباط ، وأن الروم غضبوا على الأقباط بسببه ، فتحداهم المقوقس وأصرَّ على الصلح .

قال المؤرخ المصري القرشي المتوفى ٢٥٧هـ . في كتابه فتوح مصر - / ١٥٢ : «وشرط المقوقس للروم أن يُخَيَّرُوا ، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على ذلك ، لازماً له مفترضاً عليه ، ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر - كلها ، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج ، وعلى أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة ، حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل ، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم وإلا كانوا جميعاً على ما كانوا عليه . وكتبوا به كتاباً .

وكتب المقوقس إلى ملك الروم كتاباً يعلمه على وجه الأمر كله ، فكتب إليه ملك الروم يُقَبِّحُ رأيه ويُعَجِّزُه وَيُرَدُّ عليه ما فعل ، ويقول في كتابه إنها أتاك من العرب اثنا عشر ألفاً وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى ، فإن كان القبط كرهوا القتال ، وأحبوا أداء الجزية إلى العرب ، واختاروهم علينا ، فإن عندك من بمصر من الروم ، وبالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف ، معهم السلاح والعدة والقوة ، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت ، فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء ، إلا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم ، فإنهم فيكم على قدر كثرتم وقوتكم

وعلى قدر قلتهم وضعفهم ، كأكلة ! فناهضهم القتال ولا يكون لك رأي غير ذلك . وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتاباً إلى جماعة الروم !

فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم : والله إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا ، وإن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا ، وذلك أنهم قوم الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، يقاتل الرجل منهم وهو مستقتل ، يتمنى أن لا يرجع إلى أهله ولا بلده ولا ولده ، ويرون أن لهم أجراً عظيماً فيمن قتلوه منا ، ويقولون إنهم إن قتلوا دخلوا الجنة وليس لهم رغبة في الدنيا ولا لذة إلا على قدر بلغة العيش من الطعام واللباس ، ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها ، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء وكيف صبرنا معهم ! واعلموا معشر الروم والله إنني لا أخرج مما دخلت فيه ولا مما صالحت العرب عليه ، وإنني لأعلم أنكم سترجعون غداً إلى رأيي وقولي ، وتتمنون أن لو كنتم أطعتموني ! وذلك أني قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه !

ويحكم ! أما يرضى أحدكم أن يكون آمناً في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة !

ثم أقبل المقوقس إلى عمرو بن العاص فقال له: إن الملك قد كره ما فعلتُ وعجّزني ، وكتب إليّ وإلى جماعة الروم أن لا نرضى بمصالحتكم ، وأمرهم بقتالكم حتى يظفروا بك أو تظفر بهم !

ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاهدتك عليه، وإنما سلطاني على نفسي- ومن أطاعني، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ، ولم يأت من قبلهم نقض ، وأنا متم لك على نفسي ، والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم .

وأما الروم فإني منهم برئ ، وأنا أطلب إليك أن تعطيني ثلاث خصال . فقال له عمرو: ما هن؟ قال: لا تنقض بالقبط ، وأدخلني معهم وألزمني ما ألزمتهم ، وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه ، فهم متمون لك على ما تحب .

وأما الثانية ، فإن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلاتصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً ، فإنهم أهل ذلك ، فإني نصحتهم فاستغشوني ، ونظرت لهم فاتهموني .

وأما الثالثة ، أطلب إليك إن أنا متُّ ، أن تأمرهم أن يدفنوني في كنيسة أبي يحنس بالإسكندرية .

فأنعم له عمرو بن العاص بذلك ، وأجابه إلى ما طلب ، على أن يضمّنوا له الجسرين جميعاً ، وقيموا له الأنزال والضيافة والأسواق والجسور ، ما بين الفسطاط إلى الإسكندرية ، ففعلوا ، وصارت القبط أعواناً للمسلمين على الروم . ونهاية الإرب: ١٩ / ٣٠١ .

إن أي عاقل يقرأ هذه الحقائق ، لا يمكنه أن يقبل ما ادعاه عمرو العاص ورواة السلطة بعد ذلك ، من معارك مخترعة في فتح مصر !
وإني لأعجب لبعض الباحثين ، كيف يخالف عقله ، فيسرد المعارك والبطولات المزعومة ، مصداقاً بأنها وقعت في فتح مصر مع القبط أو الروم ، مع أنه يروي ما يناقضها وينفيها !



سبب ادعاء الحكام أن مصر فتحت عنوة

يظهر أن أحاديث معارك فتح مصر ، اخترعت فيما بعد ، لإثبات أنها فتحت عنوة لا صلحاً ، وذلك لسببين:

الأول: أن المدن والأراضي المفتوحة صلحاً يجب أن يتقيد الوالي فيها بالجزية السنوية التي نص عليها عقد الصلح ، التي تشبه الضريبة لحماية السكان ، وهي عادة دينار ذهبي أو ديناران عن كل بالغ ، عدا الصغار والنساء والشيوخ ، ولا يجوز للوالي أن يزيد عليها .

أما المفتوحة عنوةً ، أي بالقوة والحرب ، فتكون أراضيها وعقاراتها ملكاً للمسلمين أي للدولة ، ويجوز للوالي رفع الجزية على أهلها ، لأنهم مستأجرون غير مالكين . لذلك حاول الولاة إثبات أن فتح هذه المنطقة أو تلك كان عنوةً ، ليحق لهم رفع الجزية كما يجبون !

والسبب الثاني: ادعاء البطولات المكذوبة لزيد وعمرو ، باختراع المعارك الوهمية وتضخيم قوة العدو ومقاومته ! فصرت تجد في فتح مصر بطولات عمرو العاص الأسطورية ، ومغامراته البوليسية ! وهي تفترض مقابله قوات للعدو حاربها أو احتال عليها فانتصر ، فيجعلونها قوات رومية تارة ، مع أنه لم يبق جندي رومي في مصر ، وتارة قوات للمقوقس ، مع أنه أعلن المصالحة ورفض الحرب !

وجعلوها تارة عشرة آلاف جندي مرافقين للملكة أرمانوسة بنت المقوقس ، يذفونها الى ابن هرقل ، مع أن هذا الزواج لا أصل له !

واليك هذه الرواية التي تتضمن معارك مزعومة وتكذيبها معاً !

قال الطبري (١٩٩/٣): «لما نزل عمرو على القوم بعين شمس ، وكان الملك بين القبط والنُوب ، ونزل معه الزبير عليها ، قال أهل مصر لملكهم: ما تريد إلى قوم فلأوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم . صالح القوم واعتقد منهم (أبرم عقداً) ولا تُعَرِّضْ لهم ولا تُعَرِّضْنَا لهم ، وذلك في اليوم الرابع ، فأبى وناهدوهم فقاتلوهم ، وارتقى الزبير سورها فلما أحسوه فتحو الباب لعمرو وخرجوا إليه مصالحين ، فقبل منهم ، ونزل الزبير عليهم عنوة ، حتى خرج على عمرو من الباب معهم ، فاعتقدوا ، بعد ما أشرفوا على الهلكة ، فأجروا ما أخذوا عنوة مجرى ما صالح عليه ، فصاروا ذمة».

فالرواية تصرح بأن المصريين قرروا الصلح مع المسلمين ، لكنها تريد إثبات بطولة للزبير ، فزعمت أن ملكهم أبى الصلح الى اليوم الرابع ، فتسلق الزبير سور الإسكندرية أو غيرها فلم يمنعه أحد ، فخافوا وقبلوا بالصلح ، ونزل من السور الى المدينة فخافوا منه ولم يشهر أحد عليه سيفاً ولا ضربه بسهم ! فقبلوا بالصلح وخرجوا معه الى عمرو العاص فوقَّعوا

الفصل الثاني: مصر في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ٢٧

الصلح ، وكفى الله المؤمنين القتال بتسليق الزبير ، فصارت مفتوحة عنوةً ، لكن الفاتحين تفضلوا عليهم فجعلوها صلحاً ، فيجوز للوالي زيادة الجزية ! ومن الواضح أن هذا تلاعب وادعاء ، لا يقبله العقل .

وقد أثبتنا في كتابنا قراءة جديدة في الفتوحات أن الإسكندرية فتحت صلحاً بلا قتال، وأن عمرو العاص ادعى بعد خمس سنين أن أهلها نقضوا الصلح ، فغزاهم وسبى منهم ، فكذبه الخليفة عثمان ، وأمره برد السبي والأموال التي أخذها ، فعمرو العاص هو الذي نقض عهد الصلح ، وليس المصريين !



أول حركة رقابة على نظام الحكم الإسلامي كانت مصرية

سجل التاريخ أن المصريين ، وهم الذين سكنوا في مصر- من العرب أو أسلموا من الأقباط ، كانوا أول من طالب الخليفة عمر بتطبيق القرآن ، وهذا يدل على أنهم عكفوا على قراءة القرآن والتدبر فيه ، وقايسوا أوامره ونواهيه بسياسة عمر وعماله ، فرأوا أن أكثر القرآن لا يطبق ، فذهبوا إليه يطالبونه بتطبيقه ، لكن عمر أحبط مسعاهم ، وهددهم!

فقد روى السيوطي في الدر المنثور (١٤٥ / ٢) والطبري في تفسيره (٦٣ / ٥) وابن كثير في تفسيره (٤٩٧ / ٤) وكنز العمال (٣٣٠ / ٢): « عن الحسن ، أن ناساً لقوا عبد الله بن عمرو بمصر ، فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله أمر أن يُعمل بها ، لا يُعمل بها ! فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك .

فقدم وقدموا معه ، فلقي عمر فقال: يا أمير المؤمنين أن ناساً لقوني بمصر فقالوا إنا نرى أشياء من كتاب الله أمر أن يعمل بها لا يعمل بها، فأحبوا أن يلقوك في ذلك.. فقال: متى قدمت؟ قال: منذ كذا وكذا . قال: أياذن قدمت؟ قال: فلا أدري كيف رد عليه ! فقال: يا أمير المؤمنين إن ناساً لقوني بمصر فقالوا إنا نرى أشياء من كتاب الله تبارك وتعالى أمر أن يعمل بها لا يعمل بها ، فأحبوا أن يلقوك في ذلك . فقال: إجمعهم لي .

قال فجمعتهم له ، قال ابن عون أظنه قال في نهر ، فأخذ أدناهم رجلاً فقال: أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك ، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم. قال: فهل أحصيته في نفسك؟ قال: اللهم لا. قال ولو قال نعم لخصمه . قال: فهل أحصيته في بصرك، هل أحصيته في لفظك، هل أحصيته في أترك؟ قال: ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم فقال: تكلت عمر أمه أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ! قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات ، قال: إن تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا . هل علم أهل المدينة ، أو قال هل علم أحد ، بما قدمتم؟ قالوا: لا . قال: لو علموا لو عظت بكم !

ومعناه أن هؤلاء المصريين جاؤوا وفداً ليسألوا الخليفة عن آيات من القرآن فيها أوامر إلهية في الأمور الإدارية والسياسية والمالية والاجتماعية ، ولا يرون تطبيقها في دولته ! فلم يعطهم الخليفة « العادل » فرصة للكلام ، وهاجمهم بالجواب بأنهم مخطئون يطلبون منه تطبيق القرآن على نفسه وولاته ، والقرآن عظيم لا يمكن لأحد أن يطبقه!

واستدل عمر على عدم إمكان تطبيق القرآن ، بأنه لا يمكن لأحد أن يحصي كلماته وحروفه فيراها كلها دفعة واحدة ، أو يستحضرها في ذهنه دفعة

واحدة . وكل دستور لا يرى الحاكم مواده وسطوره وكلماته وحروفه دفعة واحدة ، يسقط عنه تطبيقه !

ثم استدل بأن القرآن عظيم ، لا يمكن لأحد أن يطبقه كله ، فيكفي أن يطبق منه جزءاً يسيراً ، والله يعفو عن الباقي .

وهذا الجزء موكول الى الخليفة نفسه ، فقد يكون أخذ الزكوات وتأديب الناس بالسوط ! واستدل على ذلك بأن الله وعد من اجتنب كبائر المحرمات أن يغفر له ، فيكفي للخليفة أن يطبق كبائر الواجبات !

ثم قال لهم إنكم مفسدون في الأرض ! فقد جئتم تحركون المسلمين عليّ للمطالبة بتطبيق القرآن ، لكني أحضرتكم قبل أن يعرف أهل المدينة بكم ، ولو عرفوا لجعلتكم عبرة لمن اعتبر ، وأقمت عليكم الحد ! الذي قد يصل الى ضرب أعناقكم ، فاحمدوا الله واسلموا بجلدكم ، وارضوا بما ترونه يخالف القرآن مني ومن عمالي ، ولا تثيروا علينا المشاكل !

وأمام هذه الإستدلال العمري العجيب ، والتهديد الأعجب ! جمع الوفد المصري متاعهم ، وغادروا الى مصر ، ليستعيدوا هدوءهم من صدمتهم !

صبيغ التميمي ناشط مصري وقع في قبضة عمر

وقد سجل التاريخ قصة عمر العجيبة مع صبيغ التميمي ، وهو مسلم مثقف من البصرة ، كان أبوه يقرأ كتب التاريخ ، وقد أعجب كثيره من المثقفين بالقرآن وكان يحمل تساؤلات المصريين ، فاعتقله عمرو بن العاص وأرسله مخفوراً الى عمر ، فضربه بعراجين النخل حتى أدمى ظهره ووجهه ، ثم حبسه ، ثم أرسل عليه وضربه ثانية ، ثم حبسه ، ثم أرسل عليه للثالثة ! ثم توسط له ناس فأرسله عمر مخفوراً الى بلده الأصلي البصرة ، وكتب الى حاكمها أبي موسى الأشعري أن يلبسه تباناً ، ويُركبه على حمار بالمقلوب ، ويطوف به في البصرة ، وينادي عليه إنه مجرم ، لأنه سأل عن آيات من القرآن ، وإن الخليفة حرم مجالسته والكلام معه !

روى الدارمي في سننه (١/ ٥٥): « عن نافع مولى عبد الله ، أن صبيغاً العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر ، فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب ، فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه فقال: أين الرجل؟ فقال: في الرحل . قال له عمر: أبصر أن يكون ذهب ، فتصبيك مني به العقوبة الموجعة ! فأتاه به فقال عمر: تسأل (مسائل) مُحَدَّثَة ؟ فأرسل عمر إلى رطائب من جريد فضربه بها حتى ترك ظهره دَبْرَة (ملياً من

الجروح) ثم تركه حتى برأ ، ثم عاد له ، ثم تركه حتى برأ فدعا به ليعود له ، قال فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً ، وإن كنت تريد أن تداويني فقد والله برئت!

فأذن له إلى أرضه ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: أن لا يجالسه أحد من المسلمين ، فاشتد ذلك على الرجل ، فكتب أبو موسى إلى عمر أن قد حسنت توبته ، فكتب عمر أن يأذن للناس بمجالسته « !

ورواه السيوطي في الدر المنثور: ٧/٢ ، وتاريخ دمشق: ٤١١/٢٣ ، وقد فصلنا قصة هذا المظلوم صبيغ في كتاب تدوين القرآن/ ٢٠٩ .



حركة المصريين ضد الخليفة عثمان

عرف المصريون بسعة صدرهم مع حكامهم، ومع ذلك ضاقت صدورهم بالحاكم الأموي فكتبوا يشكونه الى الخليفة عثمان فلم يقبل منهم، فذهبوا وفداً الى المدينة ووسّطوا علياً عليه السلام لحل المشكلة، لكن عثمان وسكرتيره مروان رفضا طلبهم، فعادوا الى مصر غاضبين، ثم عاقبهم الوالي في مصر- وضرب أحدهم حتى مات!

فرأى المصريون أن يذهبوا الى المدينة في وفد كبير ليكون ضغطهم على الخليفة أكبر، فيستجيب لطلبهم ويُغيّر الوالي، فشكّلوا وفداً من سبع مئة رجل برئاسة صحابي من أهل بيعة الرضوان، هو عبد الرحمن بن عديس البلوي، وعسكروا قرب المدينة، وأرسلوا الى الخليفة عثمان رسولاً، وأرسل اليهم مبعوثين، ثم جاءهم هو. ثم ذهبوا الى عثمان، وطلبوا من علي عليه السلام أن يساعدهم فحضر معهم، وكان موقف عثمان ألين من السابق. ثم ذهبوا الى العمرة ورجعوا، وواصلوا ضغطهم على عثمان فقبل بتغيير الوالي وتولية محمد بن أبي بكر بدله، وكتب لهم المرسوم فذهبوا مسرورين ومعهم واليهم الجديد. لكنهم في الطريق وجدوا رسولاً من عثمان الى الوالي الأموي يأمره أن يجبس الوفد ومحمد بن أبي بكر، أو يقتلهم!

فغضبوا ورجعوا الى عثمان فعاتبوه ، فأقر بأن الرسول موظف عنده وأن الختم ختمه ، لكنه نفى أن يكون كتب الرسالة ، وأبى أن يُحمل المسؤولية لصهره مروان بن الحكم ، فازداد غضبهم وحاصروا دار الخلافة أربعين يوماً ، وساعدهم في الحصار وفدان جاءا شاكيين مثلهم ، أحدهما من البصرة والثاني الكوفة ، وعددهم خمس مئة ، وطالبوا عثمان بعزل ولاته ، أو الإستقالة وخلع نفسه من الخلافة ، فلم يفعل حتى قتل .



المحمدان يحرران مصر

ذكر المؤلفون ظلم ولاية عثمان والأمويين للمصريين ، كما في كتاب: الولاية والقضاة للكندي/ ٨٧ ، وحسن المحاضرة في تاريخ مصر- للسيوطي: ٤٦/١ ، وفتوح مصر وأخبارها/ ٥١ ، والخطط للمقريزي: ٢٨٨/١ .

وفي النجوم الزاهرة: ٢٣١/١: (قال الكندي: كتب سليمان بن عبد الملك بن مروان إلى أسامة: إحلب الدرّ حتى ينقطع ، واحلب الدم حتى ينصرم)!!
أي أفرض على الناس الضرائب ، كمن يحلب الحليب ، ولا يبقى منه شيئاً ، ثم يقسو على البقرة فيحلب منها الدم !

وقد اتهم رواة السلطنة المحمّديّين: محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة رضي الله عنهما ، بأنهما قد حرّكا المصريين ضد عثمان ودفعاهم الى قتله ، لكن أهل مصر كانوا قبلهما ناقلين على عمال عثمان لسوء سيرتهم ، كما أن النقمة على عثمان لم تقتصر- على المصريين ، ففي أنساب الأشراف: ٣٦٥/٥:
«حدثني محمد بن سعد عن الواقدي في إسناده قال: مرَّ عثمان بن عفان على جيلة بن عمرو الساعدي وهو على باب داره وقد أنكر الناس عليه ما أنكروا فقال له: يا نعثل والله لأقتلنك ولأحملنك على قلوب جرباء ولأخرجنك إلى حرّة النار! ثم أتاه وهو على المنبر فأنزله وكان أول من اجترأ على عثمان وتجهّمه بالمنطق الغليظ ! وأتاه يوماً بجامعة فقال: والله

لأطرحنّها في عنقك أو لتتركنّ بطانتك هذه ، أطعمت الحارث بن الحكم السوق وفعلت وفعلت. وكان عثمان ولّى الحارث السوق فكان يشتري الجلب بحكمه ويبيعه بسومه ويجبي مقاعد المتسوّقين ويصنع صنيعاً منكراً فكلم في إخراج السوق من يده فلم يفعل. وقيل لجبله في أمر عثمان وسئل الكفّ عنه فقال: والله لا ألقى الله غداً فأقول إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلّونا السيلا.. خطب عثمان في بعض أيامه فقال له جهجاه بن سعيد الغفاري: يا عثمان إنزل ندرّعك عباءة ونحملك على شارف من الإبل إلى جبل الدخان كما سيّرت خيار الناس... وكان جهجاه ممن بايع تحت الشجرة..

عن صالح ابن كيسان عن عمر بن عبد العزيز، أن محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر حين أكثر الناس في أمر عثمان قدما مصر وعليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ووافقا بمصر محمد بن طلحة بن عبيد الله وهو مع عبد الله بن سعد..

وغزا ابن أبي سرح إفريقية فأعدّ لها سفينة مفردة لئلا يفسدا عليه الناس ، فمرض ابن أبي بكر فتخلّف وتخلّف معه ابن أبي حذيفة ، ثم إنّهما خرجا في جماعة الناس فما رجعا من غزاتهما إلا وقد أوغرا صدور الناس على عثمان ، فلما وافى ابن أبي سرح مصر وافاه كتاب عثمان بالمصير اليه ، فشخص إلى

المدينة وخلف على مصر رجلاً كان هواه مع ابن أبي بكر وابن أبي حذيفة ، فكان ممن شايعهم وشجّعهم على المسير إلى عثمان .

وبعث عثمان إلى ابن أبي حذيفة بثلاثين ألف درهم ، وبجمل عليه كسوة فأمر به فوضع في المسجد ، وقال: يا معشر- المسلمين ألا ترون إلى عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني عليه! فازداد أهل مصر عيباً لعثمان وطعناً عليه واجتمعوا إلى ابن أبي حذيفة فرأسوه عليهم ، فلما بلغ عثمان ذلك دعا بعمار بن ياسر ، فاعتذر إليه مما فعل به واستغفر الله منه (كان ضرب عثمان وداس عليه) وسأله أن لا يحقده عليه ، وقال: بحسبك من سلامتي لك ثقتي بك ، وسأله الشخوص إلى مصر ليأتيه بصحة خبر ابن أبي حذيفة ، وحق ما بلغه عنه من باطله . وأمره أن يقوم بعذره ويضمن عنه العتبي لمن قدم عليه ، فلما ورد عمار مصر حرّض الناس على عثمان ودعاهم إلى خلعه وأشعلها عليه ، وقوى رأي ابن أبي حذيفة وابن أبي بكر وشجّعها على المسير إلى المدينة ، فكتب ابن أبي سرح إلى عثمان يعلمه ما كان من عمار ويستأذنه في عقوبته ، فكتب إليه بسّ الرأي رأيت يا ابن أبي سرح ، فأحسن جهاز عمار واحمله إليّ ، فتحرك أهل مصر وقالوا: سيرّ عمار (نفاه) ودبّ فيهم ابن أبي حذيفة ، ودعاهم إلى المسير ، فأجابوه .»

وفي تاريخ الطبري: ٥٤٨/٣: « عن عباس بن سهل الساعدي أن محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف هو الذي كان سرب المصريين إلى عثمان بن عفان ، وأنهم لما ساروا إلى عثمان فحصره وثب هو بمصر على عبد الله بن سعد بن أبي سرح أحد بني عامر بن لؤي القرشي ، وهو عامل عثمان يومئذ على مصر ، فطرده منها وصلى بالناس ، فخرج عبد الله بن سعد من مصر ، فنزل على تخوم أرض مصر مما يلي فلسطين ، فانتظر ما يكون من أمر عثمان ، فطلع راكب فقال: يا عبد الله ما وراءك خبرنا بخبر الناس خلفك . قال: أفعل ، قتل المسلمون عثمان . فقال عبد الله بن سعد: إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا عبد الله ثم صنعوا ماذا؟ قال: ثم بايعوا ابن عم رسول الله علي بن أبي طالب. قال عبد الله بن سعد: إنا لله وإنا إليه راجعون! قال له الرجل: كأن ولاية علي بن أبي طالب عدلت عندك قتل عثمان! قال: أجل . قال فنظر إليه الرجل فتأمله فعرفه وقال: كأنك عبد الله بن أبي سرح أمير مصر! قال: أجل. قال له الرجل: فإن كان لك في نفسك حاجة فالنجاء النجاء ، فإن رأي أمير المؤمنين فيك وفي أصحابك سيئ ، إن ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين ، وهذا بعدي أمير يقدم عليك . قال له عبد الله: ومن هذا الأمير؟ قال: قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري... فخرج عبد الله بن سعد هارباً حتى قدم على معاوية بن أبي سفيان دمشق».

الفصل الثاني: مصر في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ٣٩

أقول: هذا النص الذي روته أو روت شبيهاً به عامة المصادر ، يدل على حب أهل مصر للمحمدين وطاعتهم لهما ، بل تدل نصوص الفتوحات الأفريقية التي قام بها المصريون ، ونصوص معركة ذات الصواري التي رد المصريون فيها غزوة الروم البحرية ، على أن المحمدين قادا المصريين فيها ، فقد كانوا يحبونها أكثر من واليهم .

أرسل عثمان وفوداً الى مصر

أرسل عثمان عمار بن ياسر وغيره الى مصر ، ليعالج مشكلة الوالي مع أهلها فزاد غضب المصريين ، فكتب له الوالي كما في تاريخ المدينة (٣/١١٢٣): «أما بعد فإنك بعثت قوماً ليقوموا بضررك وإنهم يخرضون عليك ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ضرب أعناقهم فليفعل! فكتب إليه عثمان: بئس الرأي رأيت يا ابن أبي سرح ، حتى تستأذن في قتل قوم فيهم عمار بن ياسر! أنا بقضاء الله أَرْضَى من أن آذن لك في ذلك ، فإذا أتاك كتابي هذا فأحسن صحبتهم ما صحبتهم ما صحبتوك ، فإذا أرادوا الرحلة فأحسن جهازهم ، وإياك أن يأتيني عنك خلاف ما كتبت به إليك» .

معركة ذات الصواري

فتح المسلمون أفريقيا من مصر ، وشارك في غزواتها المحمدان وعدد من الصحابة ، لكن رواة السلطة نسبوا النصر فيها الى ولاية عثمان، وخاصة عبد الله بن أبي سرح ، الذي شكاه أهل مصر ، وكان النبي ﷺ هدر دمه ! وكانت معركة ذات الصواري على أثر فتح المسلمين لأفريقيا وتحريرها من النفوذ الرومي ، فقام قسطنطين ملك الروم ، بغزو الإسكندرية بخمس مئة سفينة وقيل ست مئة وقيل ألف، وفي السفينة عادة مئة مقاتل ، ووصلوا الى ساحل الإسكندرية، فقصدتهم المسلمون في مئتي سفينة ، واشتبكوا مع بعض سفنهم ، وكان القائد الرسمي للمسلمين والي مصر الأموي ، وكان المحمدان القائدين الميدانيين للمقاتلين !

على أن سبب انتصار المسلمين في معركة ذات الصواري كان الريح التي أرسلها الله تعالى على الروم فحطمت بعض سفنهم وشتت الباقي، لكن رواة السلطة يهملون العوامل الربانية ودور الأبطال الحقيقيين ، وينسبون النصر الى الولاية أياً كانوا !

قال القرش المصري في فتوح مصر وأخبارها/ ٣٢٣: « مشت الروم إلى قسطنطين بن هرقل في سنة خمس وثلاثين فقالوا: تترك الإسكندرية في أيدي العرب ، وهي مدينتنا الكبرى؟! فقال: ما أصنع بكم ، ما تقدرون أن تتهاكوا ساعة

الفصل الثاني: مصر في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ٤١

إذا لقيتم العرب! قالوا: فاخرج على أنا نموت ، فتايبعوا على ذلك ، فخرج في ألف مركب يريد الإسكندرية ، فسار أياماً غالبية من الريح ، فبعث الله عليهم ريحاً فغرقتهم ، إلا قسطنطين نجاً بمركبه فألقته الريح بسقلية ، فسأله عن أمره فأخبرهم ، فقالوا: أشممتَ بالنصرانية أعداءها ، وأفنيت رجالها ، لو دخل العرب علينا لم نجد من يردهم !

فقال: خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا! فصنعوا له الحمام ودخلوا عليه فقال: ويلكم تذهب رجالكم ، وتقتلون ملككم ؟ قالوا: كأنه غرق معهم ، ثم قتلوه ، وخلوا من كان معه في المركب !

وفي فتوح مصر/ ٣٢٣: « فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب ، وتأخر هرقل لئلا تصيبه الهزيمة ، وجعلت القوارب تختلف إليه بالأخبار فقال: ما فعلوا؟ قالوا: قد اقتتلوا بالنبل والنشاب . فقال: غلبت الروم . ثم أتوه فقال: ما فعلوا؟ قالوا: قد نفذ النبل والنشاب فهم يرمون بالحجارة . قال: غلبت الروم . ثم أتوه فقال: ما فعلوا؟ قالوا: قد نفذت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف . قال: غلبت الروم..

عن يزيد بن أبي حبيب قال: وكانت السفن إذ ذاك تُقرن بالسلاسل عند القتال فقال: فقرن مركب عبد الله يومئذ وهو الأمير ، بمركب من مراكب العدو ، فكاد مركب العدو يجتر مركب عبد الله إليهم ، فقام علقمة بن يزيد

الغطيفي ، وكان مع عبد الله بن سعد في المركب ، فضرب السلسلة بسيفه فقطعها ، فسأل عبد الله امرأته بعد ذلك بسياسة ابنة حمزة بن ليثرح وكانت مع عبد الله يومئذ ، وكان الناس يغزون بنسائهم في المراكب: من رأيت أشد قتالاً؟ قالت علقمة صاحب السلسلة .»

وفي فتوح مصر/ ٤٤٩: « روى بعض الناس: سمعت عمار بن ياسر بندي الصواري .»

وقال المسعودي في التنبيه والإشراف/ ١٣٥: « قسطنطين بن قسطنطين أخي هرقل، وقيل إنه ابن هرقل ن ملك تسع سنين وستة أشهر ، في خلافة عثمان بن عفان ، وهو الذي غزا في البحر في نحو ألف مركب حربية وغيرها فيها الخيل والحزائن والعدد ، يريد الإسكندرية من بلاد مصر، وكان عامل مصر والإسكندرية لعثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فالتقوا في البحر فكانت على قسطنطين ، فعطبت مراكبه وهلك أكثر رجاله ، ونجا في مركب ، فوقع في جزيرة سقلية من بلاد إفريقية ، فقتله جرجيق ملكها تشاؤما به لإهلاكه النصرانية. وسميت هذه الغزاة ذات الصواري لكثرة المراكب وصواريها وهي الأدقال ، وكان ذلك في سنة ٣٤ للهجرة .»

وقال الطبري في تاريخه: ٣/ ٣٤٠: « عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: كنت معهم فالتقينا في البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ، وكانت

الريح علينا فأرسينا ساعة وأرسوا قريباً منا ، وسكنت الريح عنا ، فقلنا الأمن بيننا وبينكم . قالوا: ذلك لكم ولنا منكم . ثم قلنا: إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ، وإن شئتم فبالبحر. قال: فنخروا نخرة واحدة وقالوا: الماء ! فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضاً على سفننا وسفنهم ، فقاتلنا أشد القتال ، ووثبت الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن ، ويتواجؤون بالخناجر ، حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاماً...

عن حنش بن عبد الله الصنعاني قال: كان أول ما سُمع من محمد بن أبي حذيفة حين ركب الناس البحر سنة ٣١ ، لما صلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح بالناس العصر ، كَبَّرَ محمد بن أبي حذيفة تكبيراً ورفع صوته حتى فرغ الإمام عبد الله بن سعد بن أبي سرح!

فلما انصرف سأل ما هذا؟ فقيل له: هذا محمد بن أبي حذيفة يُكَبِّرُ، فدعاه عبد الله بن سعد فقال له: ما هذه البدعة والحدث؟ فقال له: ما هذه بدعة ولا حدث ، وما بالتكبير بأس! قال: لا تعودن .

قال: فسكت محمد بن أبي حذيفة ، فلما صلى المغرب عبد الله بن سعد كبر محمد بن أبي حذيفة تكبيراً أرفع من الأول ، فأرسل إليه إنك غلام أحمق ،

أما والله لولا أني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين لقاربت بين خطوك ! فقال محمد بن أبي حذيفة: والله مالك إلى ذلك سبيل ، ولو هممت به ما قدرت عليه ! قال: فكُفَّ خيرٌ لك ، والله لا تركب معنا. قال: فأركب مع المسلمين. قال: إركب حيث شئت . قال: فركب في مركب وحده ما معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصواري ، فلقوا جموع الروم في خمس مائة مركب أو ست مائة ، فيها القسطنطين بن هرقل فقال: أشيروا عليّ. قالوا: ننظر الليلة ، فباتوا يضربون بالنواقيس ، وبات المسلمون يصلون ويدعون الله .

ثم أصبحوا وقد أجمع القسطنطين أن يقاتل فقربوا سفنهم وقرب المسلمون فربطوا بعضها إلى بعض ، وصفَّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن ، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ، ويأمرهم بالصبر . ووثبت الروم في سفن المسلمين على صفوفهم حتى نقضوها ، فكانوا يقاتلون على غير صفوف . قال: فاقتتلوا قتالاً شديداً . ثم إن الله نصر المؤمنين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، لم ينج من الروم إلا الشريد .

قال: وأقام عبد الله بذات الصواري أياماً ، بعد هزيمة القوم ، ثم أقبل راجعاً ، وجعل محمد بن أبي حذيفة يقول للرجل: أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً ، فيقول الرجل: وأي جهاد؟ فيقول: عثمان بن عفان فعل كذا

الفصل الثاني: مصر في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ٤٥

وكذا وفعل كذا وكذا ، حتى أفسد الناس فقدموا بلدهم وقد أفسدهم ،
وأظهروا من القول ما لم يكونوا ينطقون به .

قال محمد بن عمر فحدثني معمر بن راشد عن الزهري قال: خرج محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر عامَ خرج عبد الله بن سعد ، فأظهدا عيب عثمان وما غيرَ ، وما خالف به أبا بكر وعمر ، وأن دم عثمان حلال . ويقولان: استعمل عبد الله بن سعد رجلاً كان رسول الله ﷺ أباح دمه ونزل القرآن بكفره ! وأخرج رسول الله ﷺ قوماً وأدخلهم (يقصدان الحكم وولده) ونزع أصحاب رسول الله ﷺ ، واستعمل سعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر » .



ملاحظات

١. نستتج من نصوص غزوة ذات الصواري أنه لم يكن فيها معركة مهمة ،
 وأن سفن المسلمين رست على الشاطئ ، ورست سفن الروم مقابلها في
 البحر ، وأن اليوم الأول كان هدنة ولم يكن فيه اشتباك ، وكان الإشتباك في
 اليوم الثاني مع مراكب محدودة ، وسرعان ما بعث الله الريح والموج فنسفت
 مراكب الروم نسفاً ، فغرق أكثرها ونجا بعضها .

ولهذا لا تجد في نصوص ذات الصواري وصفاً للمعركة إلا القول إنهم بعد
 أن ربطوا بعض السفن بسفن الروم هاجمهم الروم ، ومعناه أن الروم كانوا
 مهاجمين ، فهم الذين ربطوا السفن وهاجموا ، لكن الله تعالى سخر عليهم
 الريح . ويكفي أن تقرأ: « فبعث الله عليهم ريحاً فغرقتهم إلا قسطنطين نجا
 بمركبه فألقته الريح بسقلية ، فسألوه عن أمره فأخبرهم ، فقالوا: أشمَّتْ
 بالنصرانية أعداءها وأفنيت رجالها ، لو دخل العرب علينا لم نجد من
 يردهم ! فقال: خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا... وطرحت الأمواج جثث
 الرجال ركاماً » .

وإذا صح أن قسطنطين جرح فقد يكون جرحه من الأمواج لا من القتال .
 وكانت جزيرة صقلية مملكة تحت حكم الروم .

وقال ابن سالم الكلاعي في الإكتفاء: ٢/ ٣٦٧، عن حنش الصنعاني قال: « ثم أصبحوا وقد أجمع القسطنطين فقربوا سفنهم ، وقرب المسلمون ، فربطوا بعضها إلى بعض ، وصفَّ عبد الله المسلمين على نواحي السفن وأمرهم بقراءة القرآن وبالصبر، ووثبت الروم في سفن المسلمين على صفوفهم حتى نقضوها ، واقتتلوا على غير صفوف قتالاً شديداً ، ثم إن الله نصر المؤمنين ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة لم ينج من الروم إلا الشريد ، و أقام عبد الله بذات الصواري أياماً بعد هزيمة القوم ، ثم أقبل راجعاً .

وذكر ابن عبد الحكم: أن عبد الله بن سعد لما نزل ذات الصواري.. قال: وإنما مراكب المسلمين مائتا مركب ونيف ، فقام فقال: أشيروا عليّ ، فما كلمه رجل من المسلمين ، فجلس قليلاً لترجع إليهم أفئدتهم ، ثم استشارهم فما كلمه أحد ، ثم قال الثالثة: إنه لم يبق شيء ، فأشيروا عليّ فقال رجل من أهل المدينة كان متطوعاً: أيها الأمير إن الله تعالى يقول: كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . فقال عبد الله: إركبوا باسم الله فركبوا، وإنما في كل مركب نصف شحنته ، قد خرج النصف الآخر مع بسر في البر ، فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب ، وتأخر ابن هرقل لئلا تصيبه الهزيمة ، وجعل تحتلف القوارب إليه بالأخبار فقال: ما فعلوا؟ قالوا: اقتتلوا بالنبل والنشاب . قال: غلبت الروم...

قال يزيد بن أبي حبيب: وكانت السفن إذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال... وفي بعض ما تقدم من الأخبار ما يقتضى- أن ذات الصواري موضع يسمى هكذا».

٢. لو افترضنا أي اشتباك أو معركة في ذات الصواري ، فلا بد أن يكون
المحمدان في طليعتها ، لأنها مطاعان في الجيش المصري أكثر من الوالي ،
بدليل أن المصريين بايعوا محمد بن أبي حذيفة بعد أيام ، ونفوا واليهم ابن
أبي سرح .

٣. قال البلاذري في أنساب الأشراف (٥/ ٥٣٩): (فكتب ابن أبي سرح إلى
عثمان إن محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة ، قد أنغلا عليّ المغرب
وأفسداه ، فكتب اليه عثمان: أما محمد بن أبي بكر فإني أدعه لأبي بكر
الصديق وعائشة أم المؤمنين ، وأما محمد بن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي
وأنا ربيته ، وهو فرخ قریش » .

وهذا يدل على أن تأثيرهما ظهر في المسلمين في فتح أفريقيا ، ويرد ما قيل من أن
تحريكهما للمصريين بدأ من غزوة ذات الصواري ، كما يدل على دورهما المؤثر في
فتح إفريقيا والمغرب ..

زاد نشاط الحمدين في جيش ذات الصواري

عندما أراد الوالي التوجه الى معركة ذات الصواري ، منع المحمدين من ركوب السفن مع الجيش المصري لئلا يحركا المصريين ضده ، ولكنها ذهبا مع الجيش ، وكان ابن أبي حذيفة يقول لهم: نذهب الى جهاد الروم ، لكن الجهاد الأفضل وراءنا وهو جهاد عثمان!

وقد استقطب محمد تأييد جيش ذات الصواري ، ثم استقطب أكثرية المصريين ، فقد ذهب الوالي بعد ذات الصواري الى المدينة لمدة قليلة فسيطر محمد على مصر وبايعه أهلها ، وأرسل جيشه ليمنع الوالي من دخول مصر ، فمنعوه وطرده الى فلسطين .

وأرسل محمد وفداً عسكرياً الى المدينة ، ليطالبوا عثمان بالتوبة ، وإصلاح الأوضاع ، أو يخلع نفسه .

قال البلاذري في أنساب الأشراف: ٥/ ٥٤٠: « عن عمر بن عبد العزيز أن محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر ، حين أكثر الناس في أمر عثمان قدما مصر وعليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ووافقا بمصر محمد بن طلحة بن عبيد الله وهو مع عبد الله بن سعد ، وأن ابن أبي حذيفة شهد صلاة الصبح في صبيحة الليلة التي قدم فيها ففاته الصلاة فجهر بالقراءة ، فسمع ابن أبي

سرح قراءته فسأل عنه فقيل رجل أبيض طوال وضئ الوجه ، فأمر إذا صلَّى أن يؤتى به ، فلما رآه قال: ما جاء بك إلى بلدي؟ قال: جئت غازياً. قال: ومن معك؟ قال محمد بن أبي بكر ، فقال: والله ما جئتما إلَّا لتفسدا الناس وأمر بهما فسجنا ، فأرسلا إلى محمد بن طلحة يسألانه أن يكلمه فيهما لئلا يمنعها من الغزو ، فأطلقهما ابن أبي سرح ، وغزا ابن أبي سرح إفريقية فأعد لهما سفينة مفردة لئلا يفسدا عليه الناس ، فمرض ابن أبي بكر فتخلف وتخلف معه ابن أبي حذيفة ، ثم إنهما خرجا في جماعة الناس ، فما رجعا من غزاتهما إلَّا وقد أوغرا صدور الناس على عثمان ، فلما وافى ابن أبي سرح مصر وافاه كتاب عثمان بالمصير اليه ، فشخص إلى المدينة ، وخلف على مصر رجلاً كان هواه مع ابن أبي بكر وابن أبي حذيفة ، فكان ممن شايعهم وشجعهم على المسير إلى عثمان .»

خرد أهل مصر واليهم وبايعوا محمد بن أبي حذيفة!

كان في مصر حركة قوية ضد عثمان ، شارك فيها عدد من الصحابة ، منهم عمار بن ياسر ، وأبو ذر الغفاري ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، لكن قائديها المحمدان: محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة .

وقد تميز الأخير بحكم صفاته الشخصية ، وأنه من علياء بني أمية ، فهو حفيد زعيمهم الكبير عتبة بن ربيعة ، الذي قتل في بدر ، وبيته عندهم أشرف من بيت أبي سفيان ، فضلاً عن بيت عثمان وبقية بني العاص والعيص . لذلك كانت عين محمد قوية على عثمان وعلى واليه ابن أبي سرح ، فعجزا عن إخضاعه .

وحاول عثمان كسبه ، فأرسل له ثلاثين ألف درهم وهدايا ، فوضعها محمد في المسجد وقال للمسلمين إن عثمان يرشوه ليسكت عن انحرافه عن الإسلام ، فزادت نقمة المصريين على عثمان .

وفي تاريخ دمشق (٢٩/٢٦): « ثم وفد (الوالي) على عثمان بن عفان واستخلف على مصر السائب بن هشام بن عمرو العامري ، فانتزى (أي قفز) محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، فخلع السائب وتأمّر على مصر

ورجع عبد الله بن سعد من وفادته ، فمنعه ابن أبي حذيفة من دخول
الفسطاط ، ومضى إلى عسقلان فأقام بها .»

وفي الغارات للثقفى: ١ / ٢٠٥: « فطرده منها وصلى بالناس ، فخرج ابن أبي
سرح من مصر ونزل على تخوم أرض مصر مما يلي فلسطين ، وانتظر ما يكون
من أمر عثمان ، فطلع عليه راكب فقال: يا عبد الله ما وراءك ، خبرنا بخبر
الناس ، فقال: أقعد ، قتل المسلمون عثمان . فقال ابن أبي سرح: إنا لله وإنا
إليه راجعون. يا عبد الله ، ثم صنعوا ماذا ؟ قال: بايعوا ابن عم رسول الله
علي بن أبي طالب عليه السلام . قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ! قال له الرجل: كأن
ولاية علي عدلت عندك قتل عثمان ؟ قال أجل... وخرج ابن أبي سرح حتى
قدم على معاوية بدمشق .»

وفي الإصابة (٦ / ١٠): « بايع أهل مصر محمد بن أبي حذيفة بالإمارة إلا عصابة
منهم معاوية بن حديج وبسر بن أرطاة ، فقدم عبد الله بن سعد حتى إذا بلغ
القلزم ، وجد هناك خيلاً لابن أبي حذيفة ، فمنعوه أن يدخل ، فانصرف إلى
عسقلان ، ثم جهز ابن أبي حذيفة الذين ثاروا على عثمان وحاصروه ، إلى أن
كان من قتله ما كان .»

وأرسل أهل مصر رسالة نصيحة الى الخليفة عثمان

روى عمر بن شبة في كتابه تاريخ المدينة: ٣/ ١١٢٠: « عن محمد بن إسحاق عن مخلد بن خفاف عن عروة بن الزبير قال: كتب أهل مصر إلى عثمان: من الملائم المسلمين إلى الخليفة المبلى ، أما بعد: فالحمد لله الذي أنعم علينا وعليك واتخذ علينا فيما آتاك الحجة ، وإنا نذكرك الله في مواقع السحاب ، فإن الله قال في كتابه: قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ . أن تحل ما شئت منه بقولك ، وتحرم ما شئت منه بقولك . ونذكرك الله في الحدود ، أن تعطلها في القريب وتقيمها في البعيد ، فإن سنة الله واحدة ، ونذكرك الله في أقوام أخذ الله ميثاقهم على طاعة ليكونوا شهداء على خلقه، نصحووا لك فاغتششت نصيحتهم ، وأخرجتهم من ديارهم وأمواهم ، وقال الله في كتابه: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ .

فذكرك الله وننهاك عن المعصية ، فإنك تدعي علينا الطاعة ، وكتاب الله ينطق لا طاعة لمن عصى الله ، فإن تعط الله الطاعة نوأزرك ونوقرك ، وإن تأب فقد علمنا أنك تريد هلكتنا وهلكتك ، فمن يمنعنا من الله إن أطعناك وعصيناه ، وأنت العبد الميت المحاسب ، والله الخالق البارئ المصور الذي

لا يموت ! »

وذهب المصريون في جيش صغير الى عثمان

في تاريخ المدينة: ٣/ ١١٢٤: « فخرج ست مائة أو أربع مائة ، وجعلوا أمرهم إلى أربعة منهم رؤساء: عبد الرحمن بن عبد قيس بن عباد التجوبي ، وجماع أمرهم إلى محمد بن أبي حذيفة ، ويقال عبد الرحمن بن عديس ، وكان اسمه في الجاهلية علقمة فتسمى عبد الرحمن ، وكان معهم عروة بن شتيم الليثي ، وأبو رومان الأسدي ، وسودان بن عمران التجوبي.. وفي ذلك يقول الشاعر:

خرجن من أليون بالصعيد مستحقات حلق الحديد

يطلبن بحق الله في الوليد وفي ابن عفان وفي سعيد

فقدموا فنزلوا بذئ خشب في رمضان».

وفي تاريخ دمشق: ٣٩/ ٤٢٣: « عن يزيد بن أبي حبيب: قال محمد بن أبي حذيفة: من يشترط في هذا البعث؟ فكثر عليه من يشترط ، فقال لهم: إنكم إنما تطلقون إلى شيعة لكم ، إنما يكفيننا منكم ست مائة رجل ، فاشترط من أهل مصر ست مائة رجل ، وأمر عليهم محمد بن أبي حذيفة عبد الرحمن بن عديس البلوي فساروا إلى أهل المدينة. وسجن رجالاً من أهل مصر- في دورهم ، منهم بسر بن أبي أرطاة ، ومعاوية بن حديج».

الحركة ضد عثمان من غير المصريين

قال البلاذري في أنساب الأشراف: ٥/٥٤٨: «التقى أهل الأمصار الثلاثة: الكوفة والبصرة ومصر، في المسجد الحرام قبل مقتل عثمان بعام، وكان رئيس أهل الكوفة كعب بن عبدة النهدي، ورئيس أهل البصرة المثنى بن مخزوم العبدى، ورئيس أهل مصر كنانة بن بشر بن عتاب بن عوف السكوني ثم التجيبي، فتذاكروا سيرة عثمان وتبديله وتركه الوفاء بما أعطى من نفسه وعاهد الله عليه، وقالوا لا يسعنا الرضا بهذا! فاجتمع رأيهم على أن يرجع كل واحد من هؤلاء الثلاثة إلى مصر فيكون رسول من شهد مكة من أهل الخلاف على عثمان إلى من كان على رأيهم من أهل بلده، وأن يوافقوا عثمان في العام المقبل في داره ويستعتبوه، فإن أعتب وإلا رأوا رأيهم فيه، ففعلوا ذلك».

وروى ابن كثير في النهاية: ٧/١٩٥: «وذكر ابن جرير من هذه الطريق أن الصحابة كتبوا إلى الآفاق من المدينة يأمرون الناس بالقدوم على عثمان ليقاتلوه، وهذا كذب على الصحابة، وإنما كتبت كتب مزورة عليهم، كما كتبوا من جهة علي وطلحة والزبير إلى الخوارج كتباً مزورة عليهم أنكروها وهكذا زور هذا الكتاب على عثمان أيضاً، فإنه لم يأمر به ولم يعلم به أيضاً».

أقول: يدافع ابن كثير عن عثمان بتكذيب النصوص بدون دليل ، فمن الواضح أن الصحابة كانوا بين معارض لعثمان ثائر عليه ، أو ناظم ساكت لم يجرئ يده ولا لسانه للدفاع عنه مع أن محاصرته طالت أربعين يوماً وأكثر ! وقد روى المؤرخون كالبلاذري في أنساب الأشراف: ٥/ ١٤١ ، أن الصحابة تكاتبوا وتشاكوا أمر عثمان: « لما كانت سنة ٣٤ كتب بعض أصحاب رسول الله ﷺ إلى بعض يتشاكون سيرة عثمان وتغييره وتبديله ، وما الناس فيه من عماله ، ويكثر عليه ، ويسأل بعضهم بعضاً أن يقدموا المدينة إن كانوا يريدون الجهاد ، ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يدفع عن عثمان ولا ينكر ما يقال فيه ، إلا زيد بن ثابت ، وأبو أسيد الساعدي ، وكعب بن مالك بن أبي كعب من بني سلمة من الأنصار ، وحسان بن ثابت ».

ويكفي أن الصحابة أفتوا بكفره وتحريم دفنه في مقابر المسلمين ، فقد وثق المهتمي ذلك في مجمع الزوائد: ٩/ ٩٥ ، قال: « فحملوه على باب وإن رأسه تقول على الباب طَّقَ طَّقَ ، حتى أتوا البقيع .. ثم أرادوا دفنه فقام رجل من بني مازن فقال: لئن دفتموه مع المسلمين لأخبرن الناس غداً ! فحملوه حتى أتوا به حش كوكب » . وهو مقبرة اليهود .

محاصرة الجيش المصري لعثمان التي انجرت الى قتله

قال ابن حبان في الثقات: ٢/٢٥٦: «خرج جماعة من أهل مصر إلى عثمان يشكون بن أبي سرح ويتكلمون فيه ، فكتب إليه عثمان كتاباً وهدده فيه ، فأبى ابن أبي السرح أن يقبل من عثمان، وضرب بعض من أتاه من قبل عثمان متظلماً، وقتل رجلاً من المتظلمة !

فخرج من أهل مصر سبع مائة رجل فيهم أربعة من الرؤساء: عبد الرحمن بن عديس البلوى ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وكنانة بن بشر بن عتاب الكندي ، وسودان بن حمران المرادي ، فساروا حتى قدموا المدينة ، ونزلوا مسجد رسول الله ﷺ وشكوا إلى أصحاب محمد ﷺ في مواقيت الصلاة ما صنع بهم بن أبي سرح ، فقام طلحة بن عبيد الله إلى عثمان بن عفان وكلمه الكلام الشديد . وأرسلت إليه عائشة: قدم عليك أصحاب محمد وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت ذلك بواحدة ، وهذا قد قتل منهم رجلاً ، فأنصفهم من عاملك ! وكان عثمان يحب قومه .

ثم دخل عليه علي بن أبي طالب فقال: سألوكم رجلاً مكان رجل ، وقد ادعوا قبله دماً فاعزله عنهم ، واقض بينهم ، فإن وجب عليه حق فأنصفهم منه . فقال لهم عثمان: اختاروا رجلاً أوليه عليكم مكانه ، فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر ، فقالوا لعثمان: إستعمل علينا محمد بن أبي بكر ، فكتب

عنده وولاه مصر، فخرج محمد بن أبي بكر والياً على مصر بعهدده ومعه عدة من المهاجرين والأنصار، ينظرون فيما بين أهل مصر وبين بن أبي سرح، فلما بلغوا مسيرة ثلاثة ليال من المدينة، إذا هم بغلام أسود على بعير له يخبط البعير خبطاً، كأنه رجل يطلب أو يُطلب. فقالوا له: ما قصتك وما شأنك كأنك هارب أو طالب؟ قال: أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر. قالوا: هذا عامله معنا. قال: ليس هذا أريد، ومضى فأخبر محمد بن أبي بكر بأمره، فبعث في طلبه أقواماً فردوه، فلما جاؤوا به قال له محمد: غلام من أنت؟ فأقبل مرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين، ومرة يقول أنا غلام مروان، فعرفه رجل منهم أنه لعثمان، فقال له محمد بن أبي بكر: لمن أرسلت؟ قال: إلى عامل مصر. قال: بماذا؟ قال برسالة. قال أمعك كتاب: قال: لا. ففتشوه فلم يجدوا معه كتاباً، وكان معه إداوة قد ييست وفيها شيء يتقلقل، فحركوه ليخرج فلم يخرج، فشقوا الإداوة، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى بن أبي سرح! فجمع محمد بن أبي بكر من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، ثم فك الكتاب بحضرتهم فإذا فيه: إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاحتل لقتلهم، وأبطل كتابه وقرّ على عملك، واحبس من يجيء إليّ يتظلم منك، حتى يأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله. فلما قرؤوا الكتاب فزعوا وأزمعوا ورجعوا إلى المدينة، وختم محمد بن أبي بكر الكتاب

الفصل الثاني: مصر في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ٥٩

بخواتم جماعة من المهاجرين معه ، ودفع الكتاب إلى رجل منهم ، وانصرفوا إلى المدينة فلما قدموها جمع محمد بن أبي بكر علياً وطلحة والزبير وسعداً ، وكان بها من أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم فك الكتاب بحضرتهم عليه خواتم من معه من المهاجرين ، وأخبرهم بقصة الغلام ، فلم يبق أحد من المدينة إلا حنق على عثمان !

وقام أصحاب رسول الله ﷺ فلحقوا بمنزلهم ما منهم أحد إلا هو مغتم ، وكانت هذيل وبنو زهرة في قلوبها ما فيها على عثمان ، لحال بن مسعود ، وكانت بنو مخزوم قد حنقت على عثمان لحال عمار بن ياسر ، وكانت بنو غفار وأحلافها ومن غضب لأبي ذر في قلوبهم ما فيها . وأجلب عليه محمد بن أبي بكر من بنى تيم ، وأعاناه على ذلك طلحة بن عبيد الله وعائشة .

فلما رأى ذلك عليٌّ وصح عنده الكتاب ، بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم بدريون ، ثم جاء معهم حتى دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير ، فقال له: هذا الغلام غلامك؟ قال: نعم . قال: والبعير بعيرك؟ قال: نعم . قال: فأنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: لا ، وحلف بالله أنه ما كتب هذا الكتاب ، ولا أمر به . فقال له عليٌّ: فالخاتم خاتمك؟ قال: نعم . قال عليٌّ: فكيف يخرج غلامك على بعيرك بكتاب عليه خاتمك لا تعلم به؟ فحلف عثمان بالله ما كتبت هذا

الكتاب ، ولا أمرت به ، ولا وجهت هذا الغلام قط إلى مصر ، وأما الخط فعرفوا أنه خط مروان ، فلما شكوا في أمر عثمان ، سألوه أن يدفع إليهم مروان فأبى ، وكان مروان عنده في الدار ، وكان خشي عليه القتل .

فخرج من عنده عليٌّ وأصحاب رسول الله ﷺ وعلموا أن عثمان لا يحلف باطلاً ، ثم قالوا: لا نسكت إلا أن يدفع إلينا مروان حتى نبحث ونتعرف منه ذلك الكتاب ، وكيف يأمر بقتل رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بغير حق؟ فإن يك عثمان كتب ذلك عزلناه ، وإن يك مروان كتبه على لسان عثمان نظرنا ما يكون في أمر مروان . ولزموا بيوتهم وفشا الخبر في المسلمين من أمر الكتاب ، وقعد أصحاب رسول الله عن عثمان .

وخرج من الكوفة عدي بن حاتم الطائي ، والأشتر مالك بن الحارث النخعي ، في مائتي رجل ، وخرج من البصرة حكيم بن جبلة العبدي في مائة رجل ، حتى قدموا المدينة يريدون خلع عثمان . وحوصر عثمان قبل هلال ذي القعدة بليلة ، وضيق عليه المصريون والبصريون وأهل الكوفة ، بكل حيلة ، ولم يدعوه يخرج ولا يدخل إليه أحد ، إلا أن يأتيه المؤذن فيقول الصلاة ، وقد منعوا المؤذن أن يقول يا أمير المؤمنين ، فكان إذا جاء وقت الصلاة بعث أبا هريرة يصلي بالناس ، وربما أمر ابن عباس بذلك ، فصعد يوماً عثمان على السطح ، فسمع بعض الناس يقول: إبتغوا إلى قتله سبيلاً.

الفصل الثاني: مصر في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ٦١

فقال: والله ما أحل الله ولا رسوله قتلي . ثم أشرف عليهم فقال: أفيكم عليٌّ؟ قالوا: لا. قال: أفيكم سعد؟ قالوا: لا. فقال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رومة (بئر) لم يكن يشرب منها أحد إلا بشئ فابتعتها من مالي وجعلتها للغني والفقير وابن السبيل؟ فقالوا: نعم. قال فاسقوني منها . ثم قال: ألا أحد يبلغ علياً فيسقيننا ماء ، فبلغ ذلك علياً فبعث إليه بثلاث قرب مملوءة ، فما كادت تصل إليه حتى جرح في سببها عدة من بني هاشم وبني أمية حتى وصل الماء إليه ...».

وفي تاريخ المدينة: ١١٥٢/٤، عن ابن أبي ليلى قال: « قدم أهل مصر- على عثمان وقد نقموا عليه أشياء ، فأعتبهم فرجعوا راضين ، فلحقهم غلام لعثمان في الطريق معه كتاب إلى ابن أبي سرح يأمره فيه بقتلهم! فأخذوه ثم رجعوا إلى المدينة. وبلغ أهل مصر فأخرجوا ابن أبي سرح من مصر فألحقوه بفلسطين ، وبلغ أهل الكوفة رجوع أهل مصر الثانية ، فخرج الأشر في مائتين من أهل الكوفة ، وبلغ أهل البصرة ، فخرج حكيم ابن جبلة في مائة ، فتوافقوا بالمدينة فحصروا عثمان ».

وفي تاريخ دمشق: ٤٢٣/٣٩، عن أبي ثور الفهمي قال: « قدمت على عثمان فيينا أنا عنده فخرجت ، فإذا بوفد أهل مصر قد رجعوا ، فدخلت على عثمان فأخبرته فقال: كيف رأيتهم؟ قلت: رأيت في وجوههم الشر ، عليهم ابن

عديس البلوي ، فصعد ابن عديس منبر رسول الله ﷺ فصلى بهم الجمعة وتنقَّصَ عثمان في خطبته .

«وكان عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي ، وكان ممن بايع رسول ﷺ تحت الشجرة » . (تاريخ المدينة: ٤/ ١١٥٥).

وروى المفيد في كتاب الجمل/ ٦٨ ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، قال: «لما قدم أهل مصر في ست مائة راكب ، عليهم عبد الرحمن بن عديس البكري ، فنزلوا ذا خشب ، وفيهم كنانة بن بشير الكناني ، وأبو عمر بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، وأبو عروة الليثي ، واجتمع معهم حكيم بن جبلة العبدي ، في طائفة من أهل البصرة ، وكميل بن زياد ومالك الأشتر وصعصعة بن صوحان ، وحجر بن عدي ، في جماعة من قراء الكوفة ، الذين كانوا سيرهم عثمان منها إلى الشام ، حين شكوا أحداثه التي أنكرها عليه المهاجرون والأنصار ، فاجتمع القوم على عيب عثمان ، وجهروا بذكر إحدائه ، فمر بهم عمر بن عبد الله الأصم وزياد بن النظر ، فقالا: إن شئتم بلغنا عنكم أزواج النبي ﷺ فإن أمرنكم أن تقدموا فاقدموا فقالوا لهما: إفعلا ، واقصدوا علياً آخر الناس ، فانطلق الرجلان فبدءا بعائشة وأزواج النبي ﷺ بعدها ، ثم أنبأ أصحابه ﷺ فأخبروهم الخبر ، فأمرهم أن يقدموا المدينة وصاروا إلى أمير المؤمنين فأخبراه ، واستأذناه للقوم في دخول

المدينة، فقال لهما: أتيما أحداً قبلي؟ قالوا نعم أتينا عائشة وأزواج النبي ﷺ بعدها وأصحابه من المهاجرين والأنصار، فأمرنا أن يقدموا فقال علي لكنني لا أمرهم إلا أن يستغيثوا بمن قرب، فإن أغاثهم فهو خير لهم وإن أبي فهم أعلم، فخرج الرجلان إليهم جميعاً، وتسرع إليهم جماعة من المدينة واجتمعوا مع أهل حسب وذو مروءات، فلما بلغ عثمان اجتماعهم أرسل إلى علي عليه السلام وقال: أخرج يا أبا الحسن إلى هؤلاء القوم وردد لهم عما جاؤوا إليه. فخرج إليهم فلما رأوه رحبوا به وقالوا له: قد علمت يا أبا الحسن ما أحدثه هذا الرجل من الأعمال الخبيثة، وما يلقاه المسلمون منه ومن عماله، وكنا لقيناها واستعتبنا فلم يعتبنا، وكلمناه فلم يصغ إلى كلامنا وأغراه ذلك بنا، وقد جئنا نطالبه بالإعتزال عن إمرة المسلمين. واستأذنا في ذلك الأنصار والمهاجرين وأزواج النبي أمهات المؤمنين، فأذنوا لنا في ورود المدينة ونحن على ذلك. فقال لهم أمير المؤمنين يا هؤلاء تريثوا لا تسرعوا إلى شيء لا تعرف عاقبته فإننا كنا قد عتبنا على هذا في شيء وإنه قد رجع عنه فارجعوا، فقالوا هيئات يا أبا الحسن لا نقنع منه إلا بالإعتزال عن هذا الأمر ليقدم به من يوثق بإمامته. فرجع أمير المؤمنين إلى عثمان وأخبره بمقالتهم، فخرج عثمان حتى أتى المنبر فخطب الناس وجعل يتكلم ويدعو إلى نصرته ودفاع القوم عنه، فقام إليه عمرو بن العاص فقال:

يا عثمان إنك قد ركبت بالتهمة وقد ركبوها منك فتب إلى الله . فقال له عثمان: وإنك لها هنا يا ابن النابغة ! ثم رفع يده إلى السماء وقال: أتوب إلى الله اللهم إني أتوب إليك ؛ فأنفذ أمير المؤمنين عليه السلام إلى القوم بما جرى من عثمان ، وما صار إليه من التوبة والإقلاع .

فساروا إلى المدينة بأجمعهم ، وسار إليهم عمرو بن معدي كرب في ناس كثيرين ، فجعل يجرض على عثمان ، ويذكر إثرتة فقال:

أما هلكننا ولا يكي لنا أحد قالت قريش ألا تلك المقادير
والحر في الصيف قد تدمي جوارحه نعطي السوية مما أخلص الكير
نعطي السوية يوم الضرب قد علموا ولا سوية إذ كانت دنانير

وانضم إليهم من المهاجرين طلحة والزبير ، وجمهور الأنصار على ذلك ، فخرج إليهم أمير المؤمنين عليه السلام فقال لهم: يا هؤلاء إتقوا الله، ما لكم وللرجل أما رجع عما أنكرتموه ، أما تاب على المنبر توبة جهر بها ! ولم يزل عليه السلام يلطف بهم حتى سكنت فورتهم .

ثم سأله أهل مصر أن يلقاه في عزل عبد الله بن سعيد بن أبي سرح عنهم ، واقترح أهل الكوفة عزل سعيد بن العاص عنهم ، وسأل أهل النهروان أن يصرف ابن كريز عنهم ، ويعدل عما كان عليه من منكر الأفعال .

فدخل عليه أمير المؤمنين عليه السلام ولم يزل ، حتى أعطاه ما أراد القوم من ذلك وبذل لهم العهود والأيمان .

فخرج أمير المؤمنين إلى القوم بما ضمنه له عثمان ولم يزل بهم حتى تفرقوا .
فلما سار أهل مصر ببعض الطريق نظروا ، وإذا براكب على الطريق ، مسرع ،
فلما دنا تأملوه فإذا هو غلام عثمان على ناقة من نوقه ، فاسترابوا به فقالوا
له: أين تذهب؟ فقال: بعثني عثمان في حاجة له . قالوا: إلى أين
بعثك؟ فأرتج عليه وتلعثم في كلامه ، فنهره وزبروه فقال: أنفذني إلى
مصر . فقالوا: فيم أنفذك؟ قال: لا علم لي . فزاد استرابهم فيه ، ففتشوه فلم
يجدوا معه شيئاً ، فأخذوا أدواته ففتشوها وإذا فيها كتاب من عثمان إلى عبد
الله بن أبي سرح ، وهو: إذا أتاك كتابي هذا فاضرب عنق عمرو بن بديل
وعبد الرحمن البكري ، واقطع أيدي وأرجل علقمة وكنانة وعروة ، ثم
دعهم يتشحطون في دمائهم ، فإذا ماتوا فأوقفهم على جذوع النخل !
فلما رأوا ذلك قبضوا على الغلام وعادوا إلى المدينة ، فاستأذنوا على علي بن
أبي طالب ودفعوا إليه الكتاب ففزع ^{بالتلذذ} لذلك ، فدخل على عثمان فقال:
إنك وسطتني أمراً بذلت الجهد فيه لك وفي نصيحتك ، واستوهبت لك من
القوم . فقال عثمان: فماذا؟ فأخرج إليه الكتاب ففضه وقرأه فأنكره ، فقال
له عليٌّ: أتعرف الخط؟ قال: الخط يتشابه . قال: أتعرف الختم؟ قال: الختم
ينقش عليه . قال: فهذا البعير الذي على باب دارك تعرفه؟ قال: هو بعيري
ولم أمر أحداً ولا يركبونه . قال: فغلامك من أنفذه؟ قال: أنفذ بغير أمري .

فقاله له أمير المؤمنين عليه السلام: أما أنا فمعتزلك وشأنك وأصحابك ، وخرج من عنده ودخل داره وأغلق عليه بابه ، ولم يأذن لأحد من القوم في الوصول إليه . وخرج إليهم طلحة والزبير وقالوا لهم: قد اعتزل علي بن أبي طالب وانتدبنا معكم على هذا الرجل فاجتمع القوم على حصره. فلما علم أن القوم قد حصروه وحقق العزيمة على خلعه ، كتب إلى معاوية يستدعيه بجنود الشام ، وكتب إلى عبد الله بن عامر يستدعيه بجنود البصرة وفارس ، لينتصر بهم ويدفعهم عن نفسه .

وعرف أهل مصر وأهل العراق والحجاز إنه قد استفز عليهم أهل الشام ، وشيعته من أهل البصرة وفارس وخوزستان ، فجدوا في حصاره ، وتولى ذلك منه طلحة والزبير ومنعاه الماء وضيقا عليه ! وكان طلحة على حرس الدار ، يمنع كل أحد يدخل إليه شيئاً من الطعام والشراب ، ويمنع من في الدار أن يخرج عنها إلى غيرها .

فصل: فهل يخفى على عاقل براءة أمير المؤمنين عليه السلام مما قرفوه به ناكثوا عهده من التآليب على عثمان والسعي في دمه ، مع ما روينا من الحديث عمن سميناه ، أم هل يرتاب عاقل فيما فعله طلحة والزبير ، فيما تولياه من حصر-عثمان ، حتى آل ذلك إلى قتله ، وهما من بعده يقران علياً عليه السلام بما تولياه ،

الفصل الثاني: مصر في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ٦٧

ويدعيان لأنفسهما البراءة بما صنعا ، ويجعلان شبهتهما في استحلال قتاله دعوى الباطل المعروف بهتاناً ممن ادعاه .

وهذا يكشف أن الأمر فيما ادعياه وأظهره من الطلب بدم عثمان كان بخلافه على ما بيناه مما جاءت به الأخبار فيما تولاه طلحة والزبير في عثمان ، ما رواه أبو إسحاق جبلة بن زفر قال: رأيت طلحة والزبير يرفلان في أدراعهما في عثمان ، ثم جاء من بعد إلى علي فبايعاه طايعين غير مكرهين ، ثم صنعا ما صنعا .

وروى أبو حذيفة القرشي عن الحصين بن عبد الرحمان عن عمرو بن جاران عن الأحنف بن قيس قال: قدمت المدينة ، وساق حديثاً طويلاً من أمر عثمان ، إلى أن قال: لما لقيت الفتنة والناس قد اجتمعوا على حصر عثمان وهو على خطر ، فأتيت طلحة والزبير فقلت لهما: ما أرى هذا الرجل إلا مقتولاً ، فمن تأمراني أن أبايع وترضونه لي ؟ فقالا: علياً . فخرجت حتى أتيت مكة وبها عائشة ، فدخلت عليها فقلت: إني لأحسب هذا الرجل مقتولاً ، فمن تأمريني أن أبايع ؟ فقالت: بايع علياً . فقضيت حجتي ثم مررت بالمدينة وقد قتل عثمان ، فبايعت علياً ، ثم عدت إلى البصرة ، فإذا عائشة وطلحة والزبير قد جاؤونا يطلبون بدم عثمان ويأمروننا بقتال علي بن أبي طالب ، فطال تعجبي من ذلك !

وفي نهج البلاغة: ٢/ ٢٣٣: «ومن كلام له عليه السلام قاله لعبد الله بن عباس وقد جاءه برسالة من عثمان وهو محصور ، يسأله فيها الخروج إلى ماله بينبع ، ليقبّل هتف الناس باسمه للخلافة:

يا ابن عباس ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب أقبل وأدبر!
بعث إليّ أن أخرج ، ثم بعث إليّ أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث إليّ أن أخرج .
والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً» .

وذهب علي عليه السلام إلى بينبع ، فاشتد الحصار على عثمان فكتب إليه كما في مجمع الأمثال للميداني (١/ ١١٤): «أما بعد فإن السيل قد بلغ الزبي ، وجاوز الحزام الطيبين ، وتجاوز الأمر بي قدره ، وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه ، ورأيت القوم لا يقصرون دون دمي:

فإن كنت مأكولاً فكن أنت آكلي وإلا فأدركني ولما أمزّقي» .

تظاهرة المهاجرين والأنصار يهتفون باسم علي عليه السلام

وجاء علي فوجد عثمان قد قتل: «وجاء الناس كلهم يهرعون إلى علي عليه السلام حتى دخلوا عليه داره فقالوا له: نبايعك فمُدَّ يدك فلا بد من أمير . فقال علي: ليس ذلك إليكم ، إنما ذلك لأهل بدر ، فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة ، فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى علياً فقالوا: ما نرى أحداً أحق

الفصل الثاني: مصر في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ٦٩

بها منك ، مد يدك نبايعك فقال: أين طلحة والزبير؟ فكان أول من بايعه طلحة بلسانه وسعد بيده ، فلما رأى ذلك علي خرج إلى المسجد فصعد المنبر فكان أول من صعد إليه طلحة فبايعه بيده ، ثم بايعه الزبير وسعد وأصحاب النبي ﷺ ، ثم نزل فدعا الناس ، وطلب مروان فهرب منه وطلب نفراً من ولد مروان وبني أبي معيط ، فهربوا منه .

وخرجت عائشة (في مكة) باكية تقول: قتل عثمان ، وجاء علي إلى امرأة عثمان فقال لها: من قتل عثمان؟ قالت: لا أدري ، دخل عليه رجلان لا أعرفهما إلا أن أرى وجوههما ، وكان معهما محمد بن أبي بكر . وأخبرت علياً والناس ما صنع محمد ، فدعا علي محمداً فسأله عما ذكرت امرأة عثمان فقال: محمد لم تكذب ، قد والله دخلت عليه وأنا أريد قتله فذكر لي أبي فقمتم عنه وأنا تائب إلى الله تعالى ، والله ما قتلته ، ولا أمسكته . فقالت: امرأته صدق ، ولكنه أدخلها » . (تاريخ دمشق: ٣٩/٤١٩ ، وأسد الغابة: ٤/٣٢ ، وتاريخ الذهبي: ٣/٤٦٠).

وقد وصف علي عليه السلام بيعة الناس له ، كما في نهج البلاغة: ١/٣٧ ، فقال: (يا الله وللشورى ، متى اعترض الريب في مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر . لكنني أسففت إذ أسفوا وطرت إذ طاروا ! فصغى رجل منهم لضغنه ، ومال الآخر لصهره ، مع هنٍ وهن . إلى أن قام ثالث القوم ، نافجاً حضنيه بين

نشيله ومعتلفه ، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع ! إلى أن انتكث قتله ، وأجهز عليه عمله ، وكبت به بطنته !

فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إليّ ، ينثالون علي من كل جانب حتى لقد شُق عطفائي ، مجتمعين حولي كربيضة الغنم .

فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ، ومرقت أخرى وقسط آخرون .

كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . بلى والله لقد سمعوها ووعوها ، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم ، وراقهم زبرجها . أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها ، ولسقيت آخرها بكأس أولها ، ولألقيتم دنياكم هذه أزهدي عندي من عطفة عنزي !

الفصل الثالث:

مصر في عهد أمير المؤمنين عليؑ

اهتمام عليؑ بمصر

تناسب اهتمام أمير المؤمنين عليؑ بمصر مع رأيه الإيجابي فيها ، وقد تقدم حديثهؑ في تفضيل مصر وأهلها على الشام .

فقد ولى عليها قيس بن سعد بن عبادة زعيم الأنصار ، فبايعه أهلها لعلي ، إلا شردمة كانت متعصبة لعثمان وبنو أميه ، فأمره الإمامؑ أن يلزمهم بالطاعة أو يقاتلهم ، فلم يفعل قيس وتهاون معهم ، حتى أمدهم معاوية فتكاثروا وقووا ، فعزل الإمام قيساً ، وولى مكانه محمد بن أبي بكر ، ولعله بطلب المصريين ، وكان أهل مصر يحبونه .

وكتب الإمامؑ عدة رسائل الى عامله محمد وأهل مصر ، كما كتب رسائل لمحمد في سياسته المالية والاجتماعية .

وكتب لأهل مصر رسالة مع مالك الأشتر لما بعثه والياً ، وكتب له عهداً مفصلاً، وهو برنامج عمل شامل لكل حاكم ، في سلوكه الشخصي، وعمله السياسي ، والإداري .

مصر عند مقتل عثمان وخلافة علي عليه السلام

في الإصابة (١٠ / ٦): (فلما علم بذلك (بمقتل عثمان) من امتنع من مبايعة بن أبي حذيفة، اجتمعوا وتبايعوا على الطب بدمه، فسار بهم معاوية بن حديج إلى الصعيد، فأرسل إليهم بن أبي حذيفة جيشاً آخر فالتقوا، فقتل قائد الجيش . ثم كان من مسير معاوية بن أبي سفيان إلى مصر ، لما أراد المسير إلى صفين ، فرأى ألا يترك أهل مصر مع ابن أبي حذيفة خلفه ، فسار إليهم في عسكر كثيف ، فخرج إليهم بن أبي حذيفة في أهل مصر- فمنعوه من دخول الفسطاط ، فأرسل إليهم إنا لا نريد قتال أحد وإنما نطلب قتلة عثمان ، فدار الكلام بينهم في المودعة .

واستخلف بن أبي حذيفة على مصر الحكم بن الصلت بن مخزومة بن المطلب بن عبد مناف ، وخرج مع جماعة منهم عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر وأبو شمر بن أبرهة بن الصباح ، فلما بلغوا به غدر بهم عسكر معاوية ، وسجنوهم إلى أن قتلوا بعد ذلك .

وذكر أبو أحمد الحاكم ، أن محمد بن أبي حذيفة لما ضبط مصر وأراد معاوية الخروج إلى صفين بدأ بمصر أولاً ، فقاتله محمد بن أبي حذيفة بالعريش إلى أن تصالحا ، وطلب منه معاوية ناساً يكونون تحت يده رهناً ليأمن جانبهم إذا خرج إلى صفين ، فأخرج محمد رهناً عدتهم ثلاثون نفساً فأحيط بهم وهو فيهم فسجنوا ، وقال أبو أحمد الحاكم: خدع معاوية محمد بن أبي حذيفة حتى خرج إلى العريش في ثلاثين نفساً ، فحاصره ونصب عليه المنجنيق حتى نزل على صلح ، فحبس ثم قتل... فسجن ابن أبي حذيفة ومن معه في سجن دمشق ، وسجن بن عديس والباقي في سجن بعلبك .

أقول: حكم محمد بن أبي حذيفة مصر شهوراً قبل مقتل عثمان ، وفي أول خلافة علي عليه السلام حتى جاء والي مصر قيس بن عباد .

ثم انقطعت أخبار محمد ، فلم يرد له ذكر مع قيس ، والمرجح أنه خرج من مصر ليلتحق بعلي عليه السلام فنصب له معاوية كميناً وقبض عليه وحبسه في الشام حتى لا ينصر علياً عليه السلام ، وروي أن زوجة معاوية كانت ترسل له طعاماً إلى السجن ، ثم تمكن من الفرار من السجن ، فأرسل معاوية من قبض عليه وقتله رضي الله عنه .

وقد وردت أخبار متضاربة في شهادة محمد رضي الله عنه ، منها ما رأيت من أن معاوية غزا مصر بجيش مع عمرو العاص ، فخرج إليه محمد ومنعه

من دخولها ، فاتفق معه أن يخرج منها جماعة شاركوا في قتل عثمان ، أو يخشى منهم معاوية على الشام ، فقبل محمد بذلك ، وكان هو في الرهن ! فحبسه معاوية في الشام وحبس الباقيين في بعلبك . لكن ابن أبي حذيفة لم يكن بهذه السذاجة وهذا الضعف الذي زعموه ، فالأرجح أنه كان مسافراً مع عدة من أصحابه ليلتحقوا بعلي عليه السلام فكمّن لهم معاوية وأسرهم .

قال في تاريخ دمشق: ٢٥٨/٥٠: « قال فحدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عبد الله بن لهيعة الحضرمي عن يزيد بن أبي حبيب قال ثم تواقع معاوية بن حديج وجيش بعثهم إليه محمد بن أبي حذيفة ، عليهم قيس بن حرمل اللخمي ، ويقول آخرون كان عليهم يومئذ رجل من بلي يقال له ابن الحثما ، فاقتتلوا بخربتا في أول يوم من شهر رمضان سنة ست وثلاثين ، فقتل قيس بن الحرمل وابن الحثما وأصحابهما ، وخرج أصحاب ابن حديج وابن حديج حتى صرع في القتلى ، فجنح عليه ابن أخيه عبيد الله بن عبد الله بن حديج ، فأكب عليه يقول لحمي لحمي لحمك ، وتناول الراية قيس بن سفيان الأزدي فقال: أنا معاوية بن حديج . وكان على مجنبة معاوية يومئذ خيار بن مرثد الأبدوي ، ودرع بن الحارث الخولاني ، وكان عدة من مع معاوية بن حديج يومئذ ممن تابعه في... قيس بن حبشي ألف ومائة سوى أهل خربتا من بني مدلج كانوا معه لما غشيهم معاوية بن حديج حين خرج إليهم من

ناحية الصعيد ، فقال: إن كنتم تريدون نصره بني مدلح فألصقوا برحالهم عند حلولكم بهم ففعلوا ذلك ، فقالت بنو مدلج: ترحزحوا عنا فإن أيدينا مع أيديكم ، فأبوا عليهم ثم إنهم ساروا إلى أنطابلس . قال: وقدم معاوية بن أبي سفيان في سنة ست وثلاثين ، فنزل عين شمس وكان على مجنبة محمد بن أبي حذيفة أبو عريب البلوي ، وعلى اليسرى عزيز بن فارع الأصبحي ، فمنعوا معاوية وأصحابه أن يدخلوا الفسطاط ، فلما رأى معاوية أنه لا يستطيع الدخول كتب إلى محمد بن أبي حذيفة إننا لا نريد قتال أحد من المسلمين ، إننا جئنا نسأل القود بعثمان ، إدفعوا إلينا قاتله ابن عديس وكنانة بن بشر وهما رأس القوم ، وأمر معاوية عمراً أن يكتب إلى ابن أبي حذيفة بمثل ذلك فكتب عمرو . فكتب محمد بن أبي حذيفة: إني لم أكن لأقيد بعثمان جدياً أرطب السرة ، وأمر بصحيفة أخرى فطويت ليس في جوفها شيء وكتب عنوانها: من محمد بن أبي حذيفة إلى عمرو بن العاص ، فلما فضها عمرو بن العاص لم ير فيها شيئاً ، فقال له معاوية: ما كتب إليك ابن أبي حذيفة ؟ قال: زعم أني لست شيئاً ، سيعلم أينما يدحض في بول أمه ! فقال معاوية لابن أبي حذيفة: إجعلوا بيننا وبينكم رهناً منا ومنكم ، لا يكون بيننا وبينكم حرب حتى يستخلف الله ويجمع الأمة على من يشاء ، فقال ابن أبي حذيفة: فإني أرضى بذلك على أني أستخلف على جدني وانطلق

مع الرهن وكان ذلك منه جبناً. فقال معاوية عند ذلك واغتنم قول ابن أبي حذيفة فمن تستخلف؟ قال: أستخلف أمية بن شبيب. قال معاوية: كلا. قال: فإذا كرهت فإني أستخلف الحكم بن الصلت. فقال معاوية: نعم، فانطلق ابن أبي حذيفة مع معاوية حتى دخل بهم الشام ففرقهم نصفين، فسجن ابن أبي حذيفة ومن معه في سجن دمشق وسجن ابن عديس والنصف الثاني في سجن بعلبك.

قال: فبينما معاوية في مسيره ذلك جاءه بريد فأخبره أن قيس بن عدي اللخمي ثم الراشدي صاحب مصر، قد أغار على خيل حتى بلغ فلسطين، ثم جاءه آخر فأخبره أن محمد بن أبي حذيفة قد خرج من السجن، ثم جاءه آخر فأخبره أن ابن عديس وأصحابه قد خرجوا من السجن، فكان رأس القوم بعد ابن أبي حذيفة عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر. ثم جاءه بريد آخر فأخبره أن ابن هرقل قد نزل الدرب، ثم جاءه بريد آخر فأخبره أن علي بن أبي طالب قد شارق!

جاءته خمسة برد في ليلة واحدة، فأرسل معاوية إلى عمرو بن العاص ما ترى في خمسة أمور شتى في ليلة واحدة ما منها أمر إلا يهدد المريء ذا القوى. فقال: وما هن فأخبره الخبر، فقال: أما قيس بن عدي فإنما هو سارق ولن يضر أحداً، وأما ابن عديس وأصحابه فإنهم قد خرجوا من سجن الناس

إلى سجن الله ، فابعث إلى سفيان الأزدي صاحب بعلبك فبعث لمن خرج منهم من سجن بعلبك الرصد ، فإنهم لن يعجزوا الله . وابعث إلى أبي راشد صاحب فلسطين يبعث بمن عرج منهم إلى أرضه ، فبعث أبو راشد عمرو بن عبد الله الخثعمي في طلب الرهن .

قال: فخرجت نبطية من أنباط فلسطين تطلب حماراً ، فاتبعته الحمار حتى وصل إلى غار فرأت محمد بن أبي حذيفة وأصحابه في الغار ، وكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار ، فدللت النبطية عليهم عمرو بن العاص فزعم من زعم أن ابن أبي حذيفة وكنانة بن بشر، عرض عليهما أن يستبقيا فكرها ذلك ، فقتلوا » .

أقول: لا يمكن قبول مثل هذه الرواية ، لتهافتها ، فهي تفرض أن محمد بن أبي حذيفة انتصر على معاوية وابن العاص ، ومنعهما من دخول مصر ، ثم تقول إنه قبل أن يكون رهناً في أيديهما !

وتفرض أن غزو معاوية كان سنة ست وثلاثين قبل صفين ، وأن كنانة بن بشر كان مع الرهن ، مع أنه كان في سنة ٣٨ قائد جيش محمد بن أبي بكر ، الذي قاوم غزو معاوية لمصر .

فالمرجح أن محمد بن أبي حذيفة رضي الله عنه خرج من مصر- ليلتحق بعلي عليه السلام فنصب له معاوية كميناً وقبض عليه وحبسه ، ثم تمكن من الفرار من السجن ، فأرسل معاوية من قتله .

والمؤكد في هذه الفترة أن محمد بن أبي حذيفة رضي الله عنه ، حمى مصر من معاوية ، وخاض معركة مع جماعته في خربتا، ومنعه من دخول مصر ، لكن قيس بن سعد غفر الله له قبل منهم أن لا يبايعوا علياً عليه السلام بل أعطاهم امتيازات ففوقوا ، وساعدهم معاوية فقادوا انقلاباً في مصر- بعد معركة صفين وقتلوا واليها محمد بن أبي بكر رضي الله عنه ، قتله وحشية ، وسيطروا على مصر ! (راجع: الأنساب للسمعاني: ١/٣٩٦، والوافي للصفدي: ٢/٢٤٤، وتاريخ دمشق: ٢١/٣٥٨، و: ٣٥/١١١، و: ٥٠/٢٥٨).

الخطأ الذريع الذي وقع فيه قيس بن سعد !

عندما تولى أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة كانت مصر بيد محمد بن أبي حذيفة ، فقد طرد أهلها واليهم ابن أبي شرح وبايعوا محمداً . وكان باستطاعة أمير المؤمنين عليه السلام أن يقره والياً عليها ، وكان محمد شيعياً متحمساً لعلي عليه السلام ، معادياً لعثمان ومعاوية ومن معها من عشيرته بني أمية ، وكان عامة بني أمية مع عثمان ومعاوية ، عدا محمد هذا ، وعدا قسم من أولاد سعيد بن العاص ، أبي أحيحة .

لكن أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يعين محمد بن أبي حذيفة والياً ، وعيّن قيس بن سعد بن عبادة ، فما هو السبب ؟

الذي أرجحه أن الأنصار ، الذين لاقوا إجحافاً في زمن أبي بكر وعمر وعثمان ، طالبوا الإمام بحكم مصر فعين رئيسهم والياً عليها .

وقد يكون الإمام عليه السلام استدعى ابن أبي حذيفة الى المدينة ، أو جاء هو من نفسه ، فوقع في قبضة معاوية ، فكان أول خسارة لأمر المؤمنين عليهم السلام ، لأنه مؤمن جريء ، قوي العين على ابن عمته معاوية ، يستصغره ولا يحترمه .

وذهب قيس الى مصر فبايعه أهلها ، ما عدا بقايا النظام الذين كانوا في قرية « خربتا » في الصعيد ، وكان يرأسهم شخصان من أخبث الناس وأسفكهم للدماء: معاوية بن حديج السكوني ، وبسر بن أبي أرطاة ، وكان محمد بن أبي حذيفة رضي الله عنه حبسهما في بيتيهما ، ومنعهما من الخروج ، حتى لا يفسدا مصر ، (تاريخ دمشق: ٤٢٣/٣٩) فأطلقهما قيس ، فاتخذتا قرية خربتاً قاعدة لهما !

وقد اشترط على قيس للبيعة أن يعلن علي عليه السلام الطلب بدم عثمان ، أي يقاتل الجيش الذي حاصر عثمان ، ومن ساعدهم من البصريين والكوفيين ، ومن حماهم من قبائل العرب وأهل الأمصار !
ومعناه أن يتصرف كأنه رئيس قبيلة بني أمية ، ويكون برنامج حكومته فتح الحرب على العرب ثاراً لعثمان !

قال الطبري: ٤٦٢/٣: «فافترق أهل مصر فرقاً: فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه ، وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتنا وقالوا إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم ، وإلا فنحن على جديلتنا حتى نُحرك أو نُصيب حاجتنا. وفرقة قالوا نحن مع علي ما لم يُقَدِّ إخواننا . وهم في ذلك مع الجماعة ». انتهى.

أي ما لم يقتص من المشاركين في محاصرة عثمان .

وعندما رفض قيس بن سعد شروط أهل خربتنا ، طلبوا منه أن يعفيهم من البيعة ، فأجابهم ، وصالحهم على ذلك .

وتصور قيس أنه حقق بذلك نصراً وكف عنه عدواً ، بينما كان عمله اعترافاً بوجود الخط الأموي في مصر ، فقواهم بذلك وحولوا القرية الى معسكر يجمعون فيه الجنود ، لينقضوا على مصر في أول فرصة ! ولهذا فرح معاوية ، واعتبر أنه حقق أكبر نصر على قيس !

قال الطبري: ٥٥٣/٣: « كان معاوية يحدث رجالاً من ذوي الرأي من قریش يقول: ما ابتدعت مكايدة قط كانت أعجب عندي من مكايدة كدت بها قيساً من قبل علي وهو بالعراق حين امتنع مني قيس . قلت لأهل الشام: لاتسبوا قيس بن سعد ، ولا تدعوا إلى غزوه ، فإنه لنا شيعة يأتينا كيس نصيحته سراً ، ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتنا ،

يُجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، ويؤمّن سربهم ، ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم ، لا يستنكرونه في شيء !

وهكذا تبنى قيس بسداجته الأنصارية ، رعاية قاعدة عسكرية موالية لمعاوية يتجمع فيها المعادون له ولعلي عليه السلام في مصر ، وقاعدة دعاية أموية .

وقد حاول أمير المؤمنين عليه السلام أن يفهم قيساً خطورة ما أقدم عليه ، لكن بساطة قيس وعدم وعيه لعصمة الإمام عليه السلام ، منعه من فهم الأمر ، فأصرّ على موقفه ، بل خطأ أمير المؤمنين عليه السلام .

واستغل معاوية الوضع وأخذ يرسل إلى قاعدته أموالاً وقادة ومبلغين ليكسبوا له مؤيدين مصريين ، حتى صاروا مئات وآلافاً!

وكان أسوأ من أرسلهم معاوية: مسلمة بن مخلدة الأنصاري ، وهو ثاني اثنين من الأنصار كانا مع معاوية ، ولم يكن معه غيرهما .

ومسلمة هذا وزميله النعمان بن بشير ، من صبيان الأنصار من عوائل عادية جداً ، وُلدا بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله ، وكانا من خدم عثمان ومروان ، وتربيا على حب بني أمية وبغض علي عليه السلام والعترة النبوية !

ولما وصل مسلمة إلى مصر أعلن شعار الطلب بدم عثمان ، فغضب قيس ، فطمأنه مسلمة بأنك ما دمت أنت والياً ، فلا أثور عليك !

ففرح قيس بحيلة مسلمة ، ورفض تطبيق أمر علي عليه السلام أن يجتث بؤرة الفساد ، بل ذهب قيس بعيداً فقال: إن سلطاناً لا يتم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء ، والله ما أحب أن لي سلطان الشام مع سلطان مصر وإني قتلت ابن مخلد ! كل ذلك لأن ابن مخلد أنصاري نسباً !

لكن دارت الأيام وأدرك قيس خطأه في ترك ابن حديج ومسلمة ، فقد كان قيس قائداً مع علي عليه السلام في صفين والتقى بين المعسكرين مع النعمان بن بشير وكان قائداً مع معاوية ، فقال له قيس ، كما في فتوح ابن الأعمش (٣/١٦٧): «ولكن انظر يا نعمان هل ترى مع معاوية إلا طليقاً وأحزايياً ! وانظر أين المهاجرون والأنصار ، وأين التابعون بإحسان الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وانظر هل ترى مع معاوية غيرك وغير صويحبك مسلمة بن مخلد ، والله ما أنتما بدرين ولا عقبيين ولا لكما في الإسلام سابقة ، ولئن شغبت علينا اليوم فقد شغب علينا أبوك من قبلك في سقيفة بني ساعدة ، فاعزب عني قبحك الله من ابن عم ، وقبح ما جئت به !

قال: فانصرف النعمان بن بشير إلى عسكره وهو يقول: لقد كنت غنياً عن

كلامك يا ابن سعد بن عبادة !

لكن ندم قيس كان بعد فوات الأوان ، وبعد أن رعا تكوين سرطان الأمويين في مصر، فثاروا على خلفه محمد بن أبي بكر ، وقتلوا سلفه محمد بن أبي حذيفة ، ثم قتلوا مالك الأشر ، الذي سارع لنجدة مصر قبل أن يذبحها الأمويون ! ثم تسلط عمرو العاص والأمويون مجدداً على مصر ، وجعلوها مفتوحة عُنوة ، يحق لهم تملك أهلها وأرضها ، فكان شعار ولائهم كما في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ١/ ٢٣١: (إحلب الدرّ حتى ينقطع، واحلب الدم حتى ينصرم) !

نقاط عن شخصية قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه

١. قال الثقفى في الغارات: ١/ ٢٠٥: (لما قُتل عثمان ووليّ علي بن أبي طالب عليه السلام)

دعا قيس بن سعد فقال: سرّ إلى مصر فقد وليتكها ، واخرج إلى رحلك فاجمع فيه من ثقاتك من أحببت أن يصحبك ، حتى تأتيها ومعك جند ، فإن ذلك أرهب لعدوك وأعز لوليك .
فإذا أنت قدمتها إن شاء الله ، فأحسن إلى المحسن واشتدّ على المريب ، وارفق بالخاصة والعامة ، فإن الرفق يُمنّ .

فقال له قيس بن سعد: رحمك الله يا أمير المؤمنين ، قد فهمت ما ذكرت، أما قولك أخرج إليها بجند ، فوالله إن لم أدخلها بجند آتيتها به من المدينة لا أدخلها أبداً ، فإذا أدع ذلك الجند لك ، فإن احتجت إليهم كانوا منك قريباً وإن أردت بعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا عدة لك ، ولكنني أسير إليها

بنفسي وأهل بيتي . وأما ما أوصيتني به من الرفق والإحسان ، فإن الله تعالى هو المستعان على ذلك .

قال: فخرج قيس بن سعد في سبع نفر من أصحابه، حتى دخل مصر- فصعد المنبر ، فأمر بكتاب معه فقرأ على الناس ، فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله علي أمير المؤمنين ، إلى من بلغه كتابي هذا من المسلمين ، سلام عليكم ، فإنني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإن الله بحسن صنعه وتقديره وتدبيره اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله ، وبعث به الرسل إلى عباده ، وخص من انتجب من خلقه ، فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة وخصهم من الفضيلة أن بعث محمداً صلى الله عليه وآله إليهم ، فعلمهم الكتاب والحكمة والسنة والفرائض ، وأدبهم لكيما يهتدوا ، وجمعهم لكيما لا يتفرقوا ، وزكاهم لكيما يتطهروا ، فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله إليه ، فعليه صلوات الله وسلامه ورحمته ورضوانه إنه حميد مجيد.. ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله والقيام بحقه والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل . وقد بعثت إليكم قيس بن سعد أميراً فوازره وأعينوه على الحق ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشدة على مريبكم ، والرفق بعموامكم وخواصكم .

وهو ممن أَرْضَى هديهِ ، وأرجو صلاحه ونصيحتهِ ، نسأل الله لنا ولكم عملاً زاكياً ، وثواباً جزيلاً ، ورحمةً واسعة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب عبيد الله بن أبي رافع في صفر سنة ست وثلاثين .

قال: لما فرغ من قراءة الكتاب قام قيس بن سعد خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وقال: الحمد لله الذي أمات الباطل وأحيا الحق وكبت الظالمين ، أيها الناس: إنا بايعنا خير من نعلم بعد نبينا ﷺ فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة نبيه ، فإن نحن لم نعمل فيكم بكتاب الله وسنة رسوله ، فلا بيعة لنا عليكم . فقام الناس فبايعوا .

٢ . واستقامت له مصر وأعمالها فبعث عليها عماله إلا أن قرية منها قد أعظم

أهلها قتل عثمان ، وبها رجل من بني كنانة يقال له يزيد بن الحارث ، فبعث إلى قيس بن سعد: ألا إنا لا نأتيك فابعث عمالك والأرض أرضك ، ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس .

قال: ووثب مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصاري ، فنعى عثمان ودعا إلى الطلب بدمه ، فأرسل إليه قيس: ويحك أعليّ تثب ! والله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر وإني قتلتك ، فاحقن دمك .

فأرسل إليه مسلمة أني كافُّ عنك ، ما دمت أنت والي مصر .

قال: وكان قيس له حزم ورأي ، فبعث إلى الذين اعتزلوا أني لا أكرهكم على البيعة ، ولكنني أدعكم وأكف عنكم ، فهادنهم وهادن مسلمة بن مخلد ، وجبى الخراج ، وليس أحدٌ ينازعه .

٣. قال: وخرج أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى الجمل وهو على مصر-، ورجع إلى

الكوفة من البصرة وهو بمكانه ، فكان أثقل خلق الله على معاوية لقربه من الشام، مخافة أن يُقبل إليه علي بأهل العراق ويُقبل إليه قيس بأهل مصر فيقع بينهما . فكتب معاوية إلى قيس بن سعد، وعلي يومئذ بالكوفة قبل أن يسير إلى صفين: بسم الله الرحمن الرحيم ، من معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإنكم إن كنتم نعمتم على عثمان في أثرة رأيتموها، أو في ضربة سوط رأيتموه ضربها ، أو في شتمة رجل أو تعبيره واحداً ، أو في استعماله الفتیان من أهله فإنكم قد علمتم إن كنتم تعلمون أن دمه لم يحل لكم بذلك ، فقد ركبتم عظيماً من الأمر وجتتم شيئاً إداً ، فتب إلى ربك يا قيس إن كنت من المجليين على عثمان ، إن كانت التوبة من قتل المؤمن تغني شيئاً .

وأما صاحبك فإننا قد استيقنا أنه أغرى الناس به ، وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يسلم من دمه عظم قومك ، فإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل ، وبايعنا على أمرنا هذا ولك سلطان العراقيين

إن أنا ظفرت ما بقيت ، ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان ، وسلني من غير هذا ما تحب فإنك لا تسألني من شيء إلا أوتيته ، واكتب إلي برأيك فيما كتبت به إليك . والسلام .

فلما جاء قيساً كتاب معاوية ، أحب أن يدافعه ، ولا يبدي له أمره ، ولا يعجل له حربه . فكتب إليه: أما بعد فقد وصل إلى كتابك ، وفهمت ما ذكرت من قتل عثمان ، وذلك أمر لم أقاربه ، وذكرت أن صاحبي هو الذي أغرى الناس بعثمان ودسهم إليه حتى قتلوه ، وهذا أمر لم أطلع عليه ، وذكرت أن عظم عشيرتي لم تسلم من دم عثمان ، فلعمري إن أولى الناس كان في أمره عشيرتي .

وأما ما سألتني من متابعتك على الطلب بدمه وعرضت عليّ ما عرضت فقد فهمته ، وهذا أمر لي فيه نظر وفكر ، وليس هذا مما يعجل إليه ، وأنا كافٌ عنك ، وليس يأتيك من قبلي شيء تكرهه حتى ترى ونرى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال: فلما قرأ معاوية كتابه لم يره إلا مقارباً مباعداً ، ولم يأمن أن يكون له في ذلك مخادعاً مكاييداً ، فكتب إليه معاوية أيضاً:

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فقد قرأت كتابك ، فلم أرك تدنو فأعدك سلماً ، ولم أرك تتباعد فأعدك حرباً ، أنت هاهنا كجمل جرور ، وليس مثلي

من يصانع بالخدائع ولا ينجتدع بالمكايد ، ومعه عدد الرجال وأعنة الخيل ،
فإن قبلت الذي عرضت عليك فلك ما أعطيتك ، وإن أنت لم تفعل ،
ملأت عليك مصر خيلاً ورجلاً . والسلام .

قال: فلما قرأ قيس بن سعد كتاب معاوية ، وعلم أنه لا يقبل منه المدافعة
والمطاوله ، أظهر له ما في قلبه فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من قيس بن سعد إلى معاوية بن أبي سفيان: أما
بعد فالعجب من استسقاطك رأيي ، واغترارك بي ، وطمعك في أن تسومني
لا أباً لغيرك ، الخروج من طاعة أولى الناس بالأمر ، وأقولهم بالحق ،
وأهداهم سبيلاً ، وأقربهم من رسول الله وسيلة ، وتأمرنى بالدخول في
طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقولهم بالزور ، وأضلهم سبيلاً
وأبعدهم من رسول الله وسيلة ، ولديك قوم ضالون مضلون ، طواغيت
إبليس !

وأما قولك: إنك تملأ عليّ مصر خيلاً ورجلاً ، فلئن لم أشغلك عن ذلك
حتى تكون نفسك أهمّ اليك ، إنك لذو جدّ ، والسلام .

فلما أتى معاوية كتاب قيس بن سعد أيس منه ، وثقل مكانه عليه وكان أن
يكون بالمكان الذي هو به غيره أعجب إليه ، واشتد على معاوية لما يعرف
من بأسه ونجدته ، فأظهر للناس قبله أن قيساً قد بايعكم فادعوا الله له ،

وقرأ عليهم كتابه الذي لان فيه وقاربه ، واختلق معاوية كتاباً نسبته إلى قيس فقرأه على أهل الشام:

بسم الله الرحمن الرحيم . إلى الأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد ، أما بعد فإن قتل عثمان كان حدثاً في الإسلام عظيماً ، وقد نظرت لنفسي وديني لم أر يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرماً برأ تقياً ، ونستغفر الله لذنوبنا ، ونسأله العصمة لديننا .

ألا وإني قد ألقيت إليك بالسلم ، وأجبتك إلى قتال قتلة إمام الهدى المظلوم فعول عليّ فيما أحببت من الأموال والرجال ، أعجله إليك إن شاء الله تعالى، والسلام عليك .

٣. قال: فشاع في أهل الشام كلها أن قيساً صالح معاوية ، فسرحت عيون عليّ بن أبي طالب عليه السلام إليه بذلك ، فلما أتاه ذلك أعظمه وأكبره وتعجب له ، ودعا ابنه الحسن والحسين وابنه محمداً ، ودعا عبد الله بن جعفر ، فأعلمهم بذلك وقال: ما رأيكم؟ فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين دع ما يريبك إلى ما لا يريبك إ عزل قيس بن سعد عن مصر . فقال لهم: إني والله ما أصدق بهذا على قيس . فقال له عبد الله بن جعفر: إ عزله يا أمير المؤمنين ، فوالله إن كان ما قد قيل حقاً ، لا يعتزلك إن عزلته .

قال: وإنهم لكذلك ، إذ أتاهم كتاب من قيس بن سعد فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمهم الله أن قبلي رجالاً معتزلين سألوني أن أكف عنهم ، وأن أدعهم على حالهم ، حتى يستقيم أمر الناس فنرى ويرون ، وقد رأيت أن أكف عنهم وألا أعجل ، وأن أتألفهم فيما بين ذلك ، لعل الله أن يقبل بقلوبهم ويفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله ، والسلام .

فقال له عبد الله بن جعفر: ما أخوفني يا أمير المؤمنين أن يكون هذا مما اتهم عليه ، إنك إن أطعته في تركهم واعتزلهم استشرى الأمر وتفاقت الفتنة ، وقعد عن بيعتك كثير ممن تريده على الدخول فيها ، ولكن مره بقتالهم . فكتب إليه علي عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فسر إلى القوم الذين ذكرت ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فناجزهم . والسلام . فلما أتى قيس بن سعد الكتاب فقرأه ، لم يتمالك أن كتب إلى أمير المؤمنين: أما بعد يا أمير المؤمنين ، فالعجب لك تأمرني بقتال قوم كافين عنك ، ولم يمدوا إليك يداً للفتنة ، ولا أروصدوا لها . فأطعني يا أمير المؤمنين وكف عنهم ، فإن الرأي تركهم يا أمير المؤمنين . والسلام .

فلما أتاه هذا الكتاب قال له عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين إبعث محمد بن أبي بكر إلى مصر يكفك أمرها ، واعزل قيساً فوالله لبلغني أن قيساً يقول: إن سلطاناً لا يتم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء ! والله ما أحب أن

لي سلطان الشام مع سلطان مصر وإني قتلت ابن مخلد . وكان عبد الله بن جعفر أخاً لمحمد بن أبي بكر لأمه ، وكان يجب أن يكون له إمرة وسلطان .

٤. قال: فبعث علي بن أبي طالب عليه السلام محمد بن أبي بكر إلى مصر ، وعزل قيساً ،

وكتب معه إلى أهل مصر كتاباً ، فلما قدم على قيس قال له قيس: فما بال أمير المؤمنين ، ما غيرُهُ ، أدخل أحد بيني وبينه؟ قال: لا وهذا السلطان سلطانك . وكان بينهما نسب ، إذ كانت تحت قيس قريبة بنت أبي قحافة أخت أبي بكر ، فكان قيس زوج عمته ، فقال قيس: لا والله لا أقيم معك ساعة واحدة ، وغضب حين عزله علي عنها فخرج منها مقبلاً إلى المدينة ، ولم يمض إلى علي بالكوفة ..

ثم أقبل قيس حتى دخل المدينة ، فجاءه حسان بن ثابت شامتاً به وكان عثمانياً فقال له: نزعك علي بن أبي طالب وقد قتلت عثمان فبقي عليك الإثم ولم يحسن لك الشكر !

فزجره قيس وقال له: يا أعمى القلب يا أعمى البصيرة، والله لولا أن ألقى بين رهطي ورهطك حرباً لضربت عنقك ، أخرج عني !

ثم إن قيساً وسهل بن حنيف خرجا حتى قدما على علي عليه السلام الكوفة فخبيره قيس الخبر وما كان بمصر ، فصدقه ، وشهد هو وسهل بن حنيف مع علي عليه السلام صفين .

وكان قيس بن سعد طويلاً أطول الناس وأمدهم قامته ، وكان سناً ، أصلح ، شيخاً ، شجاعاً ، مجرباً ، مناصحاً لـعلي وولده ، حتى توفي .
والسناط: الكوسج الذي ليس له شعر لحية .

٥. وفي الغارات: ١/ ٢٢٣: (وأتى المدينة فجعل الناس يغزونه (ليعدوه عن علي عليه السلام) ويقولون له: نصحت فعزلك ، فلحق بعلي عليه السلام وبايعه ومعه اثنا عشر- ألفاً على الموت.. عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان قيس بن سعد بن عبادة مع علي بن أبي طالب عليه السلام على مقدمته ، ومعه خمسة آلاف ، قد حلقوا رؤوسهم .»

ملاحظات

١. ينبغي التنبيه الى أن التشيع لـعلي عليه السلام كان بمستويين ، الأول: التشيع بالمعنى الخاص ، الإصطلاحي وهو اتباع علي عليه السلام لأنه إمام معصوم مفترض الطاعة من الله تعالى ، بنص النبي صلى الله عليه وآله .
وبهذا المعنى كان تشيع عمار بن ياسر ، وأبي ذر الغفاري ، والمقداد الكندي وحذيفة بن اليمان ، وسلمان الفارسي ، وخالد بن سعيد ، وعدد كبير من الصحابة . فكان هؤلاء يلتزمون بطاعة علي عليه السلام كطاعة النبي صلى الله عليه وآله حريفاً ونصيياً .

والثاني: التشيع العام ، بالمعنى اللغوي ، وهو تأييد علي عليه السلام لأنه أولى بالخلافة من غيره من الصحابة .

وبهذا المعنى كان تشيع قيس بن سعد بن عبادة وعدد الصحابة ، فهم لا يرون فيه أنه معصوم ، ولذلك نرى قيساً يخالفه في التعامل مع العثمانية في مصر ، ويحاول إقناعه برأيه ! بينما لا يصدر ذلك من محمد بن أبي بكر أو الأشر أو محمد بن أبي حذيفة ، لأنهم يعتقدون أن علياً إمام رباني مؤيد من الله تعالى ، فرأيه ليس اجتهاداً قابلاً للخطأ كغيره ، بل تكليف شرعي يجب تنفيذه .

٢. يبدو بالنظرة الأولى أن موقف قيس باستعمال الليونة مع الأموية المخالفين

في مصر أصح من موقف أمير المؤمنين عليه السلام بتخييرهم بين أن يبايعوا ويدخلوا فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فهم خارجون على الإمام الشرعي ، يجب قتالهم .

وقد ظهرت صحة رأي الإمام عليه السلام ، وأنهم كانوا خطراً على المصريين لأنهم يرفعون شعار الثأر لعثمان ويتهمون المصريين به ، ولأنهم بؤرة يضمون اليهم جنوداً من داخل مصر وخارجها ، ويمدهم معاوية .

ونلاحظ أنهم كانوا قرية صغيرة من بضع مئات ، فاستفادوا من لين قيس وإعطائهم كل مخصصات الجنود ، حتى كثروا أنفسهم ، وبلغوا عشرة آلاف مقاتل !

٣. حكم رواة السلطة بصواب رأي قيس في مهادنة جماعة معاوية ، وخطأ رأي

علي عليه السلام في قتالهم ، واعتبروا أن قتل ابن أبي بكر وابن أبي حذيفة والأشتر ، كان بسبب إصرار علي عليه السلام على القتال !

قال الطبري: ٣/ ٥٥٣: « فلما بلغ ذلك علياً اتهم قيساً ، وكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا ، وأهل خربتا يومئذ عشرة آلاف فأبى قيس بن سعد أن يقاتلهم وكتب إلي علي إنهم وجوه أهل مصر وأشرفهم وأهل الحفاظ منهم ، وقد رضوا مني أن أومن سرهم وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، فلست مكايدهم بأمر أهون علي وعليك من الذي أفعل بهم ، ولو أني غزوتهم كانوا لي قرناً وهم أسود العرب ، ومنهم بسر بي أرطاة ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج ، فذرني فأنا أعلم بما أداري منهم . فأبى علي إلا قتالهم وأبى قيس أن يقاتلهم ، فكتب قيس إلى علي إن كنت تتهمني فاعزلني عن عمك ، وابعث إليه غيري .

فبعث علي الأشتر أميراً إلى مصر ، حتى إذا صار بالقلزم شرب شربة عسل كان فيها حتفه ، فبلغ ذلك معاوية وعمرو بن العاص ، فقال عمرو بن

العاص: إن لله جنوداً من عسل ، فلما بلغت علياً وفاة الأشر ، بعث محمد بن أبي بكر أميراً على مصر ، فلما حدث به قيس بن سعد قادماً أميراً عليه ، تلقاه فخلاً به وناجاه وقال: إنك قد جئت من عند امرئ لا رأي له في الحرب ، وإنه ليس عزلكم إياي بهانعي أن أنصح لكم ، وإني من أمركم على بصيرة ، وإني أدلك على الذي كنت أكيد به معاوية وعمرو بن العاص وأهل خربت فكايدهم به ، فإنك إن كایدتهم بغيره تهلك ، فوصف له قيس المكايدة التي كایدهم بها ، فاغتشه محمد بن أبي بكر ، وخالفه في كل شيء أمره به ، فلما قدم محمد بن أبي بكر مصر خرج قيس قبل المدينة ، فأخافه مروان والأسود بن أبي البختري ، حتى إذا خاف أن يؤخذ ويقتل ، ركب راحلته فظهر إلى علي ، فكتب معاوية إلى مروان والأسود بن أبي البختري يتغيظ عليهما ، ويقول: أمدتما علياً بقيس بن سعد ، وبرأيه ومكايدته ، فوالله لو أمددتماه بثمانية آلاف مقاتل ما كان ذلك بأغيط لي من إخراجكما قيس بن سعد إلى علي .

فقدم قيس بن سعد إلى علي وبأته الحديث ، ثم جاءهم قتل محمد بن أبي بكر ، عرف علي أن قيس بن سعد كان يداري منهم أموراً عظماً من المكايدة التي قصر عنها رأي علي ، ورأي من كان يؤازره على عزل قيس ، فأطاع علي قيساً في الأمر كله ، وجعله على مقدمة أهل العراق .

لكن الصحيح رأي علي عليه السلام ، لأنه كان يجب تخليص مصر من الوباء الأموي وإلزام جماعة معاوية ببيعته ، لكن قيساً أخطأ خطأ سبب تقوية الخوارج ، وما نتج عنه من قتل محمد بن أبي بكر وخسارة مصر .

كما أن الصحيح أن الحق مع علي عليه السلام في لومه محمد بن أبي بكر رضي الله عنه لفراره في الحرب ، مع أنه مدحه من جهات أخرى .

ففي الغارات: ٣٠١/١: « عن مالك بن الجون الحضرمي أن علياً عليه السلام قال: رحم الله محمداً كان غلاماً حدثاً ، أما والله لقد كنت أردت أن أولي المرقال هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مصر . والله لو أنه وليها لما خلى لعمر وبن العاص وأعوانه العرصة ، ولما قُتل إلا وسيفه في يده ، بلا ذم لمحمد بن أبي بكر ، فلقد أجهد نفسه وقضى ما عليه .

قال فقيل لعلي عليه السلام : لقد جزعت على محمد بن أبي بكر جزعاً شديداً يا أمير المؤمنين . قال: وما يمنعني؟ إنه كان لي ريباً ، وكان لبنيي أخاً ، وكنت له والداً ، أعده ولدًا » .

فإن قلت: لماذا نصب محمد بن أبي بكر والياً على مصر- ، ولم يول هاشم المرقال أو الأشر ، وهو يعلم خطورة جماعة معاوية ؟

وجوابه: أن أهل مصر طالبوا بتولية محمد بن أبي بكر ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام كان بحاجة إلى الأشر والمرقال في حرب صفين .

لكن الجواب الذي أقتنع به: أن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام مع علمهم بالأمر، فلكل منهم برنامج الخاص، فهو يتعامل مع ظاهر الأمور ومعادلاتها العادية، ولا يتعامل بعلمه، إلا أن يؤمر بذلك.

وقد روى الجميع أن النبي صلى الله عليه وآله نص على أن علياً عليه السلام لا يفعل إلا ما يؤمر به! قال بريدة: «فوقعت في علي حتى فرغت، ثم رفعت رأسي فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله غضب غضباً لم أره غضب مثله إلا يوم قريظة والنضير، فنظر إلي فقال: يا بريدة أحب علياً فإنما يفعل ما يؤمر به!»! (المعجم الأوسط: ١١٧/٥ ومسند أحمد، وعدة مصادر أخرى).

٤. ينبغي التنبيه إلى أن المستوى الإيماني العام للأنصار قد انخفض في حين يوم ابتلاهم الله تعالى فأمر نبيه صلى الله عليه وآله أن يعطي غنائم هوازن الكبيرة إلى القرشيين ليتألفهم، ويحرم منها الأنصار ليمتحنهم!

روى في الكافي: ٤١١/٢، بسند صحيح عن الإمام الباقر عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم حنين تألف رؤساء العرب من قريش وسائر مضر، منهم أبو سفيان بن حرب وعيينة بن حصن الفزاري، وأشباههم من الناس، فغضبت الأنصار واجتمعت إلى سعد بن عباد، فانطلق بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالجرعانة فقال: يا رسول الله أتأذن لي في الكلام؟ فقال: نعم، فقال: إن كان هذا الأمر من هذه الأموال التي قسمت بين قومك شيئاً أنزله الله رضينا، وإن

كان غير ذلك لم نرض! قال زرارة: وسمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا معشر الأنصار أكلُّكم على قول سيدكم سعد؟ فقالوا: سيدنا الله ورسوله ، ثم قالوا في الثالثة: نحن على مثل قوله ورأيه! قال: زرارة فسمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: فحط الله نورهم!»!

وفي مجمع البيان: ٣٢/٥: «فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ، ولم يكن فيهم من ذلك شيء! فقال صلى الله عليه وآله: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ فقال: ما أنا إلا امرؤ من قومي! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة...».

أقول: من عجائب التاريخ موقف الأنصار عند غنائم حنين ، ورئيسهم سعد بن عبادة! فقد رأوا معجزات النبي صلى الله عليه وآله وآمنوا به ، وبذلوا في سبيله أموالهم وأرواحهم ، ولما أعطى غيرهم ولم يعطهم اتهموه بأنه يميل إلى قومه! فغلبهم هواهم عند الإمتحان ، وفقدوا توازن عقولهم ، فانخفض مستوى إيمانهم ، فحط الله نورهم!

وقد سأل النبي صلى الله عليه وآله سعداً عن موقفه في اتهام الأنصار لنيبهم صلى الله عليه وآله بأنه مال لقومه في تقسيم الغنائم ، فأجابه بأنه رجل من قومه!

لذلك ينبغي أن يقسم تاريخ الأنصار إلى: مرحلة ما قبل غنائم حنين ،
ومرحلة ما بعدها !

وقد عالج النبي صلى الله عليه وآله هذا الهبوط في إيمانهم ، بتطيب خاطرهم ، وهي
معالجة تهدؤهم ، لكنها لا ترفع مستواهم ، فذلك بأيديهم .

وهذا يفسر لنا نقضهم لبيعتهم للنبي صلى الله عليه وآله في بيعة العقبة بأن يجموه ويجموا
أهل بيته بعده مما يجمون منه أنفسهم وذرائعهم ! فعندما رأى سعد أن
قريشاً مجمعة على إبعاد عترة النبي صلى الله عليه وآله عن خلافته ، لم ينصر أهل بيت نبيه ،
بل أخذ يعمل لأن تكون الخلافة له لأنه أحق بالإسلام وخلافته من بطون
قريش ! لذلك ورد فيه الذم من فاطمة الزهراء عليها السلام وغيرها من أئمة
العترة عليهم السلام . ثم لم يتنهأ سعد بموقفه المتخاذل عن أهل البيت عليهم السلام ، فقد نفاه
عمر الى حوران ، ثم قتله وقيل قتلته الجن !

٥. كان قيس بن سعد بن عبادة كأبيه زعيم الخزرج ، وعامة الأنصار ، ثابتاً على
موقفه ضد خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، وقد شارك مع علي عليه السلام بفعالية في
حروبه هو وكافة الأنصار ، ولم يشارك منهم مع معاوية إلا شخصان من
صبيانها العاديين هما النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد !

ولكن موقف الأنصار الى جانب العترة النبوية كان بعد أن ذاقوا الأمرين من طلقاء قريش الذين يبغضونهم ، فكان موقفهم أشبه بالتكفير عن الذنب بعد فوات الأوان .

لهذا يعتبر سعد وابنه قيس شيعة بالمعنى العام ، وليسوا كعمار ، وسلمان ، والمقداد ، وأبي ذر ، وحذيفة ، والأشتر ، ومحمد بن أبي بكر ، وخالد بن سعيد ، وعشرات المعتقدين بأن إمامة علي عليه السلام والعترة فريضة ، بنص النبي صلى الله عليه وآله سواء أطاعت الأمة أم عصت .

وبهذا نفس مخالفة قيس لأمر المؤمنين عليهم السلام في أهل خربتنا العثمانيين ، فهادنهم وأعطاهم امتيازات حتى تفاقم أمرهم وأمدهم معاوية فأخذوا مصر وقتلوا محمد بن أبي بكر بوحشية !

وكأن قيساً أراد التكفير عن ذلك ن فكان موقفه مع الإمام الحسن عليه السلام مشرفاً ، فقد ثبت أمام إغراء معاوية إلى آخر مرحلة ، وجرت بينهم مراسلات وانتهت بلهجة شديدة جداً ، ولم يقبل الصلح حتى أرسل له معاوية رقاً محتوماً ليشترط فيه ما شاء ، كالذي أرسله إلى الإمام الحسن عليه السلام .

قال الطبري في تاريخه: ١٢٥ / ٤: « واشترط الحسن لنفسه ثم بايع معاوية وأمّرت شرطة الخميس قيس بن سعد على أنفسهم ، وتعاهدوا هو وهم على قتال معاوية حتى يشترط لشيعة علي ولمن كان اتبعه ، على أموالهم

ودمائهم وما أصابوا في الفتنة ، فخلص معاوية حين فرغ من عبد الله بن عباس والحسن إلى مكايذة رجل هو أهمُّ الناس عنده مكايذةً ومعه أربعون ألفاً ، وقد نزل معاوية بهم وعمرو وأهل الشام ، وأرسل معاوية إلى قيس بن سعد يذكره الله ويقول: على طاعة من تقاتل وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك؟! فأبى قيس أن يلين له حتى أرسل إليه معاوية بسجلاً قد ختم عليه في أسفله ، فقال: أكتب في هذا السجل ما شئت فهو لك! قال عمرو لمعاوية: لا تعطه هذا وقاتله! فقال معاوية: على رسلك ، فإننا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام ، فما خير العيش بعد ذلك! وإني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بدأً . فلما بعث إليه معاوية بذلك السجل اشترط قيس فيه له ولشيعته عليّ الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال ، ولم يسأل معاوية في سجله ذلك مالاً ، وأعطاه معاوية ما سأل ، فدخل قيس ومن معه في طاعته .»

أقول: الصحيح أن جيش قيس كان اثني عشر ألفاً لا أربعين ألفاً ، بل ورد أن الذين ثبتوا معه وجددوا له البيعة منهم أربعة آلاف ، ويظهر أنهم طليعة الأربعين ألفاً الذين بايعوا أمير المؤمنينؑ قبل شهادته على حرب معاوية حتى الموت . وأخيراً بايع قيس في الكوفة بأمر الإمام الحسنؑ!

قال الطبري: ٤/ ١٢٥: « كانوا يعدون دهاة الناس حين ثارت الفتنة خمسة رهط فقالوا: ذوو رأي العرب ومكيدتهم: معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وقيس بن سعد .

ومن المهاجرين: عبد الله بن بديل الخزاعي ، وكان قيس وابن بديل مع علي وكان المغيرة بن شعبة وعمرو مع معاوية ، إلا أن المغيرة كان معتزلاً بالطائف حتى حكم الحكمان » .

وفي مقاتل الطالبين/ ٤٧: «ولما تم الصلح بين الحسن ومعاوية أرسل إلى قيس بن سعد بن عبادة يدعوهُ إلى البيعة ، فأتي به وكان رجلاً طويلاً يركب الفرس المشرف ورجلاه تحيطان في الأرض، وما في وجهه طاقة شعر ، وكان يسمى خَصِي الأَنْصار ، فلما أرادوا أن يدخلوه إليه قال: إني قد حلفت أن لا ألقاه إلا بيني وبينه الرمح أو السيف! فأمر معاوية برمح أو سيف ، فوضع بينه وبينه ، ليرَّ يمينه !

ولاية محمد بن أبي بكر على مصر:

أسرة محمد بن أبي بكر رضي الله عنه

تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى، فولدت له عبد الله وأسماء . وجاء الى مكة رجل أزدي إسمه الحارث بن سخبرة ، ومعه زوجته أم رومان الكنانية وابنه الطفيل ، فتحالف مع أبي بكر ، وكان له عبد إسمه فهيرة ، فزوجه سوداء فولدت عامر بن فهيرة .

وأسلم الحارث وغلामه عامر قبل أبي بكر ، ثم مات الحارث فورثه ابنه الطفيل وهو صغير فصار عامر غلامه ، وتزوج أبو بكر أمه أم رومان ، فولدت له عبد الرحمن وعائشة ، فهما أخوا الطفيل من أمه (الطبري: ٦١٦/٢ ، والبخاري: ٤٣/٥ ، وابن سعد: ٢٧٨/٨).

وتزوج أبو بكر حبيبة بنت خارجة ، فولدت له بنتاً إسمها أم كلثوم ، تزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت له زكريا وعائشة . (الإستيعاب: ٤١٧/٢).

وتزوج أسماء بنت عميس بعد شهادة زوجها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، فولدت له محمد بن أبي بكر .

لكن أكثر زوجة أثرت في نفس أبي بكر هي أم بكر ، التي قال لها:

تَحْيِي بِالسَّلَامَةِ أُمَّ بَكْرٍ وهل لك بعد رهطك من سلام

ذريني أصطح يا بكر أي رأيت الموت نقبَ عن هشام
 فودّ بنو المغيرة أن فدوه بألف من رجال أو سوام
 فكائن بالطويّ طويّ بدر من القينات والخيّل الكرام
 فكائن بالطويّ طويّ بدر من الشيزى تُكلل بالسنام

فبلغ ذلك النبي ﷺ فقام معه جريدة يجرّ إزاره حتى دخل عليه ، فلما نظر إليه قال: أعوذ من سخط الله ومن سخط رسوله والله لا يلج لي رأساً أبداً ! فذهب عن رسول الله ما كان فيه وخرج ونزل عليه: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟! فقال عمر: انتهينا والله « . (ابن هشام: ٥٤٩/٢) .

ورواها ابن حجر في الإصابة: ٣٩/٧، عن الفاكهي في كتاب مكة ، وفيها: «شرب أبو بكر الخمر فأنشأ يقول: فذكر الأبيات فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقام يجرّ إزاره حتى دخل فتلقاه عمر وكان مع أبي بكر ، فلما نظر إلى وجهه حمراً قال: نعوذ بالله من غضب رسول الله! والله لا يلج لنا رأساً أبداً!» وذكر في فتح الباري: ٣١/١٠، أن تلك الجلسة كانت حفلة خمر في بيت أبي طلحة ، وكانوا عشرة صحابة أو أكثر وساقبهم أنس بن مالك!

ثم قال: « ولأحمد عن يحيى القطان عن حميد عن أنس: كنت أسقي أبا عبيدة وأبي بن كعب وسهيل بن بيضاء، ونفراً من الصحابة عند أبي طلحة . ووقع عند عبد الرزاق عن معمر بن ثابت وقتادة وغيرهما عن أنس ، أن القوم كانوا أحد عشر رجلاً، وقد حصل من الطرق التي أوردتها تسمية

الفصل الثالث: أخبار مصر في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام ١٠٥

سبعة منهم ، وأبهمهم في رواية سليمان التيمي عن أنس...ومن المستغربات ما أورده ابن مردويه في تفسيره من طريق عيسى بن طهمان عن أنس، أن أبا بكر وعمر كانا فيهم! وهو منكر مع نظافة سنده ، وما أظنه إلا غلطاً ! يقصد ابن حجر أن حديث شربهم الخمر صحيح السند ، لكن معناه مستنكر ! لكن إذا صح سند الحديث ، فلا يردُّ باستغراب معناه !

وروى البخاري في صحيحه: ٤/٢٦٣، عن عائشة قالت: «أن أبا بكر تزوج امرأة من كلب يقال لها أم بكر ، فلما هاجر أبو بكر طلقها فتزوجها ابن عمها هذا الشاعر الذي قال هذه القصيدة ورثا كفار قريش .»

ووقت القصة عند نزول سورة المائدة أي قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله بشهر أو شهرين ! لأن آية: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ، من سورة المائدة وهي آخر ما نزل من القرآن قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وآله . (راجع تفصيل القصة في: ألف سؤال وجواب: ٣/١١٣).

وقد ولد محمد بن أبي بكر رضي الله عنه في حجة الوداع ، وعاش مع أبيه أبي بكر أقل من ثلاث سنوات ، ثم تزوج علي عليه السلام أمه أسماء بنت عميس ، فكان محمد ربيب الإمام عليه السلام ، وكان يعده كأحد أولاده . وكان عمره عندما ولاه أمير المؤمنين عليه السلام مصر ، ستاً وعشرين سنة .

ولاية محمد بن أبي بكر لمصر

عن الحارث بن كعب عن أبيه قال: كنت مع محمد بن أبي بكر حيث قدم مصر فلما أتاها قرأ عليهم عهده:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد عبد الله علي أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر، أمره بتقوى الله في السر والعلانية ، وخوف الله في المغيب والمشهد ، وباللين للمسلم وبالغلظة على الفاجر ، وبالعدل على أهل الذمة ، وبالإنصاف للمظلوم ، وبالشدّة على الظالم ، وبالعفو عن الناس ، وبالإحسان ما استطاع ، والله يجزي المحسنين . وأمره أن يدعو من قبله إلى الطاعة والجماعة ، فإن لهم في ذلك من العاقبة وعظيم المثوبة ما لا يقدرون قدره ولا يعرفون كنهه .

وأمره أن يجبي خراج الأرض على ما كانت تجبي عليه من قبل ، ولا ينتقص منه ولا يبتدع فيه ، ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه عليه من قبل . وأمره أن يلين لهم جناحه ، وأن يساوي بينهم في مجلسه ووجهه ، وليكن القريب والبعيد عنده في الحق سواء .

وأمره أن يحكم بين الناس بالحق ، وأن يقوم بالقسط ، ولا يتبع الهوى ، ولا يخاف في الله لومة لائم ، فإن الله مع من اتقاها وآثر طاعته على ما سواه ،

الفصل الثالث: أخبار مصر في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام ١٠٧

والسلام . وكتبه عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله لغرة شهر رمضان سنة ست وثلاثين .

قال: ثم إن محمد بن أبي بكر قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد فالحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق ، وبصرنا وإياكم كثيراً مما عميَ عنه الجاهلون .

ألا إن أمير المؤمنين ولاني أموركم ، وعهد إلي بما سمعتم ، وأوصاني بكثير منه مشافهة ، ولن ألوكم خيراً ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . فإن يكن ما ترون من آثاري و أعمالى لله طاعة وتقوى ، فاحمدوا الله على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادي له ، وإن رأيتم من ذلك عملاً بغير حق ، فادفعوه إلي وعاتبوني عليه ، فإني بذلك أسعد ، وأنتم بذلك جديرون . وفقنا الله وإياكم لصالح العمل برحمته . ثم نزل).

رسالة أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهل مصر وواليتهم

تقدمت منها فقرة: «واعلم يا محمد بن أبي بكر أني قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي ، أهل مصر» وروى بعضه في نهج البلاغة (٢٧/٣) وروى بقية المصادر فقرات منه ، ونقله من منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة للخوئي: ٧٣/١٩، عن أبي إسحاق الهمداني قال:

«لما ولى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب محمد بن أبي بكر مصر وأعمالها كتب له كتاباً ، وأمره أن يقرأه على أهل مصر ويعمل بها وصاه به ، فكان الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب إلى أهل مصر ومحمد بن أبي بكر:

سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله فيما أنتم عنه مسؤولون وإليه تصيرون، فإن الله تعالى يقول: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ، ويقول: وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ. ويقول: فَوَرَّبُّكَ لَنَسَّأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

واعلموا عباد الله أن الله عزّ وجلّ سائلكم عن الصغير من أعمالكم والكبير فإن يعدّب فنحن أظلم، وإن يعفّ فهو أرحم الراحمين.

يا عباد الله إنّ أقرب ما يكون العبد إلى المغفرة والرحمة حين يعمل لله بطاعته وبنصحه في التوبة. عليكم بتقوى الله، فإنها تجمع الخير ولا خير غيرها، ويدرك بها من الخير ما لا يدرك غيرها، من خير الدنيا والآخرة قال الله عزّ وجلّ: وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ.

إعلموا يا عباد الله أنّ المؤمن يعمل من الثواب لثلاث: أمّا الخير فإنّ الله يثيبه بعمله في دنياه، قال الله سبحانه لإبراهيم: وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي

الْآخِرَةَ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ، فمن عمل لله تعالى أعطاه أجره في الدنيا والآخرة وكفاه المهّم فيهما ، وقد قال الله تعالى: يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، فما أعطاهم الله في الدنيا لم يحاسبهم به في الآخرة ، قال الله تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ، والحسنى هي الجنة ، والزيادة هي الدنيا ، وإن الله تعالى يكفّر بكل حسنة سيئة ، قال الله عزّ وجلّ: إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ، حتى إذا كان يوم القيامة حسبت لهم حسناتهم ثم أعطاهم بكلّ واحدة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله عزّ وجلّ: جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ، وقال: إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءٌ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ . فارغبوا في هذا رحمكم الله واعملوا له وتحاضوا عليه .

واعلموا يا عباد الله ، أن المتقين حازوا عاجل الخير وآجله ، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولهم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم أبا حهم في الدنيا ما كفاهم به وأغناهم ، قال الله عزّ اسمه: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت ، وأكلوها بأفضل ما أكلت ، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم ، فأكلوا معهم من طيبات ما يأكلون ، وشربوا من طيبات ما يشربون ، ولبسوا من أفضل ما يلبسون ،

وسكنوا من أفضل ما يسكنون ، وتزوجوا من أفضل ما يتزوجون ، وركبوا من أفضل ما يركبون . أصابوا لذة الدنيا مع أهل الدنيا ، وهم غداً جيران الله ، يتمنون عليه فيعطيهم ما يتمنون ، لا يردُّ لهم دعوة ، ولا ينقص لهم نصيباً من اللذة . فإلى هذا يا عباد الله يشقائق إليه من كان له عقل ويعمل بتقوى الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

يا عباد الله ، إن اتقيتم وحفظتم نبيكم في أهل بيته ، فقد عبدتموه بأفضل ما عبد ، وذكركم بأفضل ما ذكر ، وشكركم بأفضل ما شكر ، وأخذتم بأفضل الصبر والشكر ، واجتهدتم أفضل الاجتهاد ، وإن كان غيركم أطول منكم صلاة وأكثر منكم صياماً ، فأنتم أتقى الله منه وأنصح لأولى الأمر .

إحذروا يا عباد الله الموت وسكرته ، فأعدوا له عُدته فإنه يفجؤكم بأمر عظيم : بخير لا يكون معه شرُّ أبداً ، أو بشرٌ لا يكون معه خيرٌ أبداً ، فمن أقرب إلى الجنة من عاملها ، ومن أقرب إلى النار من عاملها . إنه ليس أحد من الناس تفارق روحه جسده حتى يعلم إلى أيِّ المنزلتين يصير إلى الجنة أم النار ، أعدو هو الله أو وئى ، فإن كان ولياً لله فُتحت له أبواب الجنة ، وُشِّرت له طرقها ، ورأى ما أعدَّ الله له فيها ، ففرغ من كل شغل ، ووضع عنه كل ثقل .

وإن كان عدوًّا لله فتحت له أبواب النار ، وشرع له طرقها ، ونظر إلى ما أعدَّ الله له فيها فاستقبل كل مكروه ، وترك كل سرور .

كل هذا يكون عند الموت وعنده يكون بيقين ، قال الله تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . ويقول: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَشِّرْهُم بِمَثْوَاهُمْ الْمُتَكَبِّرِينَ .

عباد الله إنَّ الموت ليس منه فوت ، فاحذروا قبل وقوعه ، وأعدوا له عدته فإنكم طرداء الموت: إن أقمتهم له أخذكم ، وإن فررتهم منه أدرركم ، وهو ألزم لكم من ظلِّكم ، الموت معقود بنواصيكم ، والدنيا تُطوى خلفكم ، فأكثرُوا ذكر الموت عندما تنازعكم إليه أنفسكم من الشهوات ، وكفى بالموت واعظاً .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله كثيراً ما يوصي أصحابه بذكر الموت فيقول: أكثرُوا ذكر الموت ، فإنه هادم اللذات ، حائل بينكم وبين الشهوات .

يا عباد الله ، ما بعد الموت لمن لا يغفر له أشد من الموت: القبر . فاحذروا ضيقه وضمنكه وظلمته وغربته ، إن القبر يقول كل يوم: أنا بيت الغربة ، أنا بيت التراب ، أنا بيت الوحشة ، أنا بيت الدُّود والهوام . والقبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ، إن العبد المؤمن إذا دفن قالت له

الأرض مرحباً وأهلاً ، قد كنت من أحبُّ أن تمشي على ظهري ، فإذا وليتُك
فستعلم كيف صنيعي بك ، فيتسع له مدُّ البصر .

وإن الكافر إذا دفن قالت له الأرض : لا مرحباً بك ولا أهلاً ، لقد كنت
من أبغض من يمشي على ظهري ، فإذا وليتُك فستعلم كيف صنيعي بك ،
فتضمُّه حتى تلتقي أضلاعه !

وإن المعيشة الضنك التي حذَّر الله منها عدوه عذاب القبر أنه يسلِّط على
الكافر في قبره تسعةً وتسعين تيناً فينهش لحمه ويكسر عظمه ، ويتردد
عليه كذلك إلى يوم البعث ، لو أن تيناً منها نفخ في الأرض لم تنبت زرعاً !
يا عباد الله ، إن أنفسكم الضعيفة ، وأجسادكم الناعمة الرقيقة التي يكفيها
اليسير ، تضعف عن هذا ، فإن استطعتم أن تجزعوا لأجسادكم وأنفسكم ممَّا
لا طاقة لكم ولا صبر لكم عليه ، فاعملوا بما أحبَّ الله واتركوا ما كره الله .
يا عباد الله ، إن بعد البعث ما هو أشدُّ من القبر ، يومٌ يشيب فيه الصغير ،
ويسكر فيه الكبير ، ويسقط فيه الجنين ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ،
يوم عبوس قمطير ، يوم كان شره مستطيراً .

إن فزع ذلك اليوم ليرهب الملائكة الذين لا ذنب لهم ، وترعد منه السبع
الشداد ، والجبال الأوتاد ، والأرض المهاد ، وتنشق السماء فهي يومئذ واهية

وتصير وردة كالدهان ، وتكون الجبال كثيباً مهيباً بعد ما كانت صلباً صلاباً وينفخ في الصور فيفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله . فكيف من عصى بالسمع والبصر واللسان واليد والرجل والفرج والبطن إن لم يغفر الله له ويرحمه من ذلك اليوم ، لأنه يقضي ويصير إلى غيره ، إلى نار قعرها بعيد ، وحرها شديد ، وشرابها صديد ، وعذابها جديد ، ومقامعها حديد . لا يفتر عذابها ، ولا يموت سكانها . دار ليس فيها رحمة ، ولا يسمع لأهلها دعوة .

واعلموا يا عباد الله ، أن مع هذا رحمة الله التي لا تعجز عن العباد ، جنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للمتقين ، خيرٌ لا يكون معها شرٌّ أبداً ، لذاتها لا تمل ، ومجتمعها لا يتفرق ، سكانها قد جاوروا الرحمن ، وقام بين أيديهم الغلمان ، بصحاف من الذهب فيها الفاكهة والريحان .

ثم اعلم يا محمد بن أبي بكر ، أني قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي: أهل مصر ، فأذ وليتك ما وليتك من أمر الناس ، فأنت حقيق أن تخاف منه على نفسك ، وأن تحذر منه على دينك ، فإن استطعت أن لا تسخط ربك عز وجل برضا أحد من خلقه فافعل ، فإن في الله عز وجل خلفاً من غيره ، وليس في شيء سواه خلف منه .

إشتدَّ على الظالم وخذ عليه ، ولن لأهل الخير وقربهم ، واجعلهم بطانتك وإخوانك . وانظر إلى صلاتك كيف هي ، فإنك إمام القوم ينبغي لك أن تتمها ولا تخففها ، فليس من إمام يصلي بقوم يكون في صلاتهم نقصان إلا كان عليه . وتممها وتحفظ فيها يكن لك مثل أجورهم ، ولا ينقص ذلك من أجرهم شيئاً .

ثم انظر إلى الوضوء فإنه من تمام الصلاة ، وتمضمض ثلاث مرات ، واستنشق ثلاثاً ، واغسل وجهك ، ثم يدك اليمنى ، ثم يدك اليسرى ، ثم امسح رأسك ورجليك ، فإني رأيت رسول الله ﷺ يصنع ذلك . واعلم أن الوضوء نصف الإيمان .

ثم ارتقب وقت الصلاة فصلها لوقتها ، ولا تعجل بها قبله لفرغ ، ولا تؤخرها عنه لشغل ، فإن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن أوقات الصلاة فقال رسول الله ﷺ : أتاني جبرئيل عليه السلام فأراني وقت الصلاة فصلى الظهر حين زالت الشمس فكانت على حاجبه الأيمن ، ثم أراني وقت العصر فكان ظل كل شئ مثله ، ثم صلى المغرب حين غربت الشمس ، ثم صلى العشاء الآخرة حين غاب الشفق ، ثم صلى الصبح فغلس بها والنجوم مشتبكة ، فصل لهذه الأوقات ، والزم السنة المعروفة ، والطريق الواضح .

ثم انظر ركوعك وسجودك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان أتم الناس صلاة ، وأخفهم عملاً فيها . واعلم أن كل شيء من عملك تبعٌ لصلاتك ، فمن ضيع الصلاة ، فإنه لغيرها أضيع .

أسأل الله الذي يرى ولا يرى وهو بالمنظر الأعلى ، أن يجعلنا وإياك ممن يحب ويرضى ، حتى يعيننا وإياك على شكره وذكوره وحسن عبادته وأداء حقه ، وعلى كل شيء اختار لنا في دنيانا وآخرتنا .

وأنتم يا أهل مصر فليصدق قولكم فعلكم ، وسركم علانيتكم ، ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم ، واعلموا أنه لا يستوي إمام الهدى وإمام الردى ، ووصي النبي وعدوه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً ، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه وأما المشرك فيخزيه الله ويقمعه بشركه ولكني أخاف عليكم كل منافق حلو اللسان ، يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون ، ليس به خفاء . وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : من سرته حسناته وسأته سيئاته فذلك المؤمن حقاً . وكان يقول صلى الله عليه وآله : خصلتان لا يجتمعان في منافق : حسن سمت ، وفقه في سنة .

يا محمد بن أبي بكر ، أعلم أن أفضل الفقه الورع في دين الله ، والعمل بطاعته ، وإني أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيتك وعلى أي حال كنت عليه .

الدنيا دار بلاء ، والآخرة دار الجزاء ودار البقاء ، فاعمل لما يبقى ، واعدل عما يفنى ، ولا تنس نصيبك من الدنيا.

إني أوصيك بسبع هن جوامع الإسلام: تخشى الله عز وجل ولا تخشى الناس في الله ، وخير القول ما صدقه العمل ، ولا تقض في أمر واحد بقضائين مختلفين فيختلف أمرك وتزيغ عن الحق ، وأحب لعامة رعيتك ما تحب لنفسك وأهل بيتك ، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك ، فإن ذلك أوجب للحجة وأصلح للرعية ، وخض الغمرات إلى الحق ولا تخف في الله لومة لائم ، وانصح المرء إذا استشارك ، واجعل نفسك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم ، واجعل نفسك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم . وأمر بالمعروف وآنه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور. جعل الله عز وجل مودتنا في الدين ، وحلانا وإياكم حلية المتقين ، وأبقى لكم طاعتكم ، حتى يجعلنا وإياكم بها إخواناً ، على سرر متقابلين .

أحسنوا أهل مصر مؤازرة محمد أميركم ، واثبتوا على طاعتكم تردوا حوض نبيكم صلى الله عليه وآله . أعاننا الله وإياكم على ما يرضيه . والسلام عليكم

ورحمة الله وبركاته . (وراجع: تحف العقول لابن شعبة الحراني/١٧٦).

ملاحظة على هذه الرسالة

تضمنت الرسالة حقائق هامة عن عقيدة الإسلام ، ونظرته الى الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، وكيفية تعامل الإنسان المسلم معها .
وهدف أمير المؤمنين عليه السلام منها تثبيت عقائد الإسلام في نفوس المصريين . ونلاحظ أنه يخاطبهم كما يخاطب خاصة المسلمين ، مما يدل على أن إيمانهم ووعيهم كان عالياً ، وأنهم أهل لاستيعاب حقائق الإسلام والقرآن ، وسلوك الأبرار الأتقياء أهل حقائق العمل للآخرة .
ولا شك أن للحضارة المصرية والديانة المسيحية التي كانت منتشرة فيها ، تأثيرهما في رفع مستوى فهم المصريين لحقائق الإسلام .
فحريٌّ بكل مصري أن يقرأ هذه الرسالة ويتدبر فيها ، لأنه مخاطب بها من أمير المؤمنين ، وباب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله .

أجوبة أمير المؤمنين عليه السلام على مسائل محمد بن أبي بكر

في كتاب الغارات للثقفى: ١/ ٢٣٠: « كتب محمد بن أبي بكر إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ، وهو إذ ذاك بمصر يسأله جوامع من الحرام والحلال والسنن والمواعظ ، فكتب إليه: لعبد الله أمير المؤمنين من محمد بن أبي بكر: سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإن رأى أمير المؤمنين أرانا الله وجماعة المسلمين فيه أفضل سرورنا وأملنا فيه ، أن يكتب

لنا كتاباً فيه فرائض وأشياء مما يتلى به مثلي من القضاء بين الناس فعل ، فإن الله يعظم لأمر المؤمنين الأجر ويحسن له الذخر .

فكتب إليه علي عليه السلام : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر .

سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فقد وصل إلي كتابك فقرأته وفهمت ما سألتني عنه ، وأعجبني اهتمامك بما لا بد لك منه ، وما لا يصلح المسلمين غيره ، وظننت أن الذي ذلك عليه نية صالحة ورأي غير مدخول ولا خسيس . وقد بعثت إليك أبواب الأفضية جامعاً لك فيها ، ولا قوة إلا بالله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكتب إليه عما سأله من القضاء ، وذكر الموت ، والحساب ، وصفة الجنة والنار ، وكتب في الإمامة ، وكتب في الوضوء ، وكتب إليه في مواقيت الصلاة ، وكتب إليه في الركوع والسجود ، وكتب إليه في الأدب ، وكتب إليه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتب إليه في الصوم والإعتكاف وكتب إليه في الزنادقة ، وكتب إليه في نصراني فجر بامرأة مسلمة ، وكتب إليه في أشياء كثيرة لم يحفظ منها غير هذه الخصال ، وحدثنا ببعض ما كتب إليه .

قال إبراهيم: فحدثنا يحيى بن صالح... عن عباية أن علياً عليه السلام كتب إلى محمد بن أبي بكر، وأهل مصر:

أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلايته، وعلى أي حال كنت عليها، واعلم أن الدنيا دار بلاء وفناء، والآخرة دار بقاء وجزاء، فإن استطعت أن تؤثر ما يبقى على ما يفنى فافعل، فإن الآخرة تبقى وإن الدنيا تفتى، رزقنا الله وإياك بصراً لما بصرنا، وفهماً لما فهمنا، حتى لا نقصر عما أمرنا به، ولا نتعدى إلى ما نهانا عنه، فإنه لا بد لك من نصيبك من الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن عرض لك أمران أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فابدأ بأمر الآخرة.

ولتعظم رغبتك في الخير، ولتحسن فيه نيتك، فإن الله عز وجل يعطي العبد على قدر نيته، وإذا أحب الخير وأهله ولم يعمله كان إن شاء الله كمن عمله، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال حين رجع من تبوك: لقد كان بالمدينة أقوام ما سرتهم من مسير ولا هبطتم من واد، إلا كانوا معكم. ما حبسهم إلا المرض يقول: كانت لهم نية.

ثم أعلم يا محمد أني وليتك أعظم أجنادي في نفسي: أهل مصر، وإذ وليتك ما وليتك من أمر الناس، فأنت محقوق أن تخاف فيه على نفسك، وتحذر فيه على دينك، ولو كان ساعة من نهار، فإن استطعت أن لا تسخط فيها ربك

لرضى أحد من خلقه فافعل ، فإن في الله خلفاً من غيره ، وليس في شئ غيره خلف منه ، فاشتد على الظالم ، ولين لأهل الخير ، وقربهم إليك ، واجعلهم بطانتك ، وإخوانك . والسلام .

« بعث علي عليه السلام محمد بن أبي بكر أميراً على مصر فكتب إلى علي عليه السلام يسأله عن رجل مسلم فجر بامرأة نصرانية ، وعن زنادقة فيهم من يعبد الشمس والقمر ، وفيهم من يعبد غير ذلك ، وفيهم مرتد عن الإسلام ، وكتب يسأله من مكاتب مات وترك مالا وولداً ؟

فكتب إليه علي عليه السلام : أن أقم الحد فيهم على المسلم الذي فجر بالنصرانية ، وادفع النصرانية إلى النصارى يقضون فيها ما شاؤوا .

وأمره في الزنادقة أن يقتل من كان يدعي الإسلام ، ويترك سائرهم يعبدون ما شاؤوا ، وأمره في المكاتب إن كان ترك وفاء لمكاتبته فهو غريم بيد مواليه يستوفون ما بقي من مكاتبته ، وما بقي فلولده .»

كُتِبَ عَلِي عليه السلام لِحَمْدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ تَقَعُ فِي يَدِ مَعَاوِيَةَ

كان فيما استولى عليه ابن العاص الكتب التي كتبها علي عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر ، فأرسلها عمرو إلى معاوية .

قال الثقفى في الغارات: ٢٥١ / ١: « فلما ظهر عليه وقتل أخذ عمرو بن العاص كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية بن أبي سفيان ، وكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويعجبه ، فقال الوليد بن عقبة وهو عند معاوية لما رأى إعجاب معاوية به: مُرْ بهذه الأحاديث أن تحرق . فقال له معاوية: مه يا ابن أبي معيط إنه لا رأي لك ، فقال له الوليد: إنه لا رأي لك ، أضمن الرأي أن يعلم الناس أن أحاديث أبي تراب عندك تتعلم منها وتقضي بقضائه ، فعلام تقاتله؟! فقال معاوية: ويحك أأمرني أن أحرق علماً مثل هذا ! والله ما سمعت بعلم أجمع منه ، ولا أحكم ، ولا أوضح !

فقال الوليد: إن كنت تعجب من علمه وقضائه ، فعلام تقاتله ؟

فقال معاوية: لولا أن أبا تراب قتل عثمان ، ثم أفتانا لأخذنا عنه !

ثم سكت هنيئة ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنا لا نقول: إن هذه من كتب علي بن أبي طالب ، ولكننا نقول: إن هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد ، فنحن نقضي بها ونفتي .

فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أمية حتى وليَ عمر بن عبد العزيز ،

فهو الذي أظهر أنها من أحاديث علي بن أبي طالب عليه السلام .»

أقول: يظهر أن سياسة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام أن يكون العلم في الأمة حتى ظهور المهدي عليه السلام ، محصوراً بالقرآن ، وما روته الأمة عن النبي والأئمة صلوات الله عليهم ، بطرقها العادية .

لذلك أملى النبي صلى الله عليه وآله كتباً وقال لعلي عليه السلام : أكتب لك ولشركائك . وجعلها عند علي والأئمة عليهم السلام حتى يظهر المهدي عليه السلام فيظهرها .

وكأن ذلك عملٌ بقوله تعالى : وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

ويبدو أن ما كتبه أمير المؤمنين عليه السلام لمحمد بن أبي بكر كان علماً خاصاً به ، لا يريد أن يصل الى أعدائه .

وقد روي أن أمير المؤمنين عليه السلام تأسف على وقوع تلك الكتب في يد معاوية ، ووصف عمله بأنه خطأ وعشرة ! ففي الغارات: ١/ ٢٥٢ ، عن عبد الله بن سلمة قال: صلى بنا علي عليه السلام فلما انصرف قال:

لقد عثرتُ عشرةً لا أعتذرُ سوف أكيسُ بعدها وأستمرُ

وأجمع الأمر الشَّتيتَ المتشر

قلنا: ما بالك يا أمير المؤمنين ، سمعنا منك كذا؟ قال: إني استعملت محمد بن أبي بكر على مصر ، فكتب إلي أنه لا علم لي بالسنة ، فكتبت إليه كتاباً فيه السنة فقتل وأخذ الكتاب). وإذا صح ذلك فهو خطأ بمعنى ترك الأولى، لا بمعنى فعل الحرام. على أنه عليه السلام استهد بيت الشعر ، وليس في ذلك تصريح بالخطأ .

رسالة محمد بن أبي بكر إلى معاوية وجوابه

« كتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية احتجاجاً عليه:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن أبي بكر ، إلى الغاوي معاوية بن صخر، سلام الله على أهل طاعة الله ممن هو أهل دين الله ، وأهل ولاية الله . أما بعد ، فإن الله بجلاله وسلطانه خلق خلقاً بلا عبث منه ، ولا ضعف به، ولكنه خلقهم عبيداً فمنهم شقي وسعيد وغوي ورشيد. ثم اختارهم على علم منه واصطفى وانتخب منهم محمداً عليه السلام واصطفاه لرسالته وائتمنه على وحيه ، فدعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة. فكان أول من أجاب وأناب ، وأسلم وسلم أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب ، فصدقه بالغيب المكتوم ، وأثره على كل حميم ، ووقاه من كل مكروه ، وواساه بنفسه في كل خوف .

وقد رأيتك تساويه وأنت أنت ، وهو هو المبرز والسابق في كل خير ، وأنت اللعين ابن اللعين ، لم تزل أنت وأبوك تبغضان وتبغيان في دين الله الغوائل ، وتجتهدان على إطفاء نور الله ، تجمععان الجموع على ذلك ، وتبذلان فيه الأموال ، وتُحالفان عليه القبائل .

على ذلك مات أبوك ، وعليه خلفته أنت ، فكيف لك الويل تعدل بعلي وهو وارث علم رسول الله ووصيه ، وأول الناس له اتباعاً ، وآخرهم به عهداً ، وأنت عدوه وابن عدوه !

فتمتع بباطلك ما استطعت ، وليمدك ابن العاص في غوايتك ، فكأن أجلك قد انقضى وكيدك قد وهى ، ثم تستبين لك لمن تكون العاقبة العليا . والسلام على من اتبع الهدى .

فأجابه معاوية: هذا إلى الزاري على أبيه ، محمد بن أبي بكر ، سلام على أهل طاعة الله ، أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله في قدرته وسلطانه ، مع كلام ألفته ورصفته لرأيك فيه ، وذكرت حق علي وقديم سوابقه وقرابته من رسول الله ، ونصرته ومواساته إياه في كل خوف وهول وتفضيلك علياً وعيبك لي بفضل غيرك لا بفضلك ، فالحمد لله الذي صرف ذلك عنك ، وجعله لغيرك .

وقد كنا وأبوك معنا في زمن نبينا نرى حق عليّ لازماً لنا ، وسبقه مبرزاً علينا ، فلما اختار الله لنبيه ما عنده ، وأتم له ما وعده ، وقبضه الله إليه ، كان أبوك وفاروقه أول من ابتزه وخالفه على ذلك واتفقا ، ثم دعوا إلى أنفسهما فأبطأ عليهما ، فهما به الهموم وأرادا به العظيم ، فبايع وسلم لأمرهما لا

الفصل الثالث: أخبار مصر في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام ١٢٥

يشركانه في أمرهما ، ولا يطلعانه على سرهما ، حتى قضى الله من أمرهما ما قضى .

ثم قام بعدهما ثالثهما يهدي بهداهما ويسير بسيرتهما ، فعبته أنت وأصحابك حتى طمع فيه الأقباسي من أهل المعاصي ، حتى بلغت منه مناكما ، وكان أبوك مهد مهاده .

فإن يك ما نحن فيه صواباً فأبوك أوله ، وإن يك جوراً فأبوك سنه ، ونحن شركاؤه وبهده اقتدينا ، ولو لا ما سبقنا إليه أبوك ما خالفنا علياً ولسلمنا له . ولكننا رأينا أباك فعل ذلك فأخذنا بمثاله ، فعب أباك أو دعه . والسلام على من تاب وأناب .» (الإحتجاج: ١ / ٢٦٩).

رسالة الإمام عليه السلام إلى محمد عندما عين الأشر مكانه

في نهج البلاغة: ٣ / ٥٩: « ومن كتاب له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر ، لما بلغه توّجّده من عزله بالأشتر عن مصر ، ثم توفي الأشتر في توجهه إلى مصر قبل وصوله إليها:

أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريح الأشتر إلى عمّلك ، وإني لم أفعل ذلك استبطاءً لك في الجهد ، ولا ازدياداً في الجد . ولو نزع ما تحت يدك من سلطانك ، لوليتك ما هو أيسر عليك مؤونة ، وأعجب إليك ولاية . إن الرجل الذي كنت وليته أمر مصر كان لنا رجلاً ناصحاً ، وعلى عدونا

شديداً ناقماً ، فرحمه الله فلقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ، ونحن عنه راضون ، أولاه الله رضوانه ، وضاعف الثواب له . فأصحر لعدوك ، وامض على بصيرتك ، وشمر لحرب من حاربك ، وادع إلى سبيل ربك ، وأكثر الإستعانة بالله يكفك ما أهمك ويُعِينك على ما نزل بك ، إن شاء الله .

وفي الغارات: ١/ ٣٠١: « عن مالك بن الجون الحضرمي أن علياً عليه السلام قال: رحم الله محمداً ، كان غلاماً حدثاً ، أما والله لقد كنت أردت أن أويّ المرقال هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مصر ، والله لو أنه وليها لما خلى لعمر وبن العاص وأعوانه العرصة ، ولما قتل إلا وسيفه في يده ، بلا ذم لمحمد بن أبي بكر ، فلقد أجهد نفسه وقضى ما عليه .»

غزو معاوية لمصر بعد معركة صفين

روى الثقفى في الغارات: ١/ ٢٧٠ ، عن عبد الله بن حوالة الأزدي: « إن أهل الشام لما انصرفوا من صفين كانوا ينتظرون ما يأتي به الحكمان .

فلما انصرفا وتفرقا ، وباع أهل الشام معاوية بالخلافة ، فلم يزد معاوية إلا قوة ، واختلف أهل العراق على علي عليه السلام ، فما كان لمعاوية همٌ إلا مصر ، وقد كان لأهلها هائباً لقربهم منه وشدتهم على من كان على رأي عثمان ، وقد كان

علم أن بها قوماً قد ساءهم قتل عثمان وخالفوا علياً عليه السلام مع أنه كان يرجو أن يكون له فيها معاونة إذا ظهر عليها على حرب علي عليه السلام ، لعظم خراجها .

قال: فدعا معاوية من كان معه من قريش: عمرو بن العاص السهمي، وحيب بن مسلمة الفهري ، وبسر بن أرطاة العامري ، والضحاك بن قيس الفهري ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد . ودعا من غير قريش نحو شرحبيل بن السمط ، وأبي الأعور السلمي ، وحمزة بن مالك الهمداني ، فقال: أتدرون لماذا دعوتكم ؟

قالوا: لا ، قال: فإني دعوتكم لأمر هولي مهم ، وأرجو أن يكون الله قد أعان عليه ، فقال له القوم كلهم: أو من قال له منهم: إن الله لم يطلع على غيبه أحداً وما ندري ما تريد ؟

فقال له عمرو بن العاص: أرى والله إن أمر هذه البلاد لكثرة خراجها وعدد أهلها قد أهمك، فدعوتنا لتسألنا عن رأينا في ذلك ، فإن كنت لذلك دعوتنا وله جمعتنا ، فاعزم واصرم ، ونعم الرأي ما رأيت ، إن في افتتاحها عرك وعز أصحابك وكبت عدوك وذل أهل الخلاف عليك . فقال له معاوية مجيباً: أهمك يا ابن العاص ما أهمك ؟ وذلك أن عمرو بن العاص كان بايع معاوية على قتال علي بن أبي طالب عليه السلام وأن له مصر طعمة ما بقي!

فأقبل معاوية على أصحابه وقال: إن هذا يعني ابن العاص قد ظن وقد حقق ظنه ، قالوا له: لكننا لا ندري ولعل أبا عبد الله قد أصاب . فقال عمرو: وأنا أبو عبد الله إن أشبه الظنون ما شابه اليقين .

ثم إن معاوية حمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد فقد رأيتم كيف صنع الله لكم في حربكم هذه على عدوكم ، ولقد جاؤوكم وهم لا يشكون أنهم يستأصلون بيضتكم ويجوزون بلادكم . ما كانوا يرون إلا أنكم في أيديهم ، فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكفاكم مؤونتهم وحاكمتموهم إلى الله فحكم لكم عليهم ، ثم جمع لنا كلمتنا ، وأصلح ذات بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين ، يشهد بعضهم على بعض بالكفر ، ويسفك بعضهم دم بعض ، والله إني لأرجو أن يتم الله لنا هذا الأمر .

وقد رأيت أن أحاول حرب مصر ، فماذا ترون ؟

فقال له عمرو: قد أخبرتك عما سألت ، وأشرت عليك بما سمعت . فقال معاوية للقوم: ما ترون؟ فقالوا: نرى ما رأى عمرو . فقال معاوية: إن عمراً قد عزم وصرم بما قال ، ولم يفسر كيف ينبغي أن نصنع . قال عمرو: فيإني أشير عليك كيف تصنع ، أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً ، عليهم رجل صارم تأمنه وتثق به ، فيأتي مصر فيدخلها فإنه سيأتيه من كان من أهلها على مثل رأينا فيظاھرہ علی من كان بها من عدونا، فإن اجتمع بها جندك ومن كان بها

من شيعتك على من بها من أهل حربك ، رجوت أن يعز الله نصرك ويظهر
فلجك .

قال له معاوية: هل عندك شئ غير هذا نعمله فيما بيننا وبينهم قبل هذا؟
قال: ما أعلمه . قال معاوية: فإن رأيي غير هذا ، أرى أن نكتب من كان بها
من شيعتنا ومن كان بها من عدونا، فأما شيعتنا فنأمرهم بالثبات على أمرهم
ونمنّهم قدومنا عليهم ، وأما من كان بها من عدونا فنندعوهم إلى صلحنا
ونمنّهم شكرنا ونخوفهم حربنا فإن صلح لنا ما قبلهم بغير حرب ولا
قتال فذلك ما أحببنا ، وإلا فحربهم بين أيدينا ، إنك يا ابن العاص لا مروءة
بورك لك في العجلة ، وأنا أمرؤ بورك لي في التؤدة .

قال له عمرو: فاعمل بما أراك الله ، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصير إلا إلى
الحرب العوان .

قال: فكتب معاوية عند ذلك إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري ، وإلى معاوية
بن حديج الكندي ، وكانا قد خالفا علياً عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله عز وجل قد ابتعثكما لأمر عظيم
أعظم به أجركما ورفع به ذكركما وزينكما به في المسلمين ، طلبتما بدم الخليفة
المظلوم ، وغضبتما لله إذ ترك حكم الكتاب ، وجاهدتما أهل الظلم
والعدوان ، فأبشرا برضوان الله ، وعاجل نصره أولياء الله ، والمواساة لكما

في دار الدنيا وسلطاننا ، حتى ينتهي ذلك إلى ما يرضيكما ويؤدى به حقكما ، فالرما أمركما ، وجاهدا عدوكما ، وادعوا المدبرين عنكما إلى هداكما ، فكأن الجيش قد أظل عليكما فانقشع كل ما تكرهان، ودام كل ما تهويان، والسلام عليكما . وبعث بالكتاب مع مولى له يقال له: سبيع فخرج الرسول بكتابه حتى قدم به عليهما بمصر ، ومحمد بن أبي بكر يومئذ أميرها قد ناصبه هؤلاء النفر الحرب بها ، وهم عنه متنحون يهابون الإقدام عليه ، فدفع الكتاب إلى مسلمة بن مخلد ، فلما قرأه قال له: إلق به معاوية بن حديج ، ثم إلقني به حتى أجيب عني وعنه .

فانطلق الرسول بكتاب معاوية فأقرأه إياه ، ثم قال له: إن مسلمة قد أمرني أن أرد الكتاب إليه لكي يجيب معاوية عنك وعنه .

قال: قل له فليفعل ، فأتى مسلمة بالكتاب فكتب مسلمة الجواب عنه وعن معاوية بن حديج:

إلى معاوية بن أبي سفيان: أما بعد فإن هذا الأمر الذي قد ندبنا له أنفسنا وابتعثنا الله به على عدونا ، أمر نرجو به ثواب ربنا والنصر على من خالفنا ، وتعجيل النعمة على من سعى على إمامنا ، وطأطأ الركض في جهادنا . ونحن بهذه الأرض قد نفينا من كان بها من أهل البغي، وأنهضنا من كان بها من أهل القسط والعدل، وقد ذكرت مؤازرتك في سلطانك وذات يدك

وبالله إنه لا من أجل مال غضبنا ولا إياه أردنا ، فإن يجمع الله لنا ما نريد ونطلب ، ويؤتنا ما نتمنى فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين ، وقد يؤتيهما الله معاً عاماً من خلقه ، كما قال في كتابه: فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . عجل علينا بخيلك ورجلك ، فإن عدونا قد كان علينا حرباً، وكنا فيهم قليلاً، وقد أصبحوا لنا هائين وأصبحنا لهم منابذين فإن يأتنا مدد من قبلك يفتح الله عليك . ولا قوة إلا به وهو حسبنا ونعم الوكيل .

قال: فجاء هذا الكتاب معاوية وهو يومئذ بفلسطين ، فدعا النفر الذين سميناهم من قريش وغيرهم وأقرأهم الكتاب وقال لهم: ماذا ترون؟ قالوا: نرى أن تبعث إليهم جنداً من قبلك ، فإنك مفتحها إن شاء الله . قال معاوية: فتجهز إليها يا أبا عبد الله يعني عمرو بن العاص فبعثه في ستة آلاف رجل ، فخرج يسير وخرج معه معاوية يودعه فقال له معاوية عند وداعه إياه: أوصيك بتقوى الله يا عمرو ، وبالرفق فإنه يمن ، وبالتؤدة فإن العجلة من الشيطان ، وبأن تقبل من أقبل ، وأن تعفو عن أدبر ، أنظره فإن تاب وأتاب قبلت منه ، وإن أبى فإن السطوة بعد المعرفة أبلغ في الحججة وأحسن في العاقبة ، وادع الناس إلى الصلح والجماعة ، فإن أنت ظفرت ، فليكن أنصارك أثر الناس عندك ، وكل الناس فأول حسناً .

قال: فسار عمرو في الجيش حتى دنا من مصر فاجتمعت إليه العثمانية فأقام وكتب إلى محمد بن أبي بكر: أما بعد فتنح عني بدمك يا ابن أبي بكر ، فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر ، وإن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ، ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك ، وهم مُسْلِمُونَ لو قد التقت حلقتا البطان ، فاخرج منها إني لك من الناصحين . والسلام .

قال: وبعث عمرو أيضاً مع هذا الكتاب بكتاب معاوية إليه وفيه: أما بعد فإن غب البغي والظلم عظيم الوبال ، وإن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا ، والتبعة الموبقة في الآخرة ، وما نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً ، ولا أسوأ له عيباً ، ولا أشد عليه خلافاً منك . سعت عليه في الساعين ، وساعدت عليه مع المساعدين ، وسفكت دمه مع السافكين ، ثم أنت تظن أني عنك نائم ، ثم تأتي بلدة فتأمن فيها وجل أهلها أنصاري ، يرون رأبي ويرقبون قولي ويستصرخونني عليك .

وقد بعثت إليك قوماً حناقاً عليك ، يستسفكون دمك ، ويتقربون إلى الله بجهادك ، قد أعطوا الله عهداً ليقتلنك ، ولو لم يكن منهم إليك ما قالوا لقتلك الله بأيديهم أو بأيدي غيرهم من أوليائه ، فأحذرك وأندرك ، وأحب أن يقتلوك بظلمك ووقيعتك وعدوانك على عثمان يوم الدار ، تطعن بمشاقصك فيما بين أحشائه وأوداجه ، ولكني أكره أن تقتل ولن يسلمك

الله من القصاص أين كنت. والسلام. قال: فطوى محمد بن أبي بكر كتابيها وبعث بهما إلى علي عليه السلام وكتب إليه: أما بعد فإن العاصي ابن العاص قد نزل أداني مصر، واجتمع إليه من أهل البلد كل من كان يرى رأيهم، وقد جاء في جيش جرار، وقد رأيت ممن قبلي بعض الفشل، فإن كان لك في أرض مصر حاجة فامدني بالأموال والرجال. والسلام.

فكتب إليه علي عليه السلام: أما بعد فقد جاءني رسولك بكتابك تذكر أن ابن العاص قد نزل أداني مصر في جيش جرار، وأن من كان على مثل رأيه قد خرج إليه، وخرج من كان يرى رأيه خير لك من إقامته عندك، وذكرت أنك قد رأيت ممن قبلك فشلاً، فلا تفشل وإن فشلوا، حصن قريتك، واضمم إليك شيعتك، وأذك الحرس في عسكرك، واندب إلى القوم كنانة بن بشر المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس، وأنا نادب إليك الناس على الصعب والذل، فاصبر لعدوك وامض على بصيرتك، وقاتلهم على نيتك، وجاهدهم محتسباً لله، وإن كانت فتتك أقل الفتتين، فإن الله يعز القليل ويخذل الكثير.

وقد قرأت كتابي الفاجرين المتحابين على المعصية، والمتلائمين على الضلالة والمرتشين الذين استمتعا بخلاقهما، فلا يهدنك ارعادهما وإبراقهما، وأجبهما إن كنت لم تجبهما بما هما أهله، فإنك تجد مقالاً ما شئت. والسلام.

قال: فكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية جواب كتابه: أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر من أمر عثمان أمراً لا أعتذر إليك منه ، وتأمرنى بالتنحي عنك كأنك لي ناصح ، وتخوفني بالمثلثة كأنك علي شفيق ، وأنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم وأن يهلككم الله في الواقعة ، وأن ينزل بكم الذل وأن تولوا الدبر ، فإن يكن لكم الأمر في الدنيا فكم وكم لعمرى من ظالم قد نصرتم ، وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به ، وإلى الله المصير ، وإليه ترد الأمور ، وهو أرحم الراحمين ، والله المستعان على ما تصفون .

قال: وكتب محمد بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص جواب كتابه: أما بعد فقد فهمت كتابك وعلمت ما ذكرت ، وزعمت أنك لا تحب أن يصيبني منك ظفر ، فأشهد بالله إنك لمن المبطلين ، وزعمت أنك لي ناصح ، وأقسم أنك عندي ظنين ، وزعمت أن أهل البلد قد رفضوني وندموا على أتباعي ، فأولئك حزبك وحزب الشيطان الرجيم ، حسبنا الله رب العالمين ونعم الوكيل ، وتوكلت على الله العزيز الرحيم ، رب العرش العظيم .

قال: وأقبل عمرو بن العاص فقصده مصر فقام محمد بن أبي بكر في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال: أما بعد يا معشر المؤمنين فإن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمه ، وينعشون الضلالة ، ويشبون نار الفتنة ، ويستطيّلون بالجبرية ، قد نصبوا لكم العداوة وساروا إليكم بالجنود

فمن أراد الجنة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجالدهم في الله . إندبوا إلى هؤلاء رحمكم الله ، مع كنانة بن بشر ، ومن يجيب معه من كندة . فانتدب معه ألفا رجل ، وخرج محمد في نحو ألفين ، واستقبل عمرو كنانة وهو على مقدمة محمد ، فأقبل عمرو نحو كنانة ، فلما دنا منه سرح نحوه الكتائب كتبية بعد كتبية ، فجعل كنانة لا يأتيه كتبية من كتائب أهل الشام ، إلا شد عليها بمن معه فيضربها حتى يلحقها بعمرو ، ففعل ذلك مراراً ، فلما رأى عمرو ذلك بعث إلى معاوية بن حديج الكندي ، فأتاه في مثل الدهم فلما رأى كنانة ذلك الجيش ، نزل عن فرسه ونزل معه أصحابه ، فضاربهم بسيفه وهو يقول: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّوجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ . ثم ضاربهم بسيفه حتى استشهد عليه السلام .

وإن عمرو بن العاص لما قتل كنانة أقبل نحو محمد بن أبي بكر ، وقد تفرق عنه أصحابه ، فلما رأى ذلك محمد خرج يمضي في الطريق حتى انتهى إلى خربة في ناحية الطريق فأوى إليها ، وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط ، وخرج معاوية بن حديج في طلب محمد بن أبي بكر ، حتى انتهى إلى علوج على قارعة الطريق فسألهم: هل مر بكم أحد تنكرونه؟ قالوا: لا ، فقال أحدهم: إني دخلت تلك الخربة فإذا أنا فيها برجل جالس .

فقال ابن حديج: هو هو ورب الكعبة ، فانطلقوا يركضون حتى دخلوا عليه واستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً ، فأقبلوا به نحو الفسطاط . قال: ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص ، وكان في جنده فقال: والله لا يقتل أخي صبراً، إبعث إلى معاوية بن حديج فانه عن قتله! فأرسل عمرو إلى معاوية أن إئتني بمحمد ، فقال معاوية: أقتلتم كنانة بن بشر ابن عمي وأخلي عن محمد! هيهات ، أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر! فقال محمد: إسقوني قطرة من الماء . فقال معاوية: لاسقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً ، إنكم منعمتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه ظامياً محرماً فسقاه الله من الرحيق المختوم ، والله لأقتلنك يا ابن أبي بكر وأنت ظمآن ، فيسقيك الله من الحميم والغسلين!

فقال له محمد بن أبي بكر: يا ابن اليهودية النساجة: ليس ذلك إليك ولا إلى من ذكرت ، إنما ذلك إلى الله يسقي أوليائه ويظمئ أعداءه ، وهم أنت وقرناؤك ، ومن تولاك وتوليته . والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني ما بلغتم!

فقال له معاوية بن حديج: أتدري ما أصنع بك! أدخلك جوف هذا الحمار الميت ثم أحرقه عليك بالنار! فقال محمد: لئن فعلتم ذلك بي فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله ، وأيم الله إني لأرجو أن يجعل الله هذه النار التي

تخوفني بها عليّ برداً وسلاماً ، كما جعلها على إبراهيم خليله ، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وأوليائه ، وإني لأرجو أن يجرقك الله وإمامك ، يعني معاوية بن أبي سفيان ، وهذا وأشار إلى عمرو بن العاص بنار تلظى عليكم ، كلما خبت زادها الله سعيراً .

فقال له معاوية: إني لا أقتلك ظلماً إنما أقتلك بعثمان . فقال له محمد: وما أنت وعثمان ؟ إن عثمان عمل بغير الحق وبدل حكم القرآن وقد قال الله عز وجل: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ . وأولئك هم الظالمون ، وأولئك هم الفاسقون ، فنقمنا عليه أشياء عملها، فأردنا أن يختلع من عملنا فلم يفعل ، فقتله من قتله من الناس .

فغضب معاوية بن حديج فقدمه فضرب عنقه ، ثم ألقاه في جوف حمار وأحرقه بالنار...! وكان معاوية بن حديج ملعوناً خبيثاً ، وكان يسب علي بن أبي طالب عليه السلام ...

قال: وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبي سفيان عند قتل محمد بن أبي بكر وكناية بن بشر: أما بعد فإننا لقينا محمد بن أبي بكر وكناية بن بشر في جموع من أهل مصر، فدعوناهم إلى الكتاب والسنة فعصوا الحق وتهوكوا في الضلال، فجاهدناهم فاستنصرنا الله عليهم فضرب الله وجوههم وأدبارهم

ومنحنا أكتافهم ، فقتل محمد بن أبي بكر ، وكنانة بن بشر ، والحمد لله رب العالمين . والسلام .» .

وفي نهاية الإرب: ١١٠ / ١: « فلما رأى كنانة ذلك ترجل عن فرسه وترجل أصحابه وقرأ: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ... فقاتل حتى قتل ، بعد أن قتل من أهل الشام مقتلة عظيمة ، فلما رأى أصحاب محمد ذلك تفرقوا عنه فنزل محمد عن فرسه ، ومشى حتى انتهى إلى خربة فأوى إليها.. واستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً ، فأقبلوا به على الفسطاط ، ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق إلى عمرو بن العاص وكان في جنده فقال: أيقتل أخي صبراً! فأرسل عمرو إلى معاوية بن حديج يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر كرامة لأخيه عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال معاوية: أيقتل كنانة بن بشر وأخلي أنا محمداً ، هيهات هيهات..!

فقال له معاوية: أتدري ما أصنع بك ، أدخلك في جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار! قال محمد: إن فعلتم ذلك لطالما فعلتموه بأولياء الله تعالى! ثم طال الكلام بينهما حتى أخذ معاوية محمداً ثم ألقاه في جيفة حمار ميت ، ثم حرقه بالنار . وقيل إنه قطع رأسه وأرسله إلى معاوية بن أبي سفيان بدمشق وطيف به ، وهو أول رأس طيف به !»

الفصل الثالث: أخبار مصر في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام ١٣٩

وقال الدكتور إبراهيم حسن في: تاريخ عمرو بن العاص / ٢٦٨: «قال المقرئ إن الواقعة المذكورة كانت في مدينة يقال لها المنشأة. وقد ذكرها اليعقوبي المسناة أما المنشأة فقد ذكرها المرحوم علي مبارك باشا في خطه فقال: يوجد من هذا الإسم عدة قرى أكبرها وأشهرها منشأة أخميم، ثم منشأة بكار، من مديرية الجيزة، ومنشأة سدود من مديرية المنوفية، ومنشأة سيوط، ومنشأة عاصم، وهي قرية من مديرية الدقهلية بمركز دكرنس على الشاطئ الشرقي للبحر الصغير. والظاهر أن الواقعة كانت في هذه القرية وباسمها سميت». وقال الأستاذ صالح الورداني في كتاب الشيعة في مصر / ١٠٩: «ويقع مرقد في بلدة ميت دمسيس التابعة للمنصورة، وهناك قبر ناحية الفسطاط يقال له محمد الصغير، والعامية يعتقدون أنه محمد بن أبي بكر، إلا أن الراجح أن مرقده ناحية المنصورة».

محاولة علي عليه السلام نصرته محمد بن أبي بكر رضي الله عنه

تسلم محمد رضي الله عنه حكم مصر من قيس بن سعد، وأخذ يعالج مشكلة جماعة معاوية، التي كبرت وصارت ألوف المقاتلين! وتفاقم الخطر على محمد، فكتب الى أمير المؤمنين عليه السلام ليمنه بجيش، فتباطأ المسلمون عن إجابة أمير المؤمنين عليه السلام.

وأرسل الإمام عليه السلام قائداً قوياً في الإدارة والحرب ، هو مالك الأشتر رضي الله عنه ، لكن معاوية وأنصاره في خربتا تعاونوا ودبروا له السم عند مشارف القاهرة ، فاستشهد قبل أن يتسلم عمله من محمد بن أبي بكر ، رضي الله عنهما .

ونشطت المجموعة العثمانية في خربتا ، بقيادة مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج ، وبسر بن أرطاة ، وكانوا بموجب اتفاقهم مع قيس بن سعد دولة داخل الدولة ، وأعلنوا الحرب على محمد بن أبي بكر ، ووعدهم معاوية أن يرسل لهم جيشاً .

روى الثقفى في الغارات: ٢٨٨/١ ، عن جنذب بن عبد الله قال: « والله إني لعند علي عليه السلام جالس ، إذ جاءه عبد الله بن قعين جد كعب يستصرخ من قبل محمد بن أبي بكر وهو يومئذ أميراً على مصر فقام علي عليه السلام فنادى في الناس: الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال:

أما بعد، فهذا صريخ محمد بن أبي بكر وإخوانكم من أهل مصر ، وقد سار إليهم ابن النابغة عدو الله وعدوكم ، فلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم والركون إلى سبيل الطاغوت ، أشد اجتماعاً على باطلهم وضلالتهم منكم

على حَقِّكم ، فكأنكم بهم قد بدؤوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر .

عباد الله إن مصر أعظم من الشام خيراً وخير أهلاً فلا تُغلبوا على مصر فإن بقاء مصر في أيديكم عزٌّ لكم ، وكبت لعدوكم . أخرجوا إلى الجرعة (بين الكوفة والحيرة) لتتوافق هناك كلنا غداً ، إن شاء الله .

فلما كان الغد خرج يمشي فنزلها بكرةً فأقام بها حتى انتصف النهار يومه ذلك فلم يوافه منهم مائة رجل فرجع ، فلما كان العشي بعث إلى الأشراف فجمعهم فدخلوا عليه القصر وهو كئيب حزين فقال:

الحمد لله على ما قضى من أمر ، وقدر من فعل ، وابتلاني بكم أيتها الفرقة التي لا تطيع إذا أمرت ولا تحيب إذا دعوت ! لا أبأ لغيركم ما تنتظرون بنصركم ربكم والجهاد على حَقِّكم: الموت ، أو الذلَّ لكم في هذه الدنيا في غير الحق ! والله لئن جاءني الموت ، وليأتيني فليفرقن بيني وبينكم وإني لصحبتكم لقال .

ألا دينٌ يجمعكم ، ألا حميةٌ تغضبكم إذ أنتم سمعتم بعدوكم ينتقص بلادكم ، ويشن الغارة عليكم ! أوليس عجبا أن معاوية يدعو الجفافة الظلمة الطغام فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ، فيجيبونه في السنة المرة والمرتين والثلاث ، إلى أي وجه شاء . ثم إني أدعوكم وأنتم أولوا النهى

وبقية الناس ، على المعونة وطائفة منكم على العطاء ، فتختلفون وتتفرقون عني ، وتعصونني وتخالفون عليّ .

فقام إليه مالك بن كعب الأرحبي فقال: يا أمير المؤمنين أندب الناس معي فإنه لا عطر بعد عروس ، لمثل هذا اليوم كنت أدخر نفسي- ، وإن الأجر لا يأتي إلا بالكره .

ثم التفت إلى الناس وقال: إتقوا الله وأجيئوا إمامكم وانصروا دعوته وقاتلوا عدوكم ، وأنا أسير إليهم يا أمير المؤمنين .

قال: فأمر عليٌّ مناديه سعداً مولاه فنادى: ألا سيروا مع مالك بن كعب إلى مصر ، وكان وجهاً مكروهاً ، فلم يجتمعوا إليه شهراً ، فلما اجتمع له منهم ما اجتمع ، خرج بهم مالك بن كعب فعسكر بظاهر الكوفة، ثم إنه خرج وخرج معه أمير المؤمنين علي عليه السلام فنظروا فإذا جميع من خرج معه نحو من ألفي رجل، فقال علي عليه السلام: سيروا على اسم الله ، فوالله ما إخالكم تدركون القوم حتى ينقضي أمرهم ! قال: فخرج مالك بهم، وسار بهم خمس ليال . ثم إن الحجاج بن غزية الأنصاري قدم على علي عليه السلام من مصر ، وقدم عليه عبد الرحمن بن المسيب الفزاري من الشام، فأما الفزاري فكان عينه عليه السلام بالشام ، وأما الأنصاري فكان مع محمد بن أبي بكر بمصر فحدثه الأنصاري بما عاين وشهد بهلاك محمد ، وحدثه الفزاري أنه لم يخرج من الشام حتى قدمت البشرية من قبل عمرو بن العاص تترى يتبع بعضها على أثر بعض

الفصل الثالث: أخبار مصر في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام ١٤٣

بفتح مصر وقتل محمد بن أبي بكر ، وحتى أذن معاوية بقتله على المنبر ، فقال له: يا أمير المؤمنين ما رأيت يوماً قط سروراً مثل سرور رأيتك بالشام حين أتاهم هلاك ابن أبي بكر!

فقال علي عليه السلام: أما إن حزننا على قتله على قدر سرورهم به ، لا بل يزيد أضعافاً . قال: فسرح علي عليه السلام عبد الرحمن بن شريح الشامي إلى مالك بن كعب ، فرده من الطريق .

وفي نهاية الإرب للنويري (١/١١٢): « فبعث إلى مالك بن كعب فرده من الطريق ، وذلك لأنه خشي عليهم من أهل الشام قبل وصولهم إلى مصر . واستقر أمر العراقيين على خلاف علي عليه السلام فيما يأمرهم به وينهاهم عنه ، والخروج عليه والتنقد على أحكامه وأقواله وأفعاله ، لجهلهم وقلة عقلهم وجفائهم وغلظتهم ، وفجور كثير منهم .

فكتب علي عند ذلك إلى ابن عباس وهو نائبه على البصرة ، يشكو إليه ما يلقاه من الناس من المخالفة والمعاندة...» .

وقال اليعقوبي في تاريخه: ١٩٣/٢: « وجه معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص على مصر على شرط له ، فقدّمها سنة ٣٨ ومعه جيش عظيم من أهل الشام ، فكان على أهل دمشق يزيد بن أسد البجلي ، وعلى أهل فلسطين شمير الخثعمي ، وعلى أهل الأردن أبو الأعور السلمي ومعاوية بن حديج الكندي على الخارجة .

فلقبهم محمد بن أبي بكر بموضع يقال له المسنّة ، فحاربهم محاربة شديدة ، وكان عمرو يقول: ما رأيت مثل يوم المسنّة ، وقد كان محمد استنمّ إلى اليمانية فمابيل عمرو بن العاص اليمانية، فخلّفوا محمد بن أبي بكر وحده! فجالد ساعة ثم مضى فدخل منزل قوم خرابة ، واتبعه ابن حديج الكندي فأخذه وقتله ، وأدخله جيفة حمار وحرقه بالنار ، في زقاق يعرف بزقاق الحوف! وبلغ علياً ضعف محمد بن أبي بكر ، وممالأة اليمانية معاوية وعمرو بن العاص ، فقال: ما أتى محمد من حرّض!

معناه: ما غلبه أعداؤه لضعف دينه أو عقله ، ولكنها المقادير .

وفي الغارات: ٧٥٦ / ٢: (فدخلوا إليه وربطوه بالحبال وجروه على الأرض وأمر به أن يحرق بالنار في جيفة حمار! ودفن في الموضع الذي قتل فيه . فلما كان بعد سنة من دفنه أتى غلامه وحفر قبره ، فلم يجد فيه سوى الرأس ، فأخرجه ودفنه في المسجد تحت المنارة .

وفي المواعظ للمقريزي: ٧٥ / ٣: (فكانت ولاية محمد بن أبي بكر خمسة أشهر ، ومقتله لأربع عشرة خلت من صفر ، سنة ثمان وثلاثين) .

أقول: تدل روايات غزو معاوية لمصر على أن قوات المسلمين فيها لم تكن كبيرة ، فقد كان مع محمد بن أبي بكر أربعة آلاف ، ألفان مع قائد جيشه كنانة بن بشر ، وألفان معه . ولم يثبتوا في المعركة مع قاداتهم . وكان مع

عمرو العاص ستة آلاف ، جاء بهم من الشام ، ولعل أهل خَرَبْتَا مع معاوية بن حديج وزملائه كانوا ألفين .
وهذا يدل على أن رواية الطبري (٣/٣٥٣) بأن عددهم عشرة آلاف مبالغة .
ويبدو أنه لم يكن في الطرفين مقاتلون أولي بأس ، فأقوى جيش محمد كنانة بن بشر المتهم بقتل عثمان فقد قاتل قتالاً شديداً . ومحمد مقاتل متوسط .
أما جيش معاوية فلم يكن فيهم مقاتل مميز ، لكن الموجة السياسية كانت لهم ، وكانوا أكثر ، فهزموا جيش محمد وكنانة ، وقتلوهما رضي الله عنهما .
كما يدل على أن الأقباط لم يدخلوا طرفاً في صراع الحكم في مصر حتى بعد مضي ربع قرن على الحكم الإسلامي فيها ، ودخول كثير منهم في الإسلام .

حزن أمير المؤمنين عليه السلام على محمد بن أبي بكر

قال الثقيفي في الغارات: ١/ ٢٩٥: « وحزن علي عليه السلام على محمد بن أبي بكر حتى رَوِيَ ذلك فيه وتبين في وجهه ، وقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا وإن مصر قد افتتحتها الفجرة أولياء الجور والظلم ، الذين صدوا عن سبيل الله ، وبغوا الإسلام عوجاً . ألا وإن محمد بن أبي بكر قد استشهد رحمته الله ، فعند الله نحتسبه .

أما والله لقد كان ما علمت لمن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويجب هين المؤمن .

وإني والله ما ألوم نفسي على تقصير ولا عجز ، وإني بمقاساة الحرب لجد بصير ، وإني لأقدم على الأمر وأعرف وجه الخزم ، وأقوم بالرأي المصيب فأستصرخكم معلناً ، وأناديكم نداء المستغيث معرباً ، فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي أمراً ، تُصَيِّرُونَ الأمور إلى عواقب المساءة ! فأنتم القوم لا يدرك بكم الثار ، ولا تنقض بكم الأوتار !

دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين يوماً ، فجر جرتم عليّ جرجرة الجمل الأشدق ، وثاقلتم إلى الأرض ثاقل من ليس له نية في جهاد العدو ، ولا رأي له في اكتساب الأجر .

ثم خرج إلي منكم جنيد متدائب ضعيف ، كأنها يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، فأف لكم ! ثم نزل ، فدخل رحله .

قال: كتب علي عليه السلام إلى عبد الله بن العباس وهو على البصرة:

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن العباس: سلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فإن مصر قد افتتحت ، وقد استشهد محمد بن أبي بكر فعند الله عز وجل نحسبه . وقد كنت كتبت إلى الناس وتقدمت إليهم في بدء الأمر ، وأمرتهم بإغاثته قبل الواقعة ،

ودعوتهم سراً وجهرًا ، وعوداً وبدءاً ، فمنهم الآتي كارهاً ، ومنهم المعتل كاذباً ، ومنهم القاعد خاذلاً !

أسأل الله تعالى أن يجعل لي منهم فرجاً ومخرجاً ، وأن يريحني منهم عاجلاً . فوالله لولا طمعي عند لقاء عدوي في الشهادة ، وتوطيني نفسي على المنية ، لأحببت أن لا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً .

عزم الله لنا ولك على الرشد ، وعلى تقواه وهداه ، إنه على كل شيء قدير . والسلام .

قال ابن أبي الحديد في شرحه (١٤٦/١٦): « أنظر إلى الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل قيادها وتملكه زمامها . واعجب لهذه الألفاظ المنصوبة ، يتلو بعضها بعضاً كيف تواتيه وتطاوعه ، سلسة سهلة ، تتدفق من غير تعسف ولا تكلف ، حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال: يوماً واحداً ، ولا ألتقي بهم أبداً . وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبة ، جاءت القرائن والفواصل تارة مرفوعة ، وتارة مجرورة ، وتارة منصوبة ، فإن أرادوا قسرها بإعراب واحد ظهر منها في التكلف أثرٌ بين ، وعلامةٌ واضحة .

وهذا الصنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن ، ذكره عبد القاهر ، قال: أنظر إلى سورة النساء وبعدها سورة المائدة: الأولى منصوبة الفواصل ، والثانية ليس فيها منصوب أصلاً ، ولو مزجت إحدى السورتين بالأخرى

لم تمتاز ، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما . ثم إن فواصل كل واحد منها تنساق سياقةً بمقتضى البيان الطبيعي ، لا الصناعة التكلفية .

ثم انظر إلى الصفات والموصوفات في هذا الفصل ، كيف قال: ولداً ناصحاً ، وعاملاً كادحاً ، وسيفاً قاطعاً ، وركناً دافعاً . ولو قال ولداً كادحاً وعاملاً ناصحاً ، وكذلك ما بعده لما كان صواباً ، ولا في الموقع واقعاً .

فسبحان من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة ! أن يكون غلام من أبناء عرب مكة ، ينشأ بين أهله ، لم يخالط الحكماء ، وخرج أعرف بالحكمة ودقائق العلوم الإلهية من أفلاطون وأرسطو ! ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانية ، لأن قريشاً لم يكن أحد منهم مشهوراً بمثل ذلك ، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط !

ولم يرب بين الشجعان ، لأن أهل مكة كانوا ذوي تجاره ، ولم يكونوا ذوي حرب ، وخرج أشجع من كل بشر مشى على الأرض !

قيل لخلف الأحمر: أيما أشجع عنيسة وبسطام أم علي بن أبي طالب؟ فقال: إنما يذكر عنيسة وبسطام مع البشر والناس ، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة ! فقيل له: فعلى كل حال . قال: والله لو صاح في وجوهها لماتا قبل أن يحمل عليهما .

وخرج أفصح من سحبان وقس، ولم تكن قريش بأفصح العرب، كان غيرها أفصح منها. قالوا: أفصح العرب جرهم، وإن لم تكن لهم نباهة. وخرج أزهذ الناس في الدنيا، وأعفهم، مع أن قريشاً ذووا حرص ومحبة للدنيا. ولا غرو فيمن كان محمد صلى الله عليه وآله مربيه ومخرجه، والعناية الإلهية تمدّه وترفده، أن يكون منه ما كان!

وفي الغارات للثقفى: ١/٣٠٠: « فكتب إليه عبد الله بن عباس: بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله علي أمير المؤمنين من عبد الله بن عباس: سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه افتتاح مصر وهلاك محمد بن أبي بكر، وأنت سألت الله ربك أن يجعل لك من رعيتك التي ابتليت بها، فرجاً ومخرجاً. وأنا أسأل الله أن يُعلي كلمتك، وأن يُعينك بالملائكة عاجلاً، وأعلم أن الله صانع لك ذلك، ومعزك ومجيب دعوتك وكابتُ عدوك، وأخبرك يا أمير المؤمنين أن الناس ربما تباطؤوا ثم نشطوا، فارق بهم يا أمير المؤمنين ودارهم ومنهم، واستعن بالله عليهم كفاك الله المهم. والسلام.

قال: وأخبرني ابن أبي سيف أن عبد الله بن عباس قدم على علي عليه السلام من البصرة فعزاه بمحمد بن أبي بكر رضي الله عنه.»

منشور أمير المؤمنين عليه السلام في أبي بكر وعمر

رواه الكليني بسنده قال: «كتب أمير المؤمنين عليه السلام بعد منصرفه من النهروان كتاباً وأمر أن يقرأ على الناس ، وذلك أن الناس سألوه عن أبي بكر وعمر وعثمان، فغضب لذلك وقال: قد تفرغتم للسؤال عما لا يعينكم وهذه مصرٌ قد افتتحت وقتل معاوية بن خديج محمد بن أبي بكر، فيا لها من مصيبة ما أعظمها مصيبتني بمحمد ، فوالله ما كان إلا كبعض بنيّ. سبحان الله ، بينا نحن نرجو أن نغلب القوم على ما في أيديهم ، إذ غلبونا على ما في أيدينا ، وأنا أكتب لكم كتاباً فيه تصريح ما سألتهم إن شاء الله تعالى .

فدعا كاتبه عبيد الله بن أبي رافع فقال له: أدخل عليّ عشرةً من ثقاتي، فقال: سمّهم يا أمير المؤمنين ، فقال: أدخل أصبغ بن نباتة ، وأبا الطفيل عامر بن واثلة الكناني ، وزر بن حبيش الأسدي ، وجويرية بن مسهر العبدي ، وخندف بن زهير الأسدي ، وحارثة بن مضرب الهمداني ، والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني ، ومصايح النخعي ، وعلقمة ابن قيس ، وكميل بن زياد ، وعمير بن زرارة ، فدخلوا إليه فقال لهم: خذوا هذا الكتاب وليقرأه عبيد الله بن أبي رافع وأنتم شهود ، كل يوم جمعة ، فإن شغب شاغب عليكم فأنصفوه بكتاب الله بينكم وبينه .

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله علي أمير المؤمنين ، إلى شيعته من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد فإن الله يقول: **وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ**، وهو إسم شرفه الله تعالى في الكتاب ، وأنتم شيعة النبي محمد صلى الله عليه وآله كما أنه من شيعة إبراهيم ، إسم غير مختص وأمر غير مبتدع ، وسلام الله عليكم ، والله هو السلام ، المؤمن أولياءه من العذاب المهين ، الحاكم عليكم بعدله..» .
الى آخر المشور وهو طويل ، وفيه موقفه عليه السلام من الخلافة وما حدث بعد النبي صلى الله عليه وآله .
ورواه الثقفى في الغارات: ٣٠٢ / ١ ، وابن طاووس في كشف المحجة / ١٧٣ ، وآخرون .

حزن أسماء على ابنها وعائشة على أخيها محمد

قال الثقفى في الغارات: ٢٨٥ / ١: «فلما بلغ ذلك عائشة أم المؤمنين جزعت عليه جزعاً شديداً ، وقتت في دبر كل صلاة تدعو على معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج ، وقبضت عيال محمد أخيها وولده إليها ، فكان القاسم بن محمد بن أبي بكر في عيالها... عن أبي إسحاق: أن أسماء بنت عميس لما أتتها نعي محمد بن أبي بكر وما صنع به كظمت حزنها ، وقامت إلى مسجدها حتى تشخبت دماً». وفي رواية تشخب ثديها دماً .
وفي الغارات: ٧٥٦ / ٢: (ولما سمعت أمه أسماء بنت عميس بقتله كظمت الغيظ حتى شخبت ثديها دماً . **وَوَجَدَ (حزن) عليه علي بن أبي طالب عليه السلام وجداً عظيماً** وقال: كان لي ربيباً ، وكنت أعده ولداً ، ولبني أخاً» .

وفي مقابل حزن أسماء بنت عميس على ابنها ، وحزن عائشة على أخيها ، كانت فرحة ضررتها أم حبيبة «أم المؤمنين» بنت أبي سفيان أخت معاوية ، فقد ابتكرت بكيدها أسلوباً للشهامة بمقتل محمد !

ففي الغارات للثقيفي: ٧٥٧/٢: «لما قتل ووصل خبره إلى المدينة مع مولاه سالم ومعه قميصه ، ودخل به داره اجتمع رجال ونساء ! فأمرت أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم بكبش فشوي ، وبعثت به إلى عائشة وقالت: هكذا قد شوي أخوك ! فلم تأكل عائشة بعد ذلك شواء حتى ماتت!» (وروى نحوه البلاذري في أنساب الأشراف/ ٤ ، ورواه الدميري في الحيوان: ٤٠٤/١).

وفي الغارات: ٢٨٧/١: «حلفت عائشة لا تأكل شواء أبداً ، فما أكلت شواء بعد مقتل محمد حتى لحقت بالله ! وما عثرت قط إلا قالت: تعس معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج».

لكن عائشة مع ذلك لم تُحرض على معاوية ، كما فعلت مع عثمان !
ففي سير الذهبي: ١٨٦/٢: «إن معاوية لما حج قدم فدخل على عائشة ، فلم يشهد كلامها إلا ذكوان مولى عائشة فقالت لمعاوية: أأمنت أن أخبئ لك رجلاً يقتلك بأخي محمد؟ قال: صدقت!» والطبري: ٢٠٥/٤.

الفصل الثالث: أخبار مصر في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام ١٥٣

وفي شرح الأخبار: ١٧١ / ٢، قال معاوية: « لا أخاف ذلك لأني في دار أمان ، لكن كيف أنا في حوائجك؟! قالت: صالح . قال: فدعيني وإياهم حتى نلتقي عند الله ». ومعناه: أنه أرضاها بالمال فسكتت !

وكذلك سكت عبد الرحمن بن أبي بكر عن أخذ ثأر أخيه سكوتاً ذليلاً ، فقد كان في جيش عمرو العاص ، واعترض على قتل أخيه محمد ، لكن ابن حديج أصر عليه لأنهم قتلوا كنانة بن بشر ، وهو كندي من قبيلته ! فسكت عبد الرحمن ولم يقل شيئاً !

وكذلك سكت بنو تميم عن الأخذ بثأر محمد بن أبي بكر من بني أمية . مع أن القبائل لا تسكت عادة عن ثأر ابنها ، وحتى عن ثأر حليفها وغلामها !

معاوية خال المؤمنين ومحمد بن أبي بكر ليس خالهم !

قال إمام المعتزلة أبو جعفر الإسكافي في كتابه المعيار والموازنة/ ٢١: « وأبين من هذا في جهل الأنعام الضالة والحمر المستنفرة ، أن عائشة عندهم في أزواج النبي صلى الله عليه وآله أفضل من بنت أبي سفيان وأكثر في الشهرة والمعرفة ، فإذا ذكر معاوية بسوء غضبوا وأنكروا ولعنوا، وعلتهم أنه خال المؤمنين ! وإذا ذكر محمد بن أبي بكر بسوء رضوا وأمسكوا ومالوا مع ذاكره ، وخوئولته ظاهرة بائنة .

وقد نفرت قلوبهم من علي بن أبي طالب ، لأنه حارب معاوية وقاتله
وسكنت قلوبهم عند قتل معاوية عماراً ومحمد بن أبي بكر ، وله حرمة
الخوالة ، وهو أفضل من معاوية ، وأبوه خير من أبي معاوية .

فتدبروا فيما ذكرناه ، لتعلموا أن علة القوم الخديعة والجهالة ، وإلا فما بالهم
لا يستنكرون قتل محمد بن أبي بكر، ولا يذكرون خوولته للمؤمنين ؟ قاتلهم
الله أنى يؤفكون .

وقد مالوا عن إمامة علي بن أبي طالب وضعفوها، وبعضهم نفاها بما كان
من خلاف عائشة وطلحة والزبير ، وقعود ابن عمر ومحمد بن مسلمة
وأسامة بن زيد ، وهؤلاء النفر الذين أوجبوا الشك في علي عندهم
وضعفوا إمامته بقولهم ، هم الذين طعنوا على عثمان وألبوا عليه وذكروه
بالتبديل والإستيثار ، وأولهم بادرةً عليه عائشة ، كانت تخرج إليه قميص
رسول الله صلى الله عليه وآله وهو على المنبر وتقول: يا عثمان هذا قميص رسول الله لم يبل
وقد أبليت سنته !

فوالله ما قدح الشك في قلوبهم في عثمان بقولهم ، ولا قصرنا عن تفصيله
وتقديمه بطعنهم ، ولا أثر ذلك في صدورهم...!

وكيف تمت بيعة أبي بكر عندكم بأبي عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب ،
مع خلاف سعد وامتناعه من البيعة ، وخلاف الأنصار ، وأبو بكر الساعي

إليها والداعي لها؟! ولم تتم بيعة علي بن أبي طالب بالمهاجرين والأنصار والسابقين إلى الإيمان ، وهم الطالبون له والمجتمعون عليه ، وليس له نظير في زمانه يشاكله ويعادله .

أفّ لهذا من مقال ، ما أبين تناقضه وأقل حياء الدائن به «!

وقال الكراجكي في كتابه: التعجب من أغلاط العامة / ١٠٤: (ومن عجيب أمر الحشوية ووقاحتهم في العناد والعصبية ، أنهم يقولون: إن معاوية بن أبي سفيان خال المؤمنين... فلم لا يسمون محمد بن أبي بكر خال المؤمنين ، ويكون أحق بذلك من معاوية بن أبي سفيان... وكيف يجب أن تحفظ أم حبيبة في أخيها معاوية ، ولم يجب أن تحفظ عائشة في أخيها محمد «!؟

وقال ابن كثير في تفسيره: ٣/ ٤٧٧: (وهل يقال لمعاوية وأمثاله: خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء ، ونص الشافعي على أنه لا يقال ذلك .

وهل يقال لهن أمهات المؤمنات فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليباً؟ فيه قولان ، صح عن عائشة أنها قالت لا يقال ذلك ، وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي «.

لم يتهنأ ابن العاص بملك مصر!

وفي تاريخ دمشق: ٤٩/٤٢٧: «وقدم عمرو بن العاص على معاوية بعد فتحه مصر فعمل معاوية طعاماً فبدأ بعمرو وأهل مصر فغداهم ، ثم خرج أهل مصر واحتبس عمرواً عنده ، ثم أدخل أهل الشام فتغدوا ، فلما فرغوا من الغداء قالوا: يا أبا عبد الله بايع! قال: نعم ، على أن لي عُشراً ، يعني مصر! فبايعه على أن له ولاية مصر ما كان حياً . فبلغ ذلك علياً فقال ما قال .»
يقصد قول أمير المؤمنين عليه السلام: « كَرَّ على العاصي بن العاصي فاستماله فمال إليه ، ثم أقبل به بعد أن أطعمه مصر! وحرامٌ عليه أن يأخذ من الفئء دون قَسَمه درهماً . (الخصال/٣٧٨) .

أو قوله: « إنه لم يبايع معاوية حتى شرط له أن يؤتیه أُنْيَّة ، ويرضخ له على ترك الدين رضىخة »! (نهج البلاغة: ١/١٤٨) .

وفي تاريخ اليعقوبي: ٢/٢٢١: «وكانت مصر والمغرب لعمرو بن العاص طُعْمَةً شرطها له يوم بايع! ونسخة الشرط: هذا ما أعطى معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص ، مصرَ ، أعطاه أهلها ، فهم له حياته!»

أقول: لاحظ أن معاوية يرى مصرأ وشعبها ملك له ، فيهبها لابن العاص! والحمد لله أن ابن العاص كان في آخر عمره ، فلم يتمتع بحكم مصر ووارداتها ، إلا ستين وكسراً!

روى الحاكم: ٤٥٢ / ٣: «لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة قال: كيلوا مالي، فكالوه فوجدوه اثنين وخمسين مُدًّا ، فقال: من يأخذه بما فيه ، يا ليته كان بعراً! قال: وكان المد ستة عشر أوقية والأوقية منه مكوكان. ومات عمرو بن العاص يوم الفطر وقد بلغ أربعاً وتسعين سنة .»

ونقل الرواة عن عمرو حالة صحو وجرأة اعترف فيها بالحق على نفسه ! ففي تاريخ عمرو بن العاص للدكتور حسن إبراهيم / ٢٧٠: «قال عمرو بن العاص: أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحق! يُعَرِّض بعلي ومعاوية ! فقال معاوية: بل أعجب الأشياء أن يعطى الإنسان ما لا يستحق . يعرض بعمرو ومصر التي أخذها له طُعْمَةٌ !»

وفي الإستيعاب لابن عبد البر: ٣ / ١١٩٠ ، عن الشافعي قال: « دخل ابن عباس على عمرو بن العاص في مرضه فسلم عليه وقال: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: أصلحت من دنيائي قليلاً وأفسدت من ديني كثيراً! فلو كان الذي أصلحت هو الذي أفسدت والذي أفسدت هو الذي أصلحت لفُزْتُ. ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت ولو كان ينجيني أن أهرب هربت ، فصررت كالمنجنيق بين السماء والأرض ، لا أرقى بيدين ولا أهبط برجلين! »
وهكذا اعترف بأنه أفسد دينه بالظلم والقتل والمعاصي ، لكنه اعترف بعد فوات الأوان ! فمعاصيه تركت بصماتها على تاريخ المسلمين وعقائدهم !

وروى أحمد في مسنده: ٢٠٠ / ٤ ، وصححه الهيثمي في الزوائد: ٣٥٣ / ٩ : « جزع عمرو بن العاص عند الموت جزعاً شديداً ، فلما رأى ذلك ابنه عبد الله بن عمرو قال: يا أبا عبد الله ما هذا الجزع وقد كان رسول الله يدنيك ويستعملك ؟ قال: أي بنيّ قد كان ذلك وسأخبرك عن ذلك: إني والله ما أدري أحباً ذلك كان أم تالفاً يتألفني ! ولكن أشهد على رجلين أنه قد فارق الدنيا وهو يجبهما: ابن سمية وابن أم عبد .»

ومعناه أنه أحس أن النبي صلى الله عليه وآله كان يعُدُّه من المؤلفعة قلوبهم ، لا من المؤمنين !



شخصية محمد بن أبي حذيفة رضي الله عنه

١. هو محمد ، بن أبي حذيفة ، بن عتبة ، بن ربيعة ، بن عبد شمس . وجده عتبة زعيم بني أمية ، وكان من أشد المشركين على النبي صلى الله عليه وآله ، ومع ذلك كان أعقلهم ، يفكر في حل وسط بين قريش والنبي صلى الله عليه وآله فعرض عليه يوماً أن يعبدوا ربه يوماً ويعبد أصنامهم يوماً ! فأنزل الله تعالى : **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ .**

وكانوا يوماً في دار الندوة (ابن هشام: ١/ ١٩٠) فعرض عليهم عتبة أن يكلم النبي صلى الله عليه وآله لعله يتوصل معه الى حل ، فذهب اليه وكلمه فقرأ عليه النبي صلى الله عليه وآله سورة السجدة فذهل عتبة: « فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ! والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، خَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا: سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه ! قال: هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم » !

وكان عتبة أبرز قادة المشركين في بدر ، فقال النبي ﷺ عنه (ابن هشام: ٤٥٣/٢):
«إن يكن في أحد من القوم خير ، فعند صاحب الجمل الأحمر ، فإن يطيعوه
يرشدوا» !

ولما رأوا عزم النبي ﷺ على القتال قال له حكيم بن حزام: «يا أبا الوليد إنك
كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير
إلى آخر الدهر؟ فقال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: تُرجع الناس ، وتحمل أمر
حليفك عمرو بن الحضرمي (الذي كان قتله جيش النبي ﷺ) قال: قد فعلت ،
أنت عليّ بذلك ، إنما هو حليفي فعليّ عقله وما أصيب من ماله ، فأت ابن
الحنظلية ، قال ابن هشام: والحنظلية أم أبي جهل..فإني لا أخشى أن يشجر
أمر الناس غيره.. ثم قام عتبة خطيباً ، فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما
تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل
ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من
عشيرته ، فارجعوا واخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك
الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك أفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون... فقال:
انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى
يحكم الله بيننا وبين محمد ! وما بعتبة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمداً
وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه قد تخوفكم عليه». (ابن هشام: ٤٥٤/٢).

يقصد أبو جهل أن عتبة انتفخت أوداجه وجُبِنَ، وخاف أن يقتلوا ابنه أبا حذيفة وكان مع المسلمين ! فأثاره أبو جهل بذلك فكان أول المبارزين هو وأخوه شيبه وابنه الوليد، فقتلهم الله بيد علي وحمزة وعبيدة بن عبد المطلب.

«ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بهم أن يلقوا في القليب ، أخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، فنظر رسول الله فيما بلغني في وجه أبي حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير لونه ، فقال: يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أهلك شيء؟ أو كما قال صلى الله عليه وآله. فقال: لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنتني ذلك . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله بخير ، وقال له خيراً » . (ابن هشام: ٤٦٨ / ٢) .

٢. أسلم أبو حذيفة بن عتبة ، وهاجر الى الحبشة مع زوجته سهلة بنت سهيل

بن عمرو ورئيس بني سهم ، وولد ابنه محمد في الحبشة . وتزوج أبو حذيفة امرأة أنصارية تسمى ثبيته بنت يعار ، ثم طلقها وكان لها غلام فارسي هو سالم مولى أبي حذيفة ، فأعتقته ، فتبناه أبو حذيفة وزوجه بنت أخيه الوليد بن عتبة .

واشتهر سالم من صغره بذكائه ودهائه ، فأعجب به عمر وأبو بكر وكان يصلي بهم على صغر سنه لأنه يحفظ القرآن: « وروى البخاري من حديث ابن عمر: كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين الأولين في مسجد قباء ، فيهم أبو بكر وعمر ». (الإصابة: ١٢/٣).

ثم كان سالم وأبو عبيدة شريكي الشيخين في عملهم لأخذ الخلافة وكانهم اتفقوا على التناوب عليها ! قال في تاريخ المدينة: ١٤٠/٣: « لما طعن عمر قيل له: لو استخلفت؟ قال: لو شهدني أحد رجلين استخلفته أني قد اجتهدت ولم آثم أو وضعتها موضعها: أبو عبيدة بن الجراح، وسالم مولى أبي حذيفة». وسالم فارسي ، لا عربي ولا قرشي.

وقد اشترك أبو حذيفة وسالم مولاه في حرب مسيلمة الكذاب ، التي عرفت بحرب اليمامة ، واستشهدا معاً فيها .

وقد اشتهر سالم بأنه رضع وهو كبير من سهلة زوجة أبي حذيفة ليحرم عليها، ولم يُروَ ذلك عن سالم ولا عن سهلة مباشرة ، بل زعمت عائشة أن النبي ﷺ أجاز لسهلة ذلك ، وتحججت به عائشة فأرضعت بضعة رجال من أختها وزوجة أخيها ليحرموا عليها ، واستنكر ذلك نساء النبي ﷺ ! وقد روى عبد الرزاق في مصنفه: ٤٥٨/٧ نحو خمسين رواية في باب رضاع الكبير ، وفيها استنكار المسلمين لعمل عائشة ، وأسماء بعض من أرضعتهم ليحرموا عليها ويدخلوا عليها !

٣. عندما استشهد أبوه ، كان محمد بن أبي حذيفة شاباً دون العشرين ، ويظهر أنه

عاش بعيداً عن أمه سهلة ، ففي الإصابة: ١٩٣/٨: « ثم تزوجت شماخ بن سعيد بن قائف بن الأوقص السلمي ، فولدت له عامراً ، ثم تزوجت عبد الله بن الأسود بن عمرو من بني مالك بن حسل فولدت له سليطاً ، ثم تزوجت عبد الرحمن بن عوف فولدت له سالماً ، فهم إخوة محمد بن أبي حذيفة لأمه » .

وقد شارك محمد في فتوح الشام ، وذات يوم ركب سفينة مع كعب الأحبار الذي كان المفتي لعمر و عثمان ، وكان يرافق جيش الفتح أحياناً إلى المناطق الآمنة ويزعم أنه يعرف المغيبات ويحدثهم بها ! فكان محمد بن أبي حذيفة عليه السلام يسخر منه ومن علمه المزعوم ! قال عمر ابن شبة في تاريخ المدينة: ١١١٧/٣: « عن محمد بن سيرين قال: ركب كعب الأحبار ومحمد بن أبي حذيفة في سفينة قبّل الشام ، زمن عثمان في غزوة غزاها المسلمون ، فقال محمد لكعب: كيف تجد نعت سفينتنا هذه في التوراة تجري غداً في البحر! فقال كعب: يا محمد لا تسخر بالتوراة فإن التوراة كتاب الله . قال: ثم قال له (محمد) ذاك ثلاث مرات ! وهذا يشير الى أن محمداً كان شيعياً ، لا يقبل علم كعب ، حاخام الحكومة .

وكان محمد عليه السلام يجيد القرآن ، فقد وصفت رواية البيهقي (٢٢٥/٣) خطبته يوم الجمعة في مصر ، فقالت: « خرج محمد بن أبي حذيفة فاستوى على المنبر فخطب وقرأ سورة ، وكان من أقرأ الناس » .

٤. تمكن معاوية من القبض على ابن خاله محمد بن أبي حذيفة ، وقتله . وأشاع

روايات متضاربة في قتله ، ليبعد التهمة عن نفسه ، فلا ننس أن آل عتبة بن ربيعة الذين منهم محمد ، أشرف في الحساب القبلي من آل حرب الذين منهم معاوية . وأن آل حرب الذين منهم معاوية أشرف من آل العاص الذين منهم عثمان !

لذا اهتم معاوية أن يبعد عن نفسه قتل ابن خاله لئلا يكون لآل عتبة ثأر عنده ، فصرت تجد روايات متضاربة في مقتل محمد رضي الله عنه ، كرواية أنه هرب من السجن فلحقه غلام لمعاوية بحوارين قرب حمص وقتله دون علم معاوية ! مع أن الغلام والجندي لا يجراً على قتل شخص من الأسرة الحاكمة بدون أمر الحاكم .

وتجد رواية أخرى أن مالك بن هبيرة الكندي ، الذي توسط عند معاوية لحجر بن عدي الكندي فلم يقبل وساطته وقتل حَجراً ، ف غضب وقتل محمد بن أبي حذيفة ثأراً بحجر .. وتجد رواية ثالثة ، ورابعة !

قال الطبري: ٥٤٨/٣: «وفي هذه السنة أعني سنة ٣٦ قتل محمد بن أبي حذيفة، وكان سبب قتله أنه لما خرج المصريون إلى عثمان مع محمد بن أبي بكر، أقام بمصر، وأخرج عنها عبد الله بن سعد بن أبي سرح وضبطها، فلم يزل بها مقيماً حتى قتل عثمان وبويع لعلي .

وأظهر معاوية الخلف وبايعه على ذلك عمرو بن العاص ، فسار معاوية وعمرو إلى محمد بن أبي حذيفة قبل قدوم قيس بن سعد مصر فعالجا دخول مصر فلم يقدر على ذلك ، فلم يزالا يخذعان محمد بن أبي حذيفة حتى خرج إلى عريش مصر في ألف رجل فتحصن بها ، وجاءه عمرو فنصب المنجنيق عليه حتى نزل في ثلاثين من أصحابه وأخذوا وقتلوا رحمهم الله !» وفي الإصابة: ١١/٦: « ذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن علياً لما ولي الخلافة أقر محمد بن أبي حذيفة على إمرة مصر ، ثم ولاها محمد بن أبي بكر . واختلّف في وفاته ، فقال ابن قتيبة: قتله رُشد بن مولى معاوية . وقال ابن الكلبي: قتله مالك بن هبيرة السكوني .»

وقال الطبري في: ٨٠/٤: « اختلّف أهل السير في وقت مقتله ، فقال الواقدي: قتل في سنة ٣٦ ، وذكر خبر تحصنه في العريش ثم قال: وأما هشام بن محمد الكلبي فإنه ذكر أن محمد بن أبي حذيفة إنما أخذ بعد أن قتل محمد بن أبي بكر ، ودخل عمرو بن العاص مصر وغلب عليها ، وزعم أن عمراً لما دخل هو وأصحابه مصر أصابوا محمد بن أبي حذيفة ، فبعثوا به إلى معاوية وهو بفلسطين فحبسه في سجن له ، فمكث فيه غير كثير ، ثم إنه هرب من السجن ، وكان ابن خال معاوية فأرى معاوية الناس أنه قد كره انفلاته فقال لأهل الشام: من يطلبه ؟ قال: وقد كان معاوية يحب فيما يرون أن

ينجو. فقال رجل من خثعم يقال له عبد الله بن عمرو بن ظلام وكان رجلاً شجاعاً وكان عثمانياً: أنا أطلبه ، فخرج في حاله حتى لحقه بأرض البلقاء بحوران ، وقد دخل في غار هناك ، فجاءت حمر تدخله وقد أصابها المطر ، فلما رأت الحمر الرجل في الغار فزعت فنفرت ، فقال حصادون كانوا قريباً من الغار: والله إن لنفر هذه الحمر من الغار لشأناً ، فذهبوا لينظروا فإذا هم به ، فخرجوا ويوافقهم عبد الله بن عمرو بن ظلام الخثعمي فسألهم عنه ووصفه لهم ، فقالوا له: ها هوذا في الغار ، فجاء حتى استخرجه ، وكره أن يرجعه إلى معاوية فيخلى سبيله ، فضرب عنقه .

وروا أنه فرَّ مع أصحابه من السجن فلحقه جند معاوية وقتلوه في فلسطين ! ففي تاريخ دمشق: ٢٧٢/٥٢: « كان رجال من أصحاب النبي يحدثون أن رسول الله ﷺ قال: يقتل في جبل الجليل والقطران من أصحابي أو من أمتي ناس ، فكان أولئك النفر الذين قتلوا مع محمد بن أبي حذيفة وأصحابه ، بجبل الجليل والقطران هناك . »

وروى البلاذري في أنساب الأشراف: ٤٠٧/٢ ، عدة أقوال في شهادته ﷺ قال: «ويقال أيضاً: إن ابن أبي حذيفة تواري فطلبه عمرو بن العاص حتى قدر عليه وحمله إلى معاوية فحبسه ، ثم هرب من حبسه فلحق فقتل... عن الليث بن سعد قال: بلغنا أن محمد بن أبي حذيفة لما ولي قيس بن سعد ،

شَخَصَ عن مصر يريد المدينة أو يريد علياً ، وبلغ معاوية خبر شخوصه
فوضع عليه الأرصاء حتى أخذ وحمل إليه فحبسه ، فتخلص من الحبس ،
واتبعه رجل من اليمانية فقتله...

عن صالح بن كيسان قال: لما اجتمع أمر معاوية وعمرو بن العاص بعد الجمل وقبل صفين ، سار عمرو في جيش إلى مصر ، فلما قرب منها لقيه محمد بن أبي حذيفة في الناس ، فلما رأى عمرو كثرة من معه أرسل إليه فالتقيا واجتمعا فقال له عمرو: إنه قد كان ما ترى وقد بايعت هذا الرجل وتابعته ، وما أنا راض بكثير من أمره ولكن له سناً ، وإني لأعلم أن صاحبك علياً أفضل من معاوية نفساً وقدماً وأولى بهذا الأمر ، ولكن واعدني موعداً ألتقي أنا وأنت فيه على مهل في غير جيش ، تأتي في مائة راكب ليس معهم إلا السيوف في القرب وآتي في مثلهم . فتعاقدا وتعاهدا على ذلك ، واتعدا العريش لوقت جعلاه بينهما ، ثم تفرقا ورجع عمرو إلى معاوية فأخبره الخبر ، فلما حل الأجل ، سار كل واحد منهما إلى صاحبه في مائة راكب ، وجعل عمرو له جيشاً خلفه ، وكان ابن أبي حذيفة يتقدمه فينطوي خبره . فلما التقيا بالعريش قدم جيش عمرو على أثره ، فعلم محمد أنه قد غدر به ، فانحاز إلى قصر بالعريش فتحصن فيه فرماه عمرو بالمنجنيق حتى أخذه أخذاً ، فبعث به عمرو إلى معاوية فسجنه عنده ، وكانت ابنة

قرظة امرأة معاوية ابنة عممة محمد بن أبي حذيفة ، أمها فاطمة بنت عتبة بن ربيعة، تصنع له طعاماً وترسل به إليه وهو في السجن ، فلما سار معاوية إلى صفين أرسلت ابنة قرظة بشيء فيه مساحل من حديد إلى ابن أبي حذيفة فقطع بها الحديد عنه ، ثم جاء فاخْتَبَأَ في مغارة بجبل الذيب بفلسطين ، فُدِّلَ عليه رشدين مولى أبي حذيفة أبيه ، وكان معاوية خَلَفَهُ على فلسطين فأخذه فقال له محمد: أنشدك الله لما خَلَّيت سبيلي ، فقال له: أخلي سبيلك فتذهب إلى ابن أبي طالب وتقاتل معه ابن عمك وابن عمك معاوية ، وقد كنت فيمن شايع علياً على قتل عثمان ، فقدمه فضرب عنقه .

وقال المدائني: وقد قيل إن محمد بن أبي حذيفة كان في جيش محمد بن أبي بكر ، فأخذ وبعث به إلى معاوية . والله أعلم .

وقوم يقولون: أن ابن أبي حذيفة حين أخذ لم يزل في حبس معاوية إلى بعد مقتل حجر بن عدي ، ثم إنه هرب فطلبه مالك بن هبيرة بن خالد الكندي ثم السكوني ، ووضع الأرصاء عليه فلما ظفر به قتله غضباً لحجر .

أقول: هكذا أبعد معاوية دم ابن خاله عن نفسه ، بروايات متناقضة! وتقدم أنا نرجح أنه توجه الى المدينة قبل صفين ليلتحق بأمر المؤمنين عليهم السلام مع عدد قليل من أصحابه ، قبل صفين وقبل وصول قيس بعد سعد بن عبادة والياً عليها لأن قيساً كان وقت حرب الجمل في مصر ، فتمكن معاوية

الفصل الثالث: أخبار مصر في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام ١٦٩

من القبض على محمد وأصحابه في الطريق ، وحبسهم في دمشق ، حتى احتال عليهم وقتلهم !

وتقدم في رواية البلاذري: « فلما ولي قيس بن سعد ، شَخَصَ عن مصر- يريد المدينة أو يريد علياً ، وبلغ معاوية خبر شخوصه فوضع عليه الأرصاء حتى أخذ وحمل إليه فحبسه ».

ويؤيده ما رواه الكشي: ٢٨٦/١: « عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إن المحامدة تأتي أن يعصى- الله عز وجل. قلت: ومن المحامدة؟ قال محمد بن جعفر ، ومحمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة ، ومحمد بن أمير المؤمنين .

أما محمد بن أبي حذيفة هو ابن عتبة بن ربيعة وهو ابن خال معاوية أخبرني بعض رواة العامة عن محمد بن إسحاق قال: حدثني رجل من أهل الشام قال: كان محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة مع علي بن أبي طالب ومن أنصاره وأشياعه ، وكان ابن خال معاوية ، وكان رجلاً من خيار المسلمين ، فما توفي علي عليه السلام أخذه معاوية وأراد قتله فحبسه في السجن دهرًا ، ثم قال معاوية ذات يوم: ألا نرسل إلى هذا السفية محمد بن أبي حذيفة فنبكته ونخبره بضلاله ، ونأمره أن يقوم فيسب علياً؟ قالوا: نعم .

فبعث إليه معاوية فأخرجه من السجن ، فقال له معاوية: يا محمد بن أبي حذيفة ألم يَأَنَّ لك أن تبصر ما كنت عليه من الضلالة بنصرتك علي بن أبي طالب الكذاب . ألم تعلم أن عثمان قتل مظلوماً ، وأن عائشة وطلحة والزبير خرجوا يطلبون بدمه ، وأن علياً هو الذي دس في قتله ، ونحن اليوم نطلب بدمه ؟

قال محمد بن أبي حذيفة: إنك لتعلم أني أمسُّ القوم بك رحماً ، وأعرفهم بك ؟ قال: أجل . قال فوالله الذي لا إله غيره ، ما أعلم أحداً شرك في دم عثمان ، وألَّب الناس عليه غيرك ، لما استعملك ومن كان مثلك ، فسأله المهاجرون والأنصار أن يعز لك فأبى ، ففعلوا به ما بلغك !

ووالله ما أحد اشترك في قتله بدءً وأخيراً إلا طلحة والزبير وعائشة ، فهم الذين شهدوا عليه بالعظيمة وألبوا عليه الناس ، وشركهم في ذلك عبد الرحمن بن عوف ، وابن مسعود ، وعمار ، والأنصار جميعاً .

قال: قد كان ذلك . قال: فوالله إني لأشهد أنك مذ عرفتك في الجاهلية والإسلام لعلى خلق واحد ، ما زاد فيك الإسلام قليلاً ولا كثيراً ، وإن علامة ذاك فيك لبينة !

تلومني على حب علي! خرج مع علي كل صوام قوام مهاجري وأنصاري ، وخرج معك أبناء المنافقين والطلقاء والعتقاء ، خدعتهم عن دينهم

الفصل الثالث: أخبار مصر في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام ١٧١

وخذعوك عن دنياك ، والله ما خفي عليك ما صنعت ، وما خفي عليهم ما صنعوا إذ أحلوا أنفسهم لسخط الله في طاعتك !
والله لا أزال أحب علياً لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وأبغضك في الله ورسوله ، أبداً ما بقيت ! قال معاوية: وإني أراك على ضلالك بعد . ردوه ، فردوه وهو يقرأ:
قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .

وقد انفردت هذه الرواية بأن محمداً رضي الله عنه ، بقي في سجن معاوية الى ما بعد شهادة أمير المؤمنين علي عليه السلام .



ولاية مالك الأشتر على مصر

روى الثقفي في الغارات (٢٥٤ / ١) عن المدائني قال: «فلم يلبث ابن أبي بكر شهراً كاملاً حتى بعث إلى أولئك المعتزلين، الذين كان قيس بن سعد موادعاً لهم، فقال: يا هؤلاء إما أن تدخلوا في طاعتنا، وإما أن تخرجوا من بلادنا . فبعثوا إليه: إنا لا نفعل فدعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس فلا تعجل حربنا، فأبى عليهم، فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم .

ثم كانت وقعة صفين وهم لمحمد هائبون، فلما أتاهم خبر معاوية وأهل الشام وصارت أمورهم إلى الحكومة، وأن علياً وأهل العراق قد رجعوا عن معاوية وأهل الشام إلى عراقهم، اجترؤوا على محمد بن أبي بكر وأظهروا المناذرة له، فلما رأى ذلك محمد بعث ابن جهمان البلوي إليهم، وفيهم يزيد بن الحارث من بني كنانة فقاتلهم فقتلوه، ثم بعث إليهم رجلاً من كلب فقتلوه أيضاً .

وخرج معاوية بن حديج السكسكي فدعا إلى الطلب بدم عثمان، فأجابه ناس كثير آخرون، وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر، فبلغ علياً توثبهم عليه فقال: ما لمصر إلا أحد الرجلين: صاحبنا الذي عزلناه عنها بالأمس يعني قيس بن سعد، أو مالك بن الحارث .

وكان علي عليه السلام حين رجع عن صفين قد رد الأشر إلى عمله بالجزيرة، وقال لقيس بن سعد: أقم أنت معي على شرطتي حتى نفرغ من أمر هذه الحكومة ، ثم اخرج إلى أذربيجان ، فكان قيس مقيماً على شرطته . فلما انقضى أمر الحكومة كتب علي إلى مالك الأشر وهو يومئذ بنصيبين :
أما بعد فإنك ممن أستظهر به على إقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأثيم ، وأسدُّ به الثغر المخوف ، وقد كنت وليت محمد بن أبي بكر مصر ، فخرجت عليه خوارج وهو غلام حدث السن ، ليس بذئ تجرّبة للحروب ولا مجرباً للأشياء ، فأقدم عليّ لنظر فيما ينبغي ، واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك . والسلام .

فأقبل مالك إلى علي عليه السلام واستخلف على عمله شبيب بن عامر الأزدي ، وهو جد الكرمانى الذي كان بخراسان صاحب نصر بن سيار ، فلما دخل مالك على علي عليه السلام حدثه حديث مصر ، وخبره خبر أهلها وقال: ليس لها غيرك فاخرج إليها رحمك الله ، فإنى إن لم أوصك اكتفيت برأيك ، واستعن بالله على ما أهمك . أخلط الشدة باللين ، وارفق ما كان الرفق أبلغ ، واعتزم على الشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة .»

أقول: لا يصح عندنا أن الإمام عليه السلام ندم على عزله قيساً ، وأنه كان يفكر بتوليته مصر مرة ثانية .

هذا ، وقد كتب الإمام عليه السلام عهداً لمالك الأشر ، يعتبر برنامج عمل للحاكم ، وكتب معه رسالة الى أهل مصر:

رسالة الإمام عليه السلام الى أهل مصر لما أراد معاوية غزوها

(من كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر لما ولي عليهم الأشر رضي الله عنه: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين، إلى القوم الذين غضبوا لله حين عصى- في أرضه وذُهب بحقه ، فضرب الجور سراقه على البر والفاجر ، والمقيم والظاعن ، فلا معروف يستراح إليه ، ولا منكر يتناهى عنه .

أما بعد فإنني قد بعثت إليكم عبداً من عباد الله ، لا ينام أيام الخوف ، ولا ينكل عن الأعداء حذر الدوائر . لا ناكل من قدم ، ولا واهٍ في عزم ، من أشد عباد الله بأساً ، وأكرمهم حسباً ، أضر على الفجار من حريق النار ، وأبعد الناس من دنس أو عار ، وهو مالك بن الحارث الأشر ، حسام صارم ، لا نابي الضريبة ، ولا كليل الحد . حلیم في السلم، رزين في الحرب، ذو رأى أصيل ، وصبر جميل .

فاسمعوا له وأطيعوا أمره ، فإن أمركم بالنفر فانفروا ، وإن أمركم أن تقيموا فأقيموا ، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمرى .

الفصل الثالث: أخبار مصر في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام ١٧٥

وقد آثرتكم به على نفسي نصيحة لكم وشدة شكيمة على عدوكم، عصمكم الله بالهدى، وثبتكم بالتقوى، ووقفنا وإياكم لما يحب ويرضى. والسلام عليكم ورحمة الله». (نهج البلاغة: ٦٣/٣، والإختصاص/ ٨٠).

وقال ابن أبي الحديد في شرحه: ١٥٦/١٦: « هذا الفصل يُشكل عليّ تأويله لأن أهل مصر هم الذين قتلوا عثمان ، وإذا شهد أمير المؤمنين عليه السلام أنهم غضبوا الله حين عصي في الأرض ، فهذه شهادة قاطعة على عثمان بالعصيان وإتيان المنكر !

ويمكن أن يقال وإن كان متعسفاً: إن الله تعالى عُصي في الأرض لامن عثمان بل من ولاته وأمرائه وأهله ، وذهب بينهم بحق الله وضرب الجور سرادقه بولايتهم ، وأمرهم على البر والفاجر ، والمقيم والظاعن ، فشاع المنكر ، وفقد المعروف .

يبقى أن يقال: هب أن الأمر كما تأولت ، فهو لاء الذين غضبوا الله إلى ماذا آل أمرهم ، أليس الأمر آل إلى أنهم قطعوا المسافة من مصر إلى المدينة فقتلوا عثمان ! فلا تعدو حالهم أمرين ، إما أن يكونوا أطاعوا الله بقتله فيكون عثمان عاصياً مستحقاً للقتل ، أو يكونوا أسخطوا الله تعالى بقتله ، فعثمان إذا على حق وهم الفساق العصاة .

فكيف يجوز أن يبجلهم أو يخاطبهم خطاب الصالحين !

يمكن أن يجاب عن ذلك بأنهم غضبوا لله وجاءوا من مصر وأنكروا على عثمان تأميره الأمراء الفساق ، وحصروه في داره طلباً أن يدفع إليهم مروان ليحبسوه ، أو يؤذبه على ما كتبه في أمرهم ، فلما حُصر طمع فيه مبغضوه وأعداؤه من أهل المدينة وغيرها ، وصار معظم الناس إلباً عليه ، وقَلَّ عدد المصريين بالنسبة إلى ما اجتمع من الناس على حصره ومطالبته بخلع نفسه ، وتسليم مروان وغيره من بنى أمية إليهم ، وعزل عماله والإستبدال بهم ، ولم يكونوا حينئذ يطلبون نفسه ، ولكن قوماً منهم ومن غيرهم تسوروا داره ، فرماهم بعض عبيده بالسهام فجرح بعضهم ، فقادت الضرورة إلى النزول والإحاطة به ، وتسرع إليه واحد منهم فقتله ، ثم إن ذلك القاتل قتل في الوقت ، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم ، وشرحناه ، فلا يلزم من فسق ذلك القاتل وعصيانه أن يفسق الباقون ، لأنهم ما أنكروا إلا المنكر ، وأما القتل فلم يقع منهم ، لا راموه ولا أرادوه ، فجاز أن يقال: إنهم غضبوا لله ، وأن يثنى عليهم ويمدحهم .« هذا ، وسنذكر شهادة الأشر عليهم السلام .

رسالة أخرى بعثها الإمام عليه السلام إلى أهل مصر

ويظهر أنها تمهيد لإرسال مالك الأشر ، وذكر بعضهم أنه أرسلها معه: « أما بعد فإن الله سبحانه بعث محمداً عليه السلام نذيراً للعالمين ومهيماً على المرسلين، فلما مضى عليه السلام تنازع المسلمون الأمر من بعده ، فوالله ما كان يُلقى في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تُزعج هذا الأمر من بعده عليه السلام عن أهل بيته ، ولا أنهم منحوه عني من بعده . فما راعني إلا انشغال الناس على فلان يبايعونه ، فأمسكت يدي ، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد عليه السلام فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً ، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم ، التي إنما هي متاع أيام قلائل ، يزول منها ما كان كما يزول السراب ، أو كما يتقشع السحاب ، فنهضت في تلك الأحداث ، حتى زاح الباطل وزهق ، واطمأن الدين وتنهه .

ومنها: إني والله لو لقيتهم واحداً وهم طلاع الأرض كلها ، ما باليت ولا استوحشت ! وإني من ضلالهم الذي هم فيه والهدى الذي أنا عليه ، لعل بصيرة من نفسي ، ويقين من ربي . وإني إلى لقاء الله وحسن ثوابه لمنتظر راج . ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها ، فيتخذوا مال الله

دولاً، وعباده خَوَلاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حداً في الإسلام، وإن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائع..!

إنفروا رحمكم الله إلى قتال عدوكم، ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف وتبوؤوا بالذل، ويكون نصيبكم الأخص. وإن أخوا الحرب الأرق ومن نام لم ينم عنه. والسلام». (نهج البلاغة: ٣/١١٨).

شهادة مالك الأشر رضي الله عنه

قال ابن تغري في النجوم الزاهرة: ١/١٠٣: «فخرج الأشر من عند علي وأتى رحله، وتهدى للخروج إلى مصر، وكتب عيون معاوية إليه بولاية الأشر على مصر فشق عليه وعظم ذلك لديه، وكان قد طمع في مصر وعلم أن الأشر متى قدمها كان أشد عليه. فكتب معاوية إلى الخانسيار رجل من أهل الخراج، وقيل كان دهقان القلزم يقول إن الأشر واصل إلى مصر قد وليها فإن أنت كفيتني إياه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت، فأقبل لهلاكه بكل ما تقدر عليه.

فخرج الخانسيار حتى قدم إلى القلزم فأقام به، وخرج الأشر من العراق يريد مصر حتى قدم القلزم، فاستقبله الخانسيار فقال له: إنزل فيني رجل

من أهل الخراج وقد أحضرت ما عندي ، فنزل الأشر فأتاه بطعام وعلف ، وسقاه شربة من عسل جعل فيها سُماً فلما شربه مات . وبعث الخانسيار من أخبر بموته معاوية ، فلما بلغ معاوية وعمرو بن العاص موت الأشر ، قال عمرو بن العاص إن الله جنوداً من عسل .

وقال ابن الكلبي عن أبيه: لما سار الأشر إلى مصر أخذ في طريق الحجاز فقدم المدينة فجاءه مولى لعثمان بن عفان يقال له نافع ، وأظهر له الود وقال له: أنا مولى عمر بن الخطاب ، فأدناه الأشر وقربه ووثق به وولاه أمره ، فلم يزل معه إلى عين شمس ، أعني المدينة الخراب خارج مصر بالقرب من المطرية، وفيها ذلك العمود المذكور في أول أحوال مصر من هذا الكتاب ، فلما وصل إلى عين شمس تلقاه أهل مصر- بالهدايا ، وسقاه نافع المذكور العسل فمات منه .»

قال الطبري: ٧٢ / ٢: « وأقبل معاوية يقول لأهل الشام: إن علياً وجّه الأشر إلى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه، فكانوا كل يوم يدعون الله على الأشر. وأقبل الذي سقاه إلى معاوية فأخبره بمهلك الأشر، فقام معاوية في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد فإنه كانت لعلي بن أبي طالب يدان يمينان ، قَطَعْتُ إحداهما يوم صفين يعني عمار بن ياسر ، وقَطَعْتُ الأخرى اليوم يعني الأشر.»

وفي تاريخ دمشق: ٣٧٦ / ٥٦ ، أن معاوية قال لأهل الشام: « يا أهل الشام إنكم منصورون ومستجاب لكم الدعاء فادعوا الله على عدوكم ! فرفع أهل الشام أيديهم يدعون عليه ، فلما كانت الجمعة الأخرى خطب فقال: يا أهل الشام إن الله قد استجاب لكم وقتل عدوكم ! وإن الله جنوداً في العسل ، فرفع أهل الشام أيديهم حامدين الله على كفايتهم إياه». (ونحوه تاريخ يعقوبي: ١٧٩ / ٢ ، وشرح النهج: ٧٦ / ٦).

وفي مجمع الأمثال: ٢ / ٢١٥ : « لا جِدَّ إلا ما أَّقْعَصَ عنك . يقال ضربه فأقعصه أي قتله مكانه . يقول: جدك الحقيقي ما دفع عنك المكروه ، وهو أن تقتل عدوك دونك . قاله معاوية حين خاف أن يميل الناس إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فاشتكى عبد الرحمن فسقاه الطيب شربة عسل فيها سُمٌّ فأخرقته ، فعند ذلك قال معاوية هذا القول».

وفي محاضرات الأدباء للراغب: ١ / ٥٣١ : « قال معاوية لما أتاه خبر موت أمير المؤمنين علي: لا جِدَّ إلا ما أَّقْعَصَ عنك » .

حزن الإمام عليه السلام على مالك الأشر

« عن صعصعة بن صوحان قال: فلما بلغ علياً عليه السلام موت الأشر قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين. اللهم إني أحسبه عندك فإن

موته من مصائب الدهر ، فرحم الله مالكا فقد وفي بعهدده ، قضى نحبه ولقي ربه ، مع أنا قد وطنا أنفسنا على أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله صلى الله عليه وآله ، فإنها أعظم المصائب ..

عن فضيل بن خديج ، عن أشياخ النخع قالوا: دخلنا على علي عليه السلام حين بلغه موت الأشر ، فجعل يتلهف ويتأسف عليه ويقول: لله در مالك ، وما مالك ! لو كان جبلاً لكان فنداً ، ولو كان حجراً لكان صلدأ ، أما والله ليهدن موتك عالماً وليفرحن عالماً ، على مثل مالك فلتبك البواكي ، وهل موجود كمالك؟! فقال علقمة بن قيس النخعي: فما زال علي عليه السلام يتلهف ويتأسف حتى ظننا أنه المصاب به دوننا ، وقد عُرف ذلك في وجهه أياماً .

وفي الإختصاص / ٨١: « وبكى عليه أياماً ، وحزن عليه حزناً شديداً ، وقال: لا أرى مثله بعده أبداً » .

وفي أمالي المفيد / ٨١: « ولما بلغ أمير المؤمنين عليه السلام وفاة الأشر جعل يتلهف ويتأسف عليه ويقول: لله در مالك ، لو كان من جبل لكان أعظم أركانه ، ولو كان من حجر لكان صلدأ . أما والله ليهدن موتك عالماً ، فعلى مثلك فلتبك البواكي . ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين ، إني أحسبه عندك ، فإن موته من مصائب الدهر ، فرحم الله مالكا فقد وفي بعهدده وقضى نحبه ولقي ربه » .

وشهد أمير المؤمنين عليه السلام في الأثر شهادة عظيمة فقال: «رحم الله مالكا وما مالك! عز عليّ به هالكا. لو كان صخرًا لكان صلداً (لصلايته ويقينه) ولو كان جبلاً لكان فينداً (مميزاً عن الجبال) وكأنه قد مني قدّاً» (رجال الكشي: ١/٢٨٣).

وأعظم منها شهادة النبي صلى الله عليه وآله بحق المقداد رضي الله عنه! «كان عظيم الشأن كبير المنزلة حسن الرأي، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قد مني قدّاً». (نهج الحق / ٣٠٤).

قبر مالك الأثر رضي الله عنه في مصر

«لما سار الأثر إلى مصر أخذ في طريق الحجاز فقدم المدينة، فجاءه مولى لعثمان يقال له نافع وأظهر له الود.. فلم يزل معه إلى عين شمس، فلما وصل إلى عين شمس تلقاه أهل مصر بالهدايا، وسقاء نافع العسل فمات!

وهذه الرواية أقرب الروايات إلى الواقع، وتؤكد صحة موضع قبره بمنطقة القلج، وهي من أحياء المرج، والمرج مدخل القاهرة من شمالها الشرقي وهي قرب بلدة الخانكة، وهي ضمن مدينة عين شمس القديمة». (الشيعية في مصر للورداني / ١٠٨).

عهد الإمام عليه السلام الى مالك الأشر

من كنوز الأمة الإسلامية عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام الى الصحابي الجليل مالك الأشر رضي الله عنه ، عندما ولاه مصر (نهج البلاغة: ٨٢/٣) وهو برنامج عمل شامل للحاكم ، في سلوكه الشخصي ، والسياسي ، والعمرائي . ولم يعرف قدره عالمنا الإسلامي مع الأسف، وعرفه بعض الحقوقيين الغربيين فترجموه الى الألمانية وغيرها ، وجعلوه مصدراً للتقنين . ولا يتسع المجال للإفاضة فيه ، فنكتفي بإيراد نصه ، ووضع عناوين لفقراته:

هدف الحكم

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشر، في عهده إليه حين ولاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها .

أصول الفكر والسلوك للحاكم

أمره بتقوى الله وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه: من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها ، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعته ، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه ، فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره ، وإعزاز من أعزه . وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات ، ويزعها عند الجمحات ، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله .

كيف يجب أن تكون نظرة الحاكم الى نفسه؟

ثم اعلم يا مالك أي قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك ، من عدل وجور ، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاية قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم . وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده . فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح . فاملك هواك ، وشح بنفسك عما لا يحل لك ، فإن الشح بالنفس الإنصاف منها ، فيما أحببت أو كرهت .

أهم صفات الحاكم محبة المواطنين كلهم

وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم ، ولا تكونن عليهم سبباً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق ، يفرط منهم الزلل ، وتعرض لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ . فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فإنك فوقهم ، ووالي الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك . وقد استكفأك أمرهم وابتلاك بهم .

خطأ شعور الحاكم بالصراع بينه وبين فئة من المواطنين

ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنه لا يدي لك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته . ولا تندمن على عفو ، ولا تبجحن بعقوبة ، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة ولا تقولن إني مؤمر أمر فأطاع ، فإن ذلك إدغال في القلب ، ومنهكة للدين ، وتقرب من الغير .

كيف يجاهد الحاكم نفسه ويتخلص من غروره؟

وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة ، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فإن ذلك يطامن إليك من طمأحك ، ويكف عنك من غربك ، ويفى إليك بما عزب عنك من عقلك . إياك ومساماة الله في عظمته والتشبه به في جبروته ، فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال . أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومن لك فيه هوى من رعيتك ، فإنك إلا تفعل تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خصمه الله أدحض حجته ، وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب . وليس شئ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته ، من إقامة على ظلم ، فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد .

موقف الحاكم إلى جنب الجمهور وليس البطانة

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق ، وأعمها في العدل وأجمعها لرضى الرعية فإن سخط العامة يحفف برضى الخاصة ، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة . وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء ، وأقل معونة له في البلاء ، وأكره للإنصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقل شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع وأضعف صبراً عند ملهات الدهر ، من أهل الخاصة . وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة ، فليكن صغوك لهم وميلك معهم .

موقف الحاكم من المخبرات والمتملقين والنمامين

وليكن أبعـد رعيتك منك وأشـنؤهم عندك ، أطلبهم لمعائب الناس ، فإن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها . فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك ، والله يحكم على ما غاب عنك . فاستر العورة ما استطعت ، يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك .

أطلق عن الناس عقدة كل حقد . واقطع عنك سبب كل وتر . وتغاب عن كل ما لا يضح لك ، ولا تعجلن إلى تصديق ساع ، فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين . ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور ، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .

صفات الوزراء الحسنة والسيئة

إن شر وزراءك من كان للأشرار قبلك وزيراً ، ومن شركهم في الآثام . فلا يكون لك بطانة ، فإنهم أعوان الأئمة ، وإخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، ممن له مثل آرائهم ونفادهم ، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ، ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ، ولا آثماً على إثمه . أولئك أخف عليك مؤونة ، وأحسن لك معونة ، وأحنى عليك عطفاً ، وأقل لغيرك إلفاً ، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ، ثم ليكون أثرهم عندك أقولهم بمرّ الحق لك ، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك ، مما كره الله لأولياته ، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع ، والصق بأهل الورع والصدق ، ثم رُضهم على أن لا يظروك ، ولا يبجحوك بباطل لم تفعله ، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو ،

وتدني من العزة .

محاسبة الوزراء

ولا يكون المحسن والمسئ عندك بمنزلة سواء ، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة ، وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه .

سياسة إعطاء الحرية للمواطنين وحسن الظن بهم

واعلم أنه ليس شئ بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته ، من إحسانه إليهم ، وتخفيفه المؤونات عليهم ، وترك استكراهه إياهم على ما ليس قبلهم ، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيته ، فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً ، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده ، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده .

احترام العادات الإجتماعية وتحسينها

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة ، واجتمعت بها الألفة ، وصلحت عليها الرعية . ولا تحدثن سنة تضر بشئ من ماضي تلك السنن ، فيكون الأجر لمن سنها ، والوزر عليك بما نقضت منها .

المشارون في القضايا الإستراتيجية

وأكثر مدارس العلماء ، ومنافثة الحكماء ، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك .

طبيعة المجتمع وواقع كونه فئات وطبقات

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض . فمنها جنود الله . ومنها كتاب العامة والخاصة . ومنها قضاة العدل . ومنها عمال الإنصاف والرفق . ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس . ومنها التجار وأهل الصناعات . ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة . وكلا قد سمى الله سهمه ، ووضع على حده فريضته ، في كتابه أو سنة نبيه ﷺ عهداً منه عندنا محفوظاً ! فالجنود بإذن الله حصون الرعية ، وزين الولاية ، وعز الدين ، وسبل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم .

ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج ، الذي يقوون به في جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ، ويكون من وراء حاجتهم .

ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاهد ، ويجمعون من المنافع ، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها . ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار ، وذوي الصناعات ، فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ، وقيموه من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ، ما لا يبلغه رفق غيرهم . ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفقهم ومعونتهم ، وفي الله لكل سعة ، ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه .

وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك ، إلا بالإهتمام والاستعانة بالله ، وتوطين نفسه على لزوم الحق ، والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل .

سياسة الحاكم مع القوات المسلحة

فول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك ، وأنقاهم جيباً ، وأفضلهم حلماً ، ممن يبطن عن الغضب ، ويستريح إلى العذر ، ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء . وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف .

ثم ألصق بذوي الأحساب ، وأهل البيوتات الصالحة ، والسوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة ، والسخاء ، والساحة ، فإنهم جماع من الكرم ، وشعب من العرف . ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقم في نفسك شيء قويتهم به . ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وإن قل ، فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك .

ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها ، فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به ، وللجسيم موضعاً لا يستغنون عنه . وليكن أثر رؤوس جنودك عندك من واساهم في معونته ، وأفضل عليهم من جدته ، بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم ، حتى يكون همهم همماً واحداً في جهاد العدو . فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك .

سياسة الحاكم مع قادة الجيش الحكام

وإن أفضل قرّة عين الولاية استقامة العدل في البلاد ، وظهور مودة الرعية . وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاية أمورهم ، وقلة استئثار دولهم ، وترك استبطاء انقطاع مدتهم . فافسح في آمالهم ، وواصل في حسن الثناء عليهم ، وتعدد ما أبلى ذوو البلاء منهم . فإن كثرة الذكر

لحسن أفعالهم تهز الشجاع ، وتحرض الناكل إن شاء الله . ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ، ولا تضيفن بلاء امرئ إلى غيره ، ولا تقصرن به دون غاية بلائه ، ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضعفة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً .

واردد إلى الله ورسوله ما يضلحك من الخطوب ، ويشتبه عليك من الأمور فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ . فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه ، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة .

سياسة الحاكم مع القوة القضائية

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك ، ممن لا تضيق به الأمور ، ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتهادى في الزلة ، ولا يحصر من الفئ إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه ، وأوقفهم في الشبهات ، وأخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأصر مهمم عند انضاح الحكم ، ممن لا يزهيه إطراء ، ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل . ثم أكثر تعاهد قضائه ، وافسح له في البذل ما يزيل علته ، وتقل معه حاجته إلى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك . فانظر في ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار ، يُعمل فيه بالهوى ، وتطلب به الدنيا .

سياسة الحاكم مع ولاية المحافظات

ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ، ولا تولم محابة وأثرة ، فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء ، من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة ، فإنهم أكرم أخلاقاً ، وأصح أعراضاً ، وأقل في المطامع إشرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً .

ثم أسبغ عليهم الأرزاق ، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك ، أو ثلموا أمانتك .

جهاز المخابرات الخاص برئيس الدولة

ثم تفقد أعمالهم ، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تعاهدك في السر لأموارهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية . وتحفظ من الأعوان ، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة ، اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، اكتفيت بذلك شاهداً ، فبسطت عليه العقوبة في بدنه ، وأخذته بما أصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ، ووسمته بالخيانة ، وقلدته عار التهمة .

السياسة المالية والضرائبية

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله . وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة . ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلاً ، فإن شكوا ثقلًا ، أو علة ، أو انقطاع شرب ، أو بالة ، أو إحالة أرض

اغتمرها غرق ، أو أجحف بها عطش ، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم . ولا يثقلن عليك شئ خففت به المؤونة عنهم ، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك ، باستفاضة العدل فيهم ، معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم ، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقتك بهم . فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به ، فإن العمران محتمل ما حملته ، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاية على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر .

الجهاز الإداري الخاص بالحاكم

ثم انظر في حال كُتِّابك ، فوَلِّ على أمورك خيرهم ، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائذك وأسراك بأجمعهم ، لوجود صالح الأخلاق ، ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملاً ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك ، وإصدار جواباتها على الصواب عنك ، وفيما يأخذ لك ويعطي منك . ولا يضعف عقداً اعتقده لك ، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور ، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل .

ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك ، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاية بتصنعهم وحسن خدمتهم ، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شئ ، ولكن اخترهم بما ولوا للصالحين قبلك ، فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثراً ، وأعرفهم بالأمانة وجهاً، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره .

واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم ، لا يقهره كبيرها ، ولا يتشتت عليه كثيرا ، ومهما كان في كتابك من عيب فتغايبت عنه ألزمته .

سياسة الدولة مع التجار والكسبة

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً: المقيم منهم ، والمضطرب بهاله ، والمترفق ببدنه ، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق ، وجلابها من المباعد والمطارح ، في برك وبحرك ، وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لموضعها ، ولا يجترئون عليها ، فإنهم سلم لا تخاف بائقته ، وصلح لا تخشى غائلته . وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك .

واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً ، وشحاً قبيحاً ، واحتكاراً للمنافع ، وتحكماً في البياعات ، وذلك باب مضره للعامة وعيب على الولاية . فامنع من الإحتكار فإن رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه ، وليكن البيع بيعاً سمحاً ، بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع . فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به ، وعاقب في غير إسراف .

سياسة الدولة مع الطبقة الفقيرة

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم ، والمساكين والمحتاجين ، وأهل البؤسى والزمى ، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً . واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك ، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد ، فإن للأقصى منهم مثل للأدنى ، وكل قد استرعيت حقه ، فلا يشغلنك عنهم بطر ،

فإنك لا تعذر بتضييعك النافه لإحكامك الكثير المهم ، فلا تشخص همك عنهم ، ولا تصعر خدك لهم ، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ، ممن تقتحمه العيون ، وتحقره الرجال ، وفرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع ، فليرفع إليك أمورهم ، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه ، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم ، وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه .

وتعهد أهل اليتيم ، وذوي الرقة في السن ، ممن لا حيلة له ، ولا ينصب للمسألة نفسه ، وذلك على الولاية ثقيل ، والحق كله ثقيل ، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ، ووثقوا بصدق موعود الله لهم .

سياسة الحاكم مع المراجعين

واجعل لذوي الحاجات منك قسماً ، تفرغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك ، وتتعهد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك ، حتى يكلمك متكلمهم غير متنتع ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في غير موطن: لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متنتع . ثم احتمل الخرق منهم والعي ، ونح عنك الضيق والأنف ، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ، ويوجب لك ثواب طاعته . وأعط ما أعطيت هنيئاً ، وامنع في إجمال وإعذار .

برنامج أمير المؤمنين عليه السلام لعمل الحاكم اليومي

ثم أمورٌ من أمورك لا بد لك من مباشرتها: منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كُتابك . ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك ، مما تخرج به صدور أعوانك . وأمض لكل يوم عمله ، فإن لكل يوم ما فيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل

تلك المواقيت ، وأجزل تلك الأقسام ، وإن كانت كلها لله ، إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية . وليكن في خاصة ما تخلص به لله دينك ، إقامة فرائضه التي هي له خاصة ، فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك ، ووف ما تقربت به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص ، بالغاً من بدنك ما بلغ .
وإذا أقمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفراً ولا مضيعاً ، فإن في الناس من به العلة وله الحاجة . وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين وجهني إلى اليمن كيف أصلي بهم فقال: صل بهم كصلاة أضعفهم ، وكن بالمؤمنين رحيماً .

لقاءات الحاكم المباشرة مع الناس

وأما بعد فلا تطولن احتجاجك عن رعيتك ، فإن احتجاج الولاية عن الرعية شعبة من الضيق ، وقلة علم بالأمور . والإحتجاج منهم يقطع عنهم علم ما احتججوا دونه ، فيصغر عندهم الكبير ، ويعظم الصغير ، ويقبح الحسن ويحسن القبيح ، ويشاب الحق بالباطل ، وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور ، وليست على الحق سيئات تتعرف بها ضروب الصدق من الكذب ، وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق ، فقيم احتجاجك من واجب حق تعظيمة ، أو فعل كريم تسديه ، أو مبتلى بالمنع ، فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك ، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك ، من شكاة مظلمة ، أو طلب إنصاف في معاملة . ثم إن للوالي خاصة وبطانة ، فيهم استئثار ، وتناول ، وقلة إنصاف في معاملة ، فاحسم مادة أولئك ، بقطع أسباب تلك الأحوال .

سياسة الحاكم مع أقاربه وحاشيته

ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة ، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس ، في شرب أو عمل مشترك ، يحملون مؤونته على غيرهم ، فيكون مهناً ذلك لهم دونك ، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة . وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، وكن في ذلك صابراً محتسباً ، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع . وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه ، فإن مغبة ذلك محمودة ، وإن ظنت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذرک ، واعدل عنك ظنونهم بإصهارك ، فإن في ذلك رياضة منك لنفسك ، ورفقاً برعيتك ، وإعذاراً تبلغ به حاجتك ، من تقويمهم على الحق .

سياسة السلم والحذر مع العدو والالتزام الكامل بالاتفاقيات

ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك والله فيه رضى ، فإن في الصلح دعة لجنودك ، وراحة من همومك ، وأمناً لبلادك . ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه ، فإن العدو ربما قارب ليتغفل ، فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن . وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، أو ألبسته منك ذمة ، فحط عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت ، فإنه ليس من فرائض الله شئٌ الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم ، من تعظيم الوفاء بالعهود . وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين ، لما استولوا من عواقب الغدر . فلا تغدرن بذمتك ، ولا تخيسن بعهدك ، ولا تختلن عدوك ، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي . وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته ، وحريراً يسكنون

إلى منعته ، ويستفيضون إلى جواره . فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه .
ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ، ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق ، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته ، خير من غدر تخاف تبعته ، وأن تحيط بك من الله فيه طلبه ، فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك .

تحذير الحاكم من سفك الدماء

إياك والدماء وسفكها بغير حلها ، فإنه ليس شئ أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أخرى بزوال نعمة وانقطاع مدة ، من سفك الدماء بغير حقها . والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة . فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله . ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد ، لأن فيه قود البدن . وإن ابتليت بخطأ وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بعقوبة ، فإن في الوكزة فما فوقها مقتلة ، فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم . وإياك والإعجاب بنفسك ، والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء ، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ، ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين .

الخطوط العامة لسياسة الحاكم مع المواطنين

وإياك والمن على رعيتك بإحسانك ، أو التزيد فيما كان من فعلك ، أو أن تعدهم فتبع موعدك بخلفك ، فإن المن يبطل الإحسان ، والتزيد يذهب بنور الحق ، والخلف يوجب المقت عند الله والناس ، قال الله تعالى: كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ .

التثبت والإعتدال في اتخاذ القرارات

وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها ، أو التسقط فيها عند إمكانها ، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت ، أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كل أمر موضعه ، وأوقع كل عمل موقعه . وإياك والإستثثار بما الناس فيه أسوة ، والتغابي عما يعنى به مما قد وضح للعيون ، فإنه مأخوذ منك لغيرك . وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور ، ويتنصف منك للمظلوم .

كيف يكون الحاكم حاكم نفسه وسيطر على غضبه؟

أملك حمية أنفك ، وسورة حدك ، وسطوة يدك ، وغرب لسانك . واحترس من كل ذلك بكف البادرة ، وتأخير السطوة ، حتى يسكن غضبك ، فتملك الإختيار . ولن تحكم ذلك من نفسك ، حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك ، والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة ، أو سنة فاضلة ، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، أو فريضة في كتاب الله ، فتقتدي بما شاهدته مما عملنا به فيها ، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا ، واستوثقت به من الحججة لنفسك عليك لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها .

دعاء أمير المؤمنين عليه السلام للتوفيق في تحقيق أهدافه في الحكم

وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة ، أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه ، من الإقامة على العذر الواضح إليه ، وإلى خلقه ، مع حسن الثناء في العباد ، وجميل الأثر في البلاد ، وتمام النعمة وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة ، وإنا إليه راغبون .»

الإمام يرسل الملك الصالح والياً على مصر!

قال السيد الأمين في أعيان الشيعة: ٣٩٦/٧: « فارس المسلمين ، أبو الغارات ، طلائع بن رزيك ، الملقب الملك الصالح وزير مصر . ولد تاسع عشر ربيع الأول سنة ٤٩٥ ، ومات مقتولاً سنة ٥٥٦ » .

وقال المقرئ في الخطط: ١٨/٣: « طلائع بن رزيك: أبو الغارات ، الملك الصالح ، فارس المسلمين ، نصير الدين ، قدم في أول أمره إلى زيارة مشهد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأرض النجف من العراق في جماعة من الفقراء، وكان من الشيعة الإمامية ، وإمام مشهد علي رضي الله عنه يومئذ السيد ابن معصوم ، فزار طلائع وأصحابه وباتوا هنالك ، فرأى ابن معصوم في منامه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يقول له: قد ورد عليك الليلة أربعون فقيراً ، من جملتهم رجل يقال له طلائع بن رزيك من كبار محبيننا، قل له: إذهب فقد وليناك مصر!

فلما أصبح أمر أن ينادي: من فيكم طلائع بن رزيك ، فليقم إلى السيد ابن معصوم . فجاء طلائع وسلم عليه ، فقص عليه ما رأى ، فسار حينئذ إلى مصر ، وترقى في الخدم حتى ولي مئنة بني خصيب .

فلما قتل نصر بن عباس الخليفة الظافر ، بعث نساء القصر- إلى طلائع يستغثن به في الأخذ بثأر الظافر ، وجعلن في طي الكتب شعور النساء ،

فجمع طلائع عندما وردت عليه الكتب ، الناس ، وسار يريد القاهرة لمحاربة الوزير عباس ، فعندما قرب من البلد فرَّ عباس ودخل طلائع إلى القاهرة ، فخُلع عليه خلع الوزارة ، ونُعت بالملك الصالح ، فارس المسلمين ، نصير الدين . فباشر البلاد أحسن مباشرة ، واستبد بالأمر لصغر سن الخليفة الفائز بنصر الله إلى أن مات ، فأقام من بعده عبد الله بن محمد ، ولقَّبه بالعاقد لدين الله وبايع له ، وكان صغيراً لم يبلغ الحلم ، فقويت حرمة طلائع وازداد تمكنه من الدولة .

فثقل على أهل القصر لكثرة تضييقه عليهم واستبداده بالأمر دونهم ، فوقف له رجال بدهاليز القصر وضربوه حتى سقط على الأرض على وجهه وحمل جريحاً لا يعي إلى داره ، فمات يوم الإثنين تاسع عشر شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمس مائة ، وكان شجاعاً كريماً ، جواداً فاضلاً ، محباً لأهل الأدب ، جيد الشعر ، رجل وقته ، فضلاً وعقلاً ، وسياسة وتديراً .

وكان مهاباً في شكله ، عظيماً في سطوته ، وجمع أموالاً عظيمة ، وكان محافظاً على الصلوات فرائضها ونوافلها ، شديد المغالات في التشيع ، صنف كتاباً سماه: الإعتاد في الرد على أهل العناد ، جمع له الفقهاء وناظرهم عليه ، وهو يتضمن إمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه والكلام على الأحاديث

الواردة في ذلك. وله شعر كثير يشتمل على مجلدين في كل فن ، فمنه في اعتقاده:

يا أمةً سلكتُ ضلالاً بيناً حتى استوى إقرارها وجحودها
ملتئم إلى أن المعاصي لم يكن إلا بتقدير الإله وجودها
لو صح ذا كان الإله بزعمكم منَع الشريعة أن تُقام حدودها
حاشا وكلاً أن يكونَ إلهنا ينهى عن الفحشاء ثم يريدنا

وله قصيدة سماها: الجوهرية في الرد على القدرية .

وجدد الجامع الذي بالقرافة الكبرى ، ووقف ناحية بلقس على أن يكون
ثلثاها على الأشراف من بني حسن وبني حسين ابني علي بن أبي طالب
رضي الله عنهم ، وسبع قراريط منها على أشراف المدينة النبوية ، وجعل
فيها قيراطاً على بني معصوم إمام مشهد علي رضي الله عنه .
ولما ولي الوزارة مال على المستخدمين بالدولة وعلى الأمراء ، وأظهر
مذهب الإمامية وهو مخالف لمذهب القوم ، وباع ولايات الأعمال للأمراء
بأسعار مقررة ، وجعل مدة كل متولٍّ ستة أشهر ، فتضرر الناس من كثرة
تردد الولاة على البلاد، وتعبوا من ذلك .

وكان له مجلس في الليل يحضره أهل العلم ويدونون شعره ، ولم يترك مدة
أيامه غزو الفرنج وتسيير الجيوش لقتالهم في البر والبحر ، وكان يُخرج
البعوث في كل سنة مراراً .

وكان يحمل في كل عام إلى أهل الحرمين مكة والمدينة من الأشراف سائر ما يحتاجون إليه من الكسوة وغيرها، حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان التي يكتب فيها، والأقلام والمداد، وآلات النساء، ويحمل كل سنة إلى العلويين الذين بالمشاهد جملاً كبيرة، وكان أهل العلم يغدون إليه من سائر البلاد، فلا يخيب أمل قاصد منهم .

ولما كان في الليلة التي قُتِلَ صبيحتها قال: هذه الليلة ضُربَ في مثلها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمر بقربة ممتلئة فاغتسل، وصلى على رأي الإمامية مائة وعشرين ركعة، أحيا بها ليله، وخرج ليركب فعثر وسقطت عمامته عن رأسه وتشوشت، فقعد في دهليز دار الوزارة وأمر بإحضار ابن الضيف، وكان يتعمم للخلفاء والوزراء، وله على ذلك الجاري الثقيل، فلما أخذ في إصلاح العمامة قال رجل للصالح: نعيذ بالله مولانا، ويكفيه هذا الذي جرى أمراً يتطير منه، فإن رأى مولانا أن يؤخر الركوب فعل، فقال: الطيرة من الشيطان، ليس إلى تأخير الركوب سبيل، وركب فكان من ضربه ما كان، وعاد محمولاً فمات منها كما تقدم .

أقول: كان إرسال طلائع بن رزيك كرامة لأمير المؤمنين عليه السلام في ظرف حساس على مصر، حيث ضعفت الدولة الفاطمية، بسبب مؤامرات خصومها، وترف خلفائها وبذخهم، فطمع فيها الصليبيون .

وحكم طلائع سبع سنين ، وتقدم قول المقريري « لم يترك مدة أيامه غزو الفرنج وتسيير الجيوش لقتالهم في البرّ والبحر ، وكان يُخرج البعوث في كل سنة مراراً . وقد يكون الصليبيون أو عملاء الدولة العباسية وراء اغتياله ، وقد حكم بعده ابنه رُزيك سنتين، فثار عليه والي الصعيد شاور عندما عزله فاستعان عليه بالفرنج وقتله ، وأدخل الفرنج مصر وأجبر الخليفة الفاطمي العاضد عى توزيعه ، فاستعان العاضد بنور الدين محمود زنكي حاكم سوريا من قبل العباسيين، والمتصدي لدفع الفرنج ، فأرسل له جيشاً صغيراً بقيادة شيركوه أي أسد الجبل ، وهو كردي معروف بالشجاعة ، فحارب الصليبيين في القاهرة فانهزموا منها الى الإسكندرية ، ثم حاربهم في الإسكندرية ومعهم شاور ، لكن شيركوه صالح شاور والفرنج على أموال ، وترك مصر وعاد الى الشام ، فسيطر الفرنج على القاهرة ثانيةً ، وعاثوا فساداً في مصر!

ثم طلب العاضد من نور الدين إرسال قوات ، فأرسل شيركوه ، فكرر ما عمله سابقاً ! ثم عاد الفرنج فاستنجد العاضد بجند الشام وجاء بشيركوه ثالثةً واستوزره ، فغدر به !

قال ابن تغري في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٣٤٣/٥: « فتحرك شاور بن مجير السعدي من بلاد الصعيد ، وجمع أوباش الصعيد من العبيد

والأوغاد ، وقدم إلى القاهرة تحراباً لرزيك ، فخرج إليه رزيك بن طلائع وقاتله ، والعاضد في الباطن مع شاور فانهزم رزيك ، ودخل شاور إلى القاهرة وملكها ، وأخرب دور الوزارة ودور بني رزيك ، واختفى الوزير رزيك المذكور إلى أن ظفر به شاور وقتله .»

وقال في النجوم الزاهرة: ٥/ ٣٤٨: « وأقام شاور بالقاهرة على عادته يظلم ويقتل ويصادر الناس ، ولم يبق للعاضد معه أمر ولا نهي... وسار أسد الدين (شيركوه) ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، حتى نزل بر الجيزة غربي مصر على بحر النيل ، وكان شاور قد أعطى الفرنج الأموال وأقطعهم الإقطاعات ، وأنزلهم دور القاهرة وبنى لهم أسواقاً تخصهم ، وكان مقدم الفرنج الملك مري وابن نيرزان ، فأقام أسد الدين على الجيزة شهرين ، وعدا إلى بر مصر والقاهرة ، في خامس عشرين جمادي الآخرة ، وخرج إليه شاور والفرنج ، ورتب شاور عساكره فجعل الفرنج على الميمنة مع ابن نيرزان ، وعسكر مصر في الميسرة ، وأقام الملك مري الفرنجي في القلب في عساكره من الفرنج ، ورتب أسد الدين عساكره ، فجعل صلاح الدين في الميمنة وفي الميسرة الأكراد ، وأسد الدين في القلب ، فحمل الملك مري على القلب فتعته ، وكانت أثقال المسلمين خلفه فاشتغل الفرنج بالتهب ، وحمل صلاح الدين على شاور فكسره وفرق جمعه ، وعاد أسد

الدين إلى ابن أخيه صلاح الدين وحملوا على الفرنج فانهزموا ، فقتلوا منهم ألوفاً ، وأسرا مائة وسبعين فارساً ، وطلبوا القاهرة ، فلو ساق أسد الدين خلفهم في الحال ملكَ القاهرة ، وإنما عدل إلى الإسكندرية ، فتلقاه أهلها طائعين فدخلها وولّى عليها صلاح الدين ، فأقام صلاح الدين بها ، وسار أسد الدين إلى الصعيد فاستولى عليه ، وأقام يجمع أمواله .

وخرج شاور والفرنج من القاهرة ، فحصروا الإسكندرية أربعة أشهر ، وأهلها يقاتلون مع صلاح الدين ويقوون به بالمال ، وبلغ أسد الدين فجمع عرب البلاد وسار إلى الإسكندرية ، فعاد شاور إلى القاهرة ، وراسل أسد الدين حتى تم الصلح بينهم ، وأعطى شاور أسد الدين إقطاعاً بمصر-، وعجل له مالاً ، فعاد أسد الدين إلى الشام ومعه صلاح الدين ، واعتذر أسد الدين إلى الملك العادل نور الدين محمود بكثرة الفرنج...

ثم إن الفرنج طلبوا من شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة، وتكون أبوابها بأيدي فرسانهم ، وتحمل إليهم في كل سنة مائة ألف دينار، ومن سكن منهم بالقاهرة يبقى على حاله ، ويعود بعض ملوكهم إلى الساحل ، فأجابهم شاور إلى ما طلبوا منه . كل ذلك تقرر بين شاور والفرنج ، والعاقد لا يعلم بشيء منه... هذا وقد تلاشى أمر الديار المصرية من الظلم ، ولم يبق للعاقد من الخلافة سوى الإسم والخطبة لا غير!

فلما بلغ شاور فعل الفرنج بالأرياف، أخرج من كان بمصر من الفرنج بعد أن أساء في حقهم قبل ذلك، وقتل منهم جماعة كبيرة وهرب الباقيون، ثم أمر شاور أهل مصر بأن ينتقلوا إلى القاهرة، ففعلوا، وأحرق شاور مصر، وسار الفرنج من بلبس حتى نزلوا على القاهرة في سابع صفر وضايقوها وضربوها بالمجانيق، فلم يجد شاور بداً أن كاتب الملك العادل نور الدين محموداً بأمر العاضد.

وفي طبقات الشافعية للسبكي (١٩/٧): « فاعترضه صلاح الدين يوسف بن أيوب وجماعة من الأمراء النورية فقبضوا عليه، فجاءهم رسول العاضد يطلب رأس شاور، فذبح وحمل رأسه إليه، واستقل أسد الدين (صار الوزير الأول) ولم يلبث أن حضرته المنية بعد خمسة وستين يوماً من ولايته، فقلد العاضد صلاح الدين يوسف، ولقبه الملك الناصر، وكتب تقليده القاضي الفاضل، وبدت سعادة صلاح الدين، وضعف أمر العاضد.»

وفي طبقات الشافعية (١٤/٧) أن صلاح الدين خاف من الخطبة لبني العباس حذراً من الشيعة، فوقف الخبوشاني أمام المنبر بعصاه، وأمر الخطيب أن يذكر بني العباس ففعل ولم يكن إلا الخير، ووصل إلى بغداد الخبر فزينوها، وأظهروا من الفرح فوق الوصف...

الفصل الثالث: أخبار مصر في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام ٢٠٧

ثم قال السبكي: «وتوفي العاضد بعد ذلك في يوم عاشوراء بالقصر ، وجلس السلطان صلاح الدين بعد ذلك للعزاء وأغرب في الحزن والبكاء ، وتسلم القصر بما فيه من خزائن ودفائن وأموال لا تعد ولا تحصى وأمتعة ، استمر البيع فيها بعدما أهدى ووهب وأطلق وادخر ، عشر سنين .

ويحكى أن صلاح الدين قال: لو علمت أن العاضد يموت بعد عشرة أيام ما قطعت خطبته ، وأنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسلت إليه مدة مقام الإفرنج على دمياط ، أطلب منه نفقة ، فأرسل إلي ألف دينار مصرية ، نصفها خمس مائة ألف دينار ، غير الثياب والأمتعة .

ثم أودع صلاح الدين أقارب العاضد السجن وقرر لهم النفقات ...

حكى أن العاضد رأى في منامه أن حية خرجت من مسجد معروف بمصر ، ولسعته ، فأرسل جماعة في صبيحة ليلته إلى ذلك المسجد فما رأوا فيه إلا شخصاً أعجمياً فقيراً ، فردوا إليه وقالوا: لم نرَ إلا فقيراً أعجمياً . وتكررت الرؤيا وهو يرسل فلا يرون إلا ذلك الأعجمي ، فقيل له: هذه أضغاث أحلام ، وكان الأعجمي هو الخبوشاني .»

وفي تاريخ أبي الفدا: ٤٨/٣: « لما فوض الأمر إلى صلاح الدين ، تاب عن

شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو . ونحوه سير الذهبي: ٢١/٢٨٢ .

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: ٢٠٧/١٥: « ثم سَيرَ العاضد يستنجد بشيركوه على الفرنج ، فسار وهزم الفرنج بعد أن كادوا يأخذون البلاد ، وهمَّ شاور باغتيال شيركوه وكبار عسكره ، فناجزوه وقتلوه في ربيع الآخر سنة أربع وستين ، قتله جرد يك النوري وصلاح الدين... فاستوزر العاضد شيركوه فلم يطول ومات بالخانوق بعد شهرين وأيام ، وقام بعده ابن أخيه صلاح الدين... شرع صلاح الدين يطلب من العاضد أشياء ، من الخيل والرقيق والمال ، ليقوي بذلك ضعفه، فسيرني إلى العاضد أطلب منه فرساً ، فأتيته وهو راكب في بستانه الكافوري فقلت له ، فقال: مالي إلا هذا الفرس ونزل عنه ، وشق خفيه ورمى بهما ، فأتيت صلاح الدين بالفرس . قلت (الذهبي): تلاشى أمر العاضد مع صلاح الدين ، إلى أن خلعه وخطب لبني العباس ، واستأصل شأفة بني عبيد ، ومحق دولة الرفض... وكانت دولتهم مئتي سنة وثمانياً وستين سنة ، وقد صنف القاضي أبو بكر بن الباقلاني كتاب كشف أسرار الباطنية ، فافتتحه ببطلان انتسابهم إلى الإمام علي ، وكذلك القاضي عبد الجبار المعتزلي .

هلك العاضد يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمس مئة بذرب مفرط... وقيل سقي ، وقيل مص خاتماً له مسموماً .

الفصل الثالث: أخبار مصر في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام ٢٠٩

وتسلم صلاح الدين القصر بما حوى من النفائس والأموال ، وقبض أيضاً على أولاد العاضد وآله ، فسجنهم في بيت من القصر ، وقمع غلمانهم وأنصارهم ، وعفى آثارهم .

قال العماد الكاتب: وهم الآن محصورون محسورون لم يظهروا ، وقد نقصوا وتقلصوا ، وانتقى صلاح الدين ما أحب من الذخائر ، وأطلق البيع بعد في ما بقي ، فاستمر البيع فيها مدة عشر سنين .

أقول: لا يترك الذهبي تعصبه ، ولا يأخذ في الإعتبار أن الخليفة العاضد هو الذي استدعى القوة الكردية من الشام للدفاع عن مصر ، وأمدهم بالمقاتلين والمال حتى انتصروا على الفرنج وحليفهم شاور ، ثم غدروا به وأجبروه على استيزار شيركوه ، ثم صلاح الدين ، ثم غدروا به فخلعوه ، وأعلنوا مصر تابعة للخلافة العباسية .

ومن تعصب الذهبي أنه يغطي على خيانة شيركوه ، وقبضه مبلغاً من شاور والفرنج وانسحابه من مصر مرتين ، وأنه عندما رجع في المرة الثالثة أبرم معهم اتفاقاً أيضاً أعطاهم بموجبه امتيازات في مصر! وكان كل ذلك بدون علم العاضد ، كما صرح المؤرخون .

ومن تعصبه أيضاً نفيه نسب الفاطميين الى علي عليه السلام تعصباً لبني أمية وبني العباس ، واستشهادة بالباقلاني الذي ألف كتابه تقريباً للعباسيين في بغداد .

بينما نجد المؤرخين والنسائين أثبتوا نسبهم ، ويكفينا شهادة الشريف الرضي
في أبياته ، كما في شرح النهج: ٣٨/١:

مَقْوَلٌ صَارُمٌ وَأَنْفٌ حَمِيٌّ	(ما مُقَامِي عَلَى الْهَوَانِ وَعِنْدِي
كَمَا زَاغَ طَائِرٌ وَحَشِيٌّ	وإِبَاءٌ مَحَلَّقٌ بِي عَنِ الضَّمِيمِ
ذَلَّ غَلَامًا فِي غَمْدِهِ الْمَشْرِفِي	أَي عَذْر لَه إِلَى الْمَجْدِ إِنْ
وَبِمَصْرَ الْخَلِيفَةِ الْعَلْوِي	أَحْمَلِ الضَّمِيمِ فِي بِلَادِ الْأَعَادِي
إِذَا ضَامِنِي الْبَعِيدِ الْقَصِي	مَنْ أَبُوهُ أَبِي وَمَوْلَاهُ مَوْلَايَ
جَمِيعًا مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ.	لَفِ عِرْقِي بَعْرِفَةَ سَيِّدِ النَّاسِ



الفصل الرابع:

علاقة المصريين بأئمة العترة عليهم السلام

في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام

دخل عدد من أصحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى مصر أول فتحها، مثل مالك الأشتر، والمقداد بن عمرو، وأبي ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت، وعمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، وغيرهم، رضي الله عنهم، ثم لم ينقطع التشيع من مصر.

وكان المصريون يلتقون بعلي عليه السلام في المدينة، وفي موسم الحج، ثم وسَّطه الوفد المصري في حل مشكلتهم مع عثمان.

ثم اتسعت العلاقة بين علي عليه السلام والمصريين، وكان بعضهم يقصد الكوفة في شهر رمضان ليتعبد في مسجدها. فقد جاء في رواية مقتل أمير المؤمنين علي عليه السلام (روضة الواعظين للنيسابوري/ ١٣٣) عن عبد الله بن محمد الأزدي قال: «إني لأصلي في تلك الليلة في المسجد الأعظم، مع رجال من أهل مصر، كانوا يصلون في ذلك الشهر من أوله إلى آخره، إذ نظرت إلى رجال يصلون في تلك

الليلة في المسجد قريباً من السدة ، وخرج علي بن أبي طالب عليه السلام لصلاة
الفجر ، فأقبل ينادي: الصلاة الصلاة ، فما أدري أنادي ، أم رأيت بريق
السيف..!»!

سكن النسائي في مصر وقتله أهل الشام!

نلاحظ أن الشافعي والنسائي لما سكنا مصر تأثرا بأهلها ، فصارا محبين للعترة
النبوية عليهم السلام . وبعض الناس يتصور أن الأمر بالعكس ، وأنها أثرا على أهل مصر .
قال الحاكم النيسابوري في معرفة علوم الحديث/ ٨٢: «ومع ما جمع أبو عبد
الرحمن من الفضائل، رُزق الشهادة في آخر عمره ، فحدثني محمد بن
إسحاق الأصبهاني قال: سمعت مشايخنا بمصر يذكرون أن أبا عبد الرحمن
فارق مصر في آخر عمره وخرج إلى دمشق ، فسئل بها عن معاوية بن أبي
سفيان وما روى من فضائله؟ فقال: لا يرضى معاوية رأساً برأس حتى
يفضل! قال: فما زالوا يدفعون في خصييه حتى أخرج من المسجد ، ثم حمل
إلى الرملة ومات بها سنة ثلاث وثلاث مائة ، وهو مدفون بمكة »!

وفي الوافي للصفدي: ٢٥٦/٦: « أنكر عليه قوم كتاب الخصائص لعلي رضي
الله عنه ، وتركه تصنيف فضائل الشيخين، فذكر له ذلك فقال: دخلت
دمشق والمنحرف بها عن علي كثير ، فصنفت الخصائص رجاء أن يهديهم الله

تعالى ، ثم صنف بعد ذلك فضائل الصحابة فقليل له: ألا تخرج فضائل معاوية؟ فقال: أي شيء أخرج: اللهم لا تشبع بطنه! فسكت السائل»!
وفي تاريخ أبي الفداء: ٦٨/٢: «ثم عاد إلى دمشق فامتحن في معاوية ، وطلب منه أن يروى شيئاً من فضائله فامتنع ، وقال: ما يرضى معاوية أن يكون رأساً برأس حتى يفضل» .

وفي فيض القدير للمناوي: ٣٣/١: «دخل دمشق فذكر فضائل علي رضي الله عنه فقليل له: فمعاوية؟ فقال: ما كفاه أن يذهب رأساً برأس حتى نذكر له فضائل! فدفع في خصيته حتى أشرف على الموت ، فأخرج فمات بالرملة أو فلسطين» . وتهذيب الكمال: ٣٣٩/١ ، وسير أعلام النبلاء: ١٤/١٣٢ ، والمنظم: ١٣/١٥٦ ، ووفيات الأعيان: ١/٧٧ .

وفي تذكرة الحفاظ للذهبي: ٧٠٠/٢ ، وغيرها: «قال الدارقطني: خرج حاجاً فامتحن بدمشق ، وأدرك الشهادة فقال: إحملوني إلى مكة» .
«سئل عن مولده فقال: أشبه أن يكون سنة ٢١٥» (معجم البلدان: ٥/٢٨٢)

مصر ملجأ العلويين المضطهدين

قال البلاذري في أنساب الأشراف: ٣/١٣٧ ، ونحوه الطبري: ٦/٤١٦: «كان إدريس بن عبد الله بن حسن في وقعة فخ مع الحسين بن علي ، فهرب في خلافة الهادي إلى مصر ، وعلى بريدها يومئذ واضح مولى صالح بن منصور ، الذي

يعرف بالمسكين ، وكان واضح يتشيع ، فحمله على البريد إلى المغرب فوقع إلى أرض طنجة وأتى بعض مدنها ، فاستجاب له من بها من البربر، فلما استخلف الرشيد بعد موسى الهادي أعلم ذلك، فضرب عنق واضح ودس الشاخ مولى المهدي ، وكتب له إلى إبراهيم بن الأغلب وهو عامله على إفريقية ، فأنفذه إلى بلاد طنجة ، فادعى الشاخ الطب ، فدعاه إدريس ليسأله عن وجع عرض له في أسنانه فأعطاه سنوناً فيه سُمُّ كان معه ، ثم هرب فطلب فلم يُقدر عليه ، ومات إدريس وصار مكانه ابن له يقال له إدريس .»

وقال القاضي النعمان في شرح الأخبار: ٣/ ٣٣١: « أخرج مولى له يقال له راشد، مختفياً حتى سار به إلى مصر... وخلف إدريس حملاً بأم ولد ، فولدت ولداً سمي إدريس ، وبلغ وضبط الأمر ، وولد له فسماه محمد فتناسلوا وكثروا ، وهم في المغرب .»

وفي مقاتل الطالبين/ ٣٢٥: «فخرج به في جملة حاج مصر وإفريقية وكان إدريس يخدمه ويأتمر له ، حتى أقدمه مصر فنزلها ليلاً فجلس على باب رجل من موالي بني العباس فسمع كلامهما وعرف الحجازية فيهما فقال: أظنكما غربيين. قالوا: نعم. قال: وحجازيين. قالوا: نعم . فقال له راشد: أريد أن ألقى إليك أمرنا على أن تعاهد الله أنك تعطينا خلة من خلتين: إما أن تؤوينا

وتؤمننا ، وإما سترت علينا أمرنا حتى نخرج من هذا البلد . قال: أفعل .
فعرفه نفسه وإدريس بن عبد الله ، فأواهما وسترهما .
وتهيات قافلة إلى إفريقية ، فأخرج معها راشداً إلى الطريق وقال له: إن على
الطريق مسالح ومعهم أصحاب أخبار تفتش كل من يجوز الطريق ،
وأخشى أن تعرف ، فأنا أمضي به معي على غير الطريق، حتى أخرجك
عليك بعد مسيرة أيام وهناك تنقطع المسالح ، ففعل ذلك وخرج به عليه» .

الكعبة لا تأكل ولا تشرب

روى في الكافي: ٤/ ٢٤٢ ، بسنده عن سعيد بن عمرو الجعفي ، عن رجل من أهل مصر
قال: « أوصى إليّ أخي بجارية كانت له مغنية فارهة ، وجعلها هدياً لبیت الله
الحرام ، فقدمت مكة فسألت فقيل: إدفعا إلى بني شيبه وقيل لي غير ذلك
من القول ، فاختلف عليّ فيه ، فقال لي رجل من أهل المسجد: ألا أرشدك
إلى من يرشدك في هذا إلى الحق؟ قلت: بلى، قال: فأشار إلى شيخ جالس في
المسجد فقال: هذا جعفر بن محمد عليه السلام فسله .

قال: فأتيته فسألته وقصصت عليه القصة فقال: إن الكعبة لا تأكل ولا
تشرب ، وما أهدي لها فهو لزوارها . بع الجارية ، وقم على الحجر فناد هل
من منقطع به ، وهل من محتاج من زوارها ، فإذا أتوك فسل عنهم ،

وأعطهم واقسم فيهم ثمنها. قال فقلت له: إن بعض من سألته أمرني بدفعها إلى بني شيبه؟

فقال: أما إن قائمنا لو قد قام لقد أخذهم وقطع أيديهم ، وطاف بهم وقال: هؤلاء سراق الله فاعرفوهم .

أقول: يقصد عليه السلام بني شيبه المستأكلين باسم الكعبة ، سواء كانوا من بني شيبه نسباً ، أو مثلهم عملاً وحسباً .

زنديق يؤمن على يد الإمام الصادق عليه السلام

روى الصدوق في التوحيد/ ٢٩٣ ، عن علي بن منصور قال: « قال لي هشام بن الحكم: كان زنديق بمصر يبلغه عن أبي عبد الله عليه السلام علم ، فخرج إلى المدينة ليناظره فلم يصادفه بها ، ففيل له: هو بمكة ، فخرج الزنديق إلى مكة ونحن مع أبي عبد الله عليه السلام ، فقاربنا الزنديق ونحن مع أبي عبد الله في الطواف فضرب كتفه كتف أبي عبد الله ، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ما اسمك؟ قال: إسمي عبد الملك. قال: فما كنيك؟ قال: أبو عبد الله. قال: فمن الملك الذي أنت له عبد ، أمن ملوك السماء أم من ملوك الأرض؟! وأخبرني عن ابنك أعبد إله السماء؟ أم عبد إله الأرض؟

فسكت. فقال أبو عبد الله عليه السلام: قل ماشئت تخصم !

قال هشام بن الحكم: قلت للزنديق: أما ترد عليه؟! فقبح قولي . فقال له أبو عبد الله عليه السلام: إذا فرغت من الطواف فأتنا .

فلما فرغ أبو عبد الله عليه السلام أتاه الزنديق فقعده بين يديه ونحن مجتمعون عنده ، فقال للزنديق: أتعلم أن للأرض تحماً وفوقاً؟ قال: نعم ، قال: فدخلت تحتها؟ قال: لا ، قال: فما يدريك بما تحتها؟ قال: لا أدري إلا أني أظن أن ليس تحتها شيء .

قال أبو عبد الله عليه السلام: فالظن عجز ما لم تستيقن . قال أبو عبد الله عليه السلام: فصعدت السماء؟ قال: لا ، قال: فتدري ما فيها؟ قال: لا ، قال: فأتيت المشرق والمغرب فنظرت ما خلفها؟ قال: لا .

قال: فعجباً لك ، لم تبلغ المشرق ولم تبلغ المغرب ، ولم تنزل تحت الأرض ولم تصعد السماء ، ولم تخبر هنالك فتعرف ما خلفهن وأنت جاحد ما فيهن ، وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟ فقال الزنديق: ما كلمني بهذا أحد غيرك! قال أبو عبد الله عليه السلام: فأنت في شك من ذلك ، فلعل هو أو لعل ليس هو . قال الزنديق: ولعل ذلك .

فقال أبو عبد الله عليه السلام: أيها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم ، فلا حجة للجاهل على العالم .

يا أخا أهل مصر تفهّم عني ، فإننا لا نشك في الله أبداً ، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان ولا يشتبهان ، يذهبان ويرجعان قد اضطرا ، ليس لهما مكان إلا مكانها ، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلا يرجعان فلم يرجعان ؟ وإن لم يكونا مضطرين فلم لا يصير الليل نهاراً والنهار ليلاً ؟ اضطرّاً والله يا أخا أهل مصر إلى دوامهما ، والذي اضطرهما أحكم منهما وأكبر منهما . قال الزنديق: صدقت .

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: يا أخا أهل مصر، الذي تذهبون إليه وتظنون به بالوهم، فإن كان الدهر يذهب بهم لم لا يردهم ، وإن كان يردهم لم لا يذهب بهم . القوم مضطرون يا أخا أهل مصر، السماء مرفوعة والأرض موضوعة لم لا تسقط السماء على الأرض ، ولم لا تنحدر الأرض فوق طاقتها؟ فلا يتماسكان ، ولا يتماسك من عليهما ؟

فقال الزنديق: أمسكها والله ربها وسيدهما. فأمن الزنديق على يدي أبي عبد الله عليه السلام . فقال له حمran بن أعين: جعلت فداك إن آمنت الزنادقة على يديك ، فقد آمنت الكفار على يدي أبيك .

فقال المؤمن الذي آمن على يدي أبي عبد الله عليه السلام: إجعلني من تلامذتك . فقال أبو عبد الله عليه السلام لهشام بن الحكم: خذني إليك فعلمه ، فعلمه هشام ،

فكان معلم أهل مصر وأهل الشام ، وحسنت طهارته ، حتى رضي بها أبو عبد الله عليه السلام .

أقول: نبّه الإمام عليه السلام الى خطأ الملحدين بنفي وجود الله تعالى ، بدون علم ولا إحاطة بهذا الكون المادي ، فضلاً عما وراءه .

ثم نبهه الى دليل النظم في الكون الذي يدل على القصد والحكمة والهدف ، وأن القاصد المهادف عز وجل لا بد أن يكون أقوى من الطبيعة المادية حتى يجبرها ويضطرها للخضوع لقوانينه وأنظمتها .

ذو النون المصري يروي عن الإمام الصادق عليه السلام فلسفة الحج

في علل الشرائع للصدوق: ٤٤٣/٢: « قال: سألت ذا النون المصري ، قلت: يا أبا الفيض ، لم صيرّ الموقف بالمشعر ، ولم يصيره بالحرم ؟ قال: حدثني من سأل الصادق عليه السلام ذلك فقال: لأن الكعبة بيت الله والحرم حجابها والمشعر بابها ، فلما أن قصده الزائرون أوقفهم بالباب حتى أذن لهم بالدخول ، ثم أوقفهم بالحجاب الثاني وهو مزدلفة ، فلما نظر إلى طول تضرعهم ، أمرهم بتقريب قربانهم ، فلما قربوا قربانهم وقضوا تفتّهم وتطهروا من الذنوب التي كانت لهم حجاباً دونه ، أمرهم بالزيارة على طهارة .

قال فقلت: فلم كره الصيام في أيام التشريق؟ فقال لأن القوم زوار الله وهم أضيافه، ولا ينبغي للضيف أن يصوم عند من زاره وأضافه .
قلت: فالرجل يتعلق بأستار الكعبة ما يعني بذلك؟ قال: مثل ذلك مثل الرجل يكون بينه وبين الرجل جنائية، فيتعلق بثوبه يستخذي له، رجاء أن يهب له جرمه».

مصريون مع الإمام الرضا والجواد عليهما السلام

في بصائر الدرجات/٢٥٨، والكافي: ١/٣٨٤، عن علي بن أسباط قال: «رأيت أبا جعفر عليه السلام قد خرج عليّ فأحدت النظر إليه وإلى رأسه وإلى رجله، لأصف قامته لأصحابنا بمصر، فخرّ ساجداً فقال: إن الله احتج في الإمامة مثل ما احتج في النبوة، قال الله تعالى: **وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**. وقال الله: **حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً**. فقد يجوز أن يؤتى الحكمة وهو صبي، ويجوز أن يؤتى وهو ابن أربعين سنة». ومعناه أن الراوي المصري كان في المدينة ورأى الإمام الجواد عليه السلام، وتأمل صفته ليخبر الشيعة في مصر عن إمامهم بعد الرضا عليه السلام.

مصريون يزورون قبر الإمام الرضا عليه السلام

في عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/٣١٣، عن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الفضل التميمي الهروي قال: «سمعت أبا الحسن علي بن الحسن القهستاني قال: كنت بمرور الرود فلقيت بها رجلاً من أهل مصر مجتازاً إسمه حمزة،

فذكر أنه خرج من مصر زائراً الى مشهد الرضا عليه السلام بطوس ، وأنه لما دخل المشهد كان قرب غروب الشمس فزار وصلى ، ولم يكن ذلك اليوم زائراً غيره ، فلما صلى العتمة أراد خادم القبر أن يخرج به ويغلق الباب ، فسأله أن يغلق عليه الباب ويدعه في المشهد ليصلي فيه ، فإنه جاء من بلد شاسع ولا يخرج منه وأنه لا حاجة له في الخروج ، فتركه وغلق عليه الباب وأنه كان يصلي وحده إلى أن أعيأ ، فجلس ووضع رأسه على ركبتيه ليستريح ساعة ، فلما رفع رأسه رأى في الجدار مواجهة وجهه رقعة عليها هذان البيتان:

من سره أن يرى قبراً برؤيته يفرج الله عمن زاره كُربَهُ
فليات ذا القبر إن الله أسكنه سلالته من نبي الله مُتجبه

قال فقمت وأخذت في الصلاة إلى وقت السحر ، ثم جلست كجلستي الأولى ووضعت رأسي على ركبتي ، فلما رفعت رأسي لم أر على الجدار شيئاً وكان الذي أراه مكتوباً رطباً ، كأنه كتب في تلك الساعة . قال: فانفلق الصبح وفتح الباب وخرجت من هناك .»

مصريون يبحثون عن ولادة الإمام المهدي عليه السلام

في الكافي: ١/٥٢٣: « عن الحسن بن عيسى العريضي أبي محمد ، قال: لما مضى- أبو محمد عليه السلام (الإمام الحسن العسكري) ، ورد رجل من أهل مصر بهال إلى مكة للناحية (للإمام) فاختلّف عليه ، فقال بعض الناس إن أبا محمد مضى من غير

خلف ، والخلف جعفر ، وقال بعضهم: مضى أبو محمد عن خلف ، فبعث رجل يكنى بأبي طالب، فورد العسكر (سامراء) ومعه كتاب ، فصار إلى جعفر وسأله عن برهان فقال: لا يتهيأ في هذا الوقت. فصار إلى الباب وأنفذ الكتاب إلى أصحابنا فخرج إليه: آجرك الله في صاحبك ، فقد مات وأوصى بالمال الذي كان معه إلى ثقة ليعمل فيه بما يحب ، وأجيب عن كتابه .»

وفي كمال الدين / ٤٩١ ، والهداية / ٣٦٩: « عن الأعلام المصري ، عن أبي رجاء المصري قال: خرجت في الطلب ، بعد مضي أبي محمد عليه السلام بستين ، لم أقف فيهما على شيء ، فلما كان في الثالثة كنت بالمدينة في طلب ولد لأبي محمد عليه السلام بصرياء (قرب المدينة) وقد سألتني أبو غانم أن أتعشى عنده ، وأنا قاعد مفكر في نفسي وأقول: لو كان شيء لظهر بعد ثلاث سنين ، فإذا هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه ، وهو يقول: يا نصر بن عبد ربه ، قل لأهل مصر: أمنتكم برسول الله صلى الله عليه وآله حيث رأيتموه ؟ قال نصر: ولم أكن أعرف إسم أبي ، وذلك أني ولدت بالمدائن فحملني النوفلي وقد مات أبي ، فنشأت بها . فلما سمعت الصوت قمت مبادراً ولم أنصرف إلى أبي غانم ، وأخذت طريق مصر فقلت إن صاحب الزمان بعد أبيه حق ، وإن غيبته حق ، وإنه الهاتف بي . فزال عني الشك وثبت اليقين .»

المصريون ينصرون الإمام المهدي عليه السلام

مصر في عصر ظهور الإمام المهدي عليه السلام

وردت عدة أحاديث عن مصر في عصر ظهور الإمام المهدي عليه السلام وفيها أحاديث ضعيفة ، وفيها ما يتعلق بحركة الفاطميين ودخولهم الى مصر وقد خلطها بعضهم بأحاديث خروج السفيناني وظهور المهدي عليه السلام .
لكن بعض أحاديثها صحيح ، وهو يمدح نجباء مصر وأنهم وزراء للإمام المهدي عليه السلام ومنها ما يذكر أن الإمام عليه السلام سيجعل مصر منبراً عالمياً للإسلام .
وقد عقدنا لها فصلاً في: المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي عليه السلام .

نجباء مصر وزراء الإمام المهدي عليه السلام

وقد روت حديث نجباء مصر مصادر الطرفين . فمن مصادرنا: غيبة الطوسي / ٢٨٤ :
«عن جابر الجعفي ، عن الإمام الباقر عليه السلام قال: يبايع القائم بين الركن والمقام ثلاث مائة ونيف عدة أهل بدر، فيهم النجباء من أهل مصر، والأبدال من أهل الشام ، والأخيار من أهل العراق ، فيقيم ما شاء الله أن يقيم .»

وفي دلائل الإمامة للطبري الشيعي/٢٤٨، بسنده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي، عشر خصال قبل يوم القيامة، ألا تسألني عنها؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: اختلافٌ وقتل أهل الحرمين، والرايات السود وخروج السفيناني، وافتتاح الكوفة، وخسف بالبيداء، ورجل منا أهل البيت يبايع له بين زمزم والمقام، يركب إليه عصائب أهل العراق، وأبدال الشام، ونجباء أهل مصر، ونصير أهل اليمن، عدتهم عدة أهل بدر».

وفي الإختصاص للمفيد/٢٠٨: «عن حذيفة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إذا كان عند خروج القائم، ينادي مناد من السماء: أيها الناس قُطع عنكم مدة الجبارين، وولي الأمر خير أمة محمد فالحقوا بمكة. فيخرج النجباء من مصر والأبدال من الشام وعصائب العراق، رهباناً بالليل ليوثَّ بالنهار، كأن قلوبهم زبر الحديد، فيبايعونه بين الركن والمقام».

قال عمران بن الحصين: يا رسول الله صف لنا هذا الرجل، قال: هو رجل من ولد الحسين كأنه من رجال شنوءة، عليه عباءتان قطوانيتان، إسمه إسمي، فعند ذلك تفرح الطيور في أوكارها، والحيتان في بحارها، وتمد الأنهار، وتفيض العيون، وتُنبت الأرض ضعف أكلها، ثم يسير، مقدمته جبرئيل، وساقته إسرافيل، فيملاً الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً». ومجمع البيان: ٤/٣٩٨، وإثبات الهداة: ٣/٦٢١، ونحوه عقد الدرر للسلمي/٨٣.

ورواه ابن حماد في الفتن: ٣٥٦/١: «قادة المهدي خير الناس ، أهل نصرته وبيعته ، من أهل كوفان ، واليمن ، وأبدال الشام . مقدمته جبريل وساقته ميكائيل ، محبوب في الخلائق ، يطفى الله تعالى به الفتنة العمياء ، وتأمين الأرض ، حتى إن المرأة لتحج في خمس نسوة ما معهن رجل . لا يتقي شيئاً إلا الله تعطي الأرض زكاتها والسماء بركتها» .

وفي سنن الداني/ ١٠٤ ، بسنده عن حذيفة قال: «قال رسول الله ﷺ .. بنحو حديث الإختصاص ، وفيه: « فقام عمران بن الحصين الخزاعي فقال: يا رسول الله كيف لنا بهذا حتى نعرفه ؟ فقال: هو رجل من ولدي كأنه من رجال بني إسرائيل ، عليه عباءتان قطوانيتان ، كأن وجهه الكوكب الدرّي في اللون ، في خده الأيمن خال أسود ، ابن أربعين سنة ، فيخرج الأبدال من الشام وأشباههم، ويخرج إليه النجباء من مصر ، وعصائب أهل المشرق وأشباههم ، حتى يأتوا مكة فيبايع له بين زمزم والمقام... الخ.» . وفردوس الأخبار للديلمي: ٥٢٣/٥ ح ٨٩٦٣ ، بعضه ، كما في الداني . وتفسير الطبري: ١٧/١٥ ، بعضه ، عن حذيفة ، كما في الداني . والفائق للزنجشيري: ٨٧/١ ، وتهذيب ابن عساكر: ٦٢/١ ، ٦٣ ، و٩٦ ، وفيه: « عن علي عليه السلام : الأبدال من الشام ، والنجباء من أهل مصر ، والأخيار من أهل العراق.» . « قبة الإسلام بالكوفة ، والهجرة بالمدينة ، والنجباء بمصر ، والأبدال بالشام، وهم قليل» .

أقول: هذه فضيلة كبيرة لمصر وأهلها، لأن أصحاب المهدي عليه السلام الخاصين لهم مقام عظيم ، فهم ممدوحون على لسان النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام . وهم في

دولة العدل الإلهي حكام في العالم .

وفي تاريخ بغداد: ٣/ ٢٨٩: « عبيد الله بن محمد العيشي قال: سمعت الكتاني يقول: النقباء ثلاث مائة ، والنجباء سبعون ، والبدياء أربعون ، والأخيار سبعة ، والعمد أربعة ، والغوث واحد . فمسكن النقباء المغرب ، ومسكن النجباء مصر ، ومسكن الأبدال الشام ، والأخيار سياحون في الأرض ، والعمد في زوايا الأرض ، ومسكن الغوث مكة ، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ، ثم النجباء ، ثم الأبدال ، ثم الأخيار ، ثم العمد ، ثم أجيبوا وإلا ابتهل الغوث ، فلا يتم مسألته حتى تجاب دعوته » وتاريخ دمشق: ١/ ٣٠٠ ، والشعراني/ ١٧٨ ، والعجلوني: ١/ ٢٥ ، والداني ١٠٩٢/ ٥ .

وفي الفائق: ١/ ٨٧ ، وتهذيب ابن عساكر: ١/ ٦٢ ، عن علي عليه السلام: « قبة الإسلام بالكوفة ، والهجرة بالمدينة ، والنجباء بمصر ، والأبدال بالشام وهم قليل » .

أقول: هذا فضيلة كبيرة لمصر وأهلها ، لأن أصحاب المهدي عليه السلام الثلاث مئة وثلاثة عشر لهم مقام عظيم ، فهم ممدوحون على لسان النبي وأهل بيته عليهم السلام . وهم وزراء المهدي عليه السلام وحكام العالم في دولة العدل الإلهي .

وفد مصر الذي يحمل البيعة للإمام المهدي عليه السلام

في الإرشاد/ ٣٦٠: « عن الإمام الرضا عليه السلام قال: كأني برأيات من مصر مقبلات خضر مصبغات ، حتى تأتي الشامات فتؤدى إلى ابن صاحب الوصيات .»
وفي رواية: تهدي البيعة .

وهذا الوفد غير النجباء من أصحابه ، الذين يأتون اليه عند ظهوره في مكة .
ومعنى تؤدى اليه البيعة أو تهديها: أنها تباعه نيابة عن أهل مصر ، وهو إشارة الى أن حكومة موالية للمهدي عليه السلام تقوم في مصر .

أمير الأمرة في مصر سنة ظهور المهدي عليه السلام

روى النعماني في كتاب الغيبة/ ٢٨٣، بسنده عن عبيد الله بن العلاء ، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: « إن أمير المؤمنين عليه السلام حدث عن أشياء تكون بعده إلى قيام القائم ، فقال الحسين: يا أمير المؤمنين ، متى يطهر الله الأرض من الظالمين ، فقال أمير المؤمنين: لا يطهر الله الأرض من الظالمين حتى يسفك الدم الحرام ثم ذكر أمر بني أمية وبني العباس في حديث طويل ، ثم قال: إذا قام القائم بخراسان ، وغلب على أرض كوفان والملتان ، وجاز جزيرة بني كاوان .
وقام من قائم بجيلان ، وأجابته الآبر والديلمان ، ظهرت لولدي رأيات الترك متفرقات في الأقطار والجنبات ، وكانوا بين هنات وهنات . إذا

خربت البصرة وقام أمير الإمرة بمصر».

وتدل الفقرة الأخيرة على أن حركة أمير الإمرة مؤيدة للإمام عليه السلام، وأمير الإمرة أي الأمير المطاع من الجميع، فهو قائدٌ لقادة، وقد يكون صاحب رتبة في الجيش أو أنه بعد نجاحه يكون حاكم مصر. وقد جعل قيامه علامة لظهور الإمام عليه السلام، فيكون قبله من مقدماته والتمهيد له، أو مرافقاً لظهوره عليه السلام. ويؤيد ذلك ذكر القائم بخراسان وجيلان ورايات الترك بأذربيجان، وقد ورد أنها في سنة ظهور الإمام عليه السلام.

الإمام المهدي عليه السلام يدخل مصر ويجعلها مركزه الإعلامي

روت مصادرنا عن علي عليه السلام أنه قال: «لأبنين بمصر منبراً، ولأنقضن دمشق حجراً حجراً، ولأخرجن اليهود من كل كور العرب، ولأسوقن العرب بعصاي هذه. فقال الراوي وهو عباية الأسدي: قلت له: يا أمير المؤمنين كأنك تخبر أنك تحيا بعدما تموت؟ فقال: هيهات يا عباية، ذهبت غير مذهب. يفعلها رجل مني، أي المهدي عليه السلام». (معاني الأخبار: ٤٠٦، والإيقاظ/ ٣٨٥).

وهو يشير الى معركة المهدي عليه السلام مع السفيناني في دمشق ومن وراءه من اليهود، فينتصر عليهم ويدخل القدس كما نصت الروايات، وأنه بعد انتصاره يُخرج اليهود من بلاد العرب، ويجعل مصر مركزاً إعلامياً عالمياً.

وقد وصفت خطبة رويت عن أمير المؤمنين عليه السلام تسمى خطبة المخزون ، حركة المهدي عليه السلام وحروبه ، وذكرت دخوله الى مصر ، وهي خطبة طويلة رواها الحسن بن سليمان في مختصر بصائر الدرجات/ ١٩٥ ، وفي طبعة/ ٢١٠ ، وطبعة/ ٥١٩ ، عن السيد بن طاووس بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام ، جاء فيها: «وإن لكل شئ إنأ يبلغه ، لا يعجل الله بشئ ، حتى يبلغ أناه ومنتهاه ، فاستبشروا ببشرى ما بشرتم به ، واعترفوا بقربان ما قرب لكم ، وتنجزوا من الله ما وعدكم .

إن منا دعوة خالصة ، يظهر الله بها حجته البالغة ، ويتم بها النعمة السابعة ، ويعطى بها الكرامة الفاضلة ، من استمسك بها أخذ بحكمة منها ، آتاكم الله رحمته ومن رحمته نور القلوب ، ووضع عنكم أوزار الذنوب ، وعجل شفاء صدوركم وصلاح أموركم ، وسلام منا لكم دائماً عليكم تسلمون به في دول الأيام ، وقرار الأرحام أين كنتم ، وسلامه لسلامه عليكم في ظاهره وباطنه ... فإن الله عز وجل اختار لدينه أقواماً انتجبههم للقيام عليه ، والنصرة له ، بهم ظهرت كلمة الإسلام ، وأرجاء مفترض القرآن ، والعمل بالطاعة في مشارق الأرض ومغاربها...

إن أمرنا صعب مستصعب ن لا يحتمله ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان. لا يعي حديثنا إلا حصون حصينة ، أو صدور أمينة أو أحلام رزينة . ياعجباً كل العجب بين جمادى ورجب...

ألا أيها الناس سلوني قبل أن تشرع برجلها فتنة شرقية ، وتطأ في خطاها بعد موت وحياء أو تشب نار بالحطب الجزل غربي الأرض ، ورافعة ذيلها تدعوا يا ويلها ، بذحلة أو مثلها ، فإذا استدار الفلك قاتم مات أو هلك ، بأي واد سلك ، فيومئذ تأويل هذه الآية: ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيِّنَاتٍ...

ولذلك آيات وعلامات ، أولهن إحصار الكوفة بالرصد والخندق ، وتحريق الزوايا في سكك الكوفة ، وتعطيل المساجد أربعين ليلة ، وتحقق رايات ثلاث حول المسجد الأكبر يشبهن بالهدى ، القاتل والمقتول في النار ، وقتل كثير وموت ذريع ، وقتل النفس الزكية بظهر الكوفة في سبعين ، والمذبوح بين الركن والمقام...

ثم يسير إلى مصر فيعلو منبره ، ويخطب الناس ، فتستبشر الأرض بالعدل ، وتعطى السماء قطرها ، والشجر ثمرها ، والأرض نباتها ، وتزين لأهلها ، وتأمين الوحوش حتى ترتعي في طرف الأرض كأنعامهم ، ويقذف في قلوب المؤمنين العلم ، فلا يحتاج مؤمن إلى ما عند أخيه من العلم... فيومئذ تأويل هذه الآية: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ . وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ . فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنِّي هُمْ مُنْتَظَرُونَ .

فيمكث فيما بين خروجه إلى يوم موته ثلاث مائة سنة ونيفاً ، وعدة أصحابه ثلاث مائة وثلاثة عشر .»

وهذا يدل على أن المهدي عليه السلام يحتل دمشق بعد معركة كبرى مع السفلياني، ويكون اليهود متواجدين في عصره في بلاد العرب ، فيخرجهم منها ، وأنه يجعل مصر مركز إعلامياً للعالم .

وروى في مختصر البصائر / ٢١٠ ، وصف علي عليه السلام دخول الإمام المهدي عليه السلام إلى مصر واستقبال أهلها له ، قال: «ويسير الصديق الأكبر براية الهدى... ثم يسير إلى مصر فيعلو منبره ويخطب الناس فتستبشر الأرض بالعدل..».

كما تذكر رواية أن للإمام المهدي عليه السلام في هرمي مصر- ، كنوزاً وذخائر من العلوم ، رواها الصدوق في كتابه كمال الدين / ٥٦٤ ، عن أحمد بن محمد الشعراني ، الذي هو من ولد عمار بن ياسر رضي الله عنه ، عن محمد بن القاسم المصري، قال: «إن ابن أحمد بن طولون شغل ألف عامل في البحث عن باب الهرم سنة ، فوجدوا صخرة مرمر وخلفها بناء لم يقدروا على نقضه ، وأن أسقفاً من الحبشة قرأها، وكان فيها عن لسان أحد الفراعنة قوله: «وبنيت الأهرام والبراني، وبنيت الهرمين وأودعتها كنوزي وذخائري. فقال ابن طولون: هذا شيء ليس لأحد فيه حيلة إلا القائم من آل محمد عليه السلام . ورُدَّت البلاطة كما كانت مكانها». وفي الرواية نقاط ضعف ، لكنها تصلح مؤيداً .

الأبقع الذي تسانده مصر

ذكرت روايات حركة السفيناني أن الأبقع يخرج قبله على حاكم الشام الأصهب ، ويكون بينهما صراع ، ثم يأتي بالسفيناني من جهة حوران فيقاتلها ويتنصر عليها ، ويسيطر على سوريا . وورد في وصف الأبقع أن أنصاره من مصر ، أو هو مصري الأصل .

ففي فتن ابن حماد/ ٧٧ عن علي عليه السلام قال: « تخرج بالشام ثلاث رايات: الأصهب والأبقع من مصر ، فيظهر السفيناني عليهم ».

وفي تفسير العياشي (١/٦٥): « وإن أهل الشام يختلفون عند ذلك على ثلاث رايات: الأصهب والأبقع والسفيناني ».

دخول جيش المغرب الى مصر

روى ابن حماد في كتابه الفتن وغيره روايات عن علاقة مصر- بأحداث خروج السفيناني ، تذكر دخول أهل المغرب الى مصر- ، وغالبها مراسيل وأقوال أشخاص ، ويبدو انها من تحريف الرواة لأحاديث دخول جيش المغرب الفاطمي الى مصر والشام، ولا علاقة لها بظهور الإمام المهدي عليه السلام .

قال ابن حماد: ٢٢٢/١: «عن عمار بن ياسر قال: وخروج ثلاثة نفر بالشام ،
وخروج أهل المغرب إلى مصر، وتلك أمارة السفيناني». والداني/٧٨ .

وقال ابن حماد: ٢٨٥/١: «عن أرطاة قال: إذا اجتمع الترك والروم ، وخسف
بقرية بدمشق وسقط طايفة من غربي مسجدها، رُفع بالشام ثلاث رايات:
الأبقع والأصهب والسفيناى ، ويحصر بدمشق رجل فيقتل ومن معه ويخرج
رجلان من بني أبي سفينان فيكون الظفر للثاني ، فإذا أقبلت مادة الأبقع من
مصر ، ظهر السفيناني بجيشه عليهم فيقتل الترك والروم بقرقيسيا، حتى
تشبع سباع الأرض من لحومهم». والأبقع: في وجهه بقع. والأصهب: إسم
للأسد ، وصفة للأصفر الوجه . ومادة الأبقع: أنصاره .

والصحيح أن حركة الأبقع تكون في الشام ، وهو مؤيد من مصر ، أو أصله
من مصر . أما دخول جيش المغرب الى مصر ، فينطبق على حركة الفاطميين
ولا علاقة لها بظهور المهدي عليه السلام . وأحاديث السفيناني قبيل ظهور
المهدي عليه السلام متواترة ، لكن لم يثبت علاقتها بدخول المغربيين الى مصر .

وكذلك الروايات التي تتحدث عن أزمة اقتصادية في الحجاز بسبب منع
المواد التموينية عنها من مصر ، فهي تخص القرون الأولى ، حيث كانت
مصر مصدر تموين الحجاز ، لكن الرواة خلطوها بأحاديث المهدي عليه السلام ، كما
في مسند أحمد: ٢/٢٦٢ ، عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنَعَتِ الْعِرَاقُ

قفيزها ودرهمها ، ومنعت الشام مدها ودينارها ، ومنعت مصر - إردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتهم «ثلاثاً» وقال: يشهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه ! والقفيز والمد والإردب: مكاييل للغلات . ونحوه مسلم: ٤/ ٢٢٢٠ ، وأبو داود: ٣/ ١٦٦ ، والبيهقي: ٩/ ١٣٧ ، ودلائل النبوة: ٦/ ٣٢٩ ، كلها عن أبي هريرة .

وهي ترتبط بقطع التموين عن الجزيرة يومذاك من العراق والشام ومصر . ولعل من نوعها الرواية عن حاكم مصر الذي يأتي بالروم ويبسط يدهم في حكمها ، رواها ابن المنادي/ ٣٣: « عن أبي ذر رضي الله عنه قال عن النبي صلى الله عليه وآله: سيكون رجل من بني أمية بمصر يلي سلطاناً ثم يغلب على سلطانه أو ينزع منه ، ثم يفر إلى الروم فيأتي بالروم إلى أهل الإسلام ، فذلك أول الملاحم » . وتهذيب ابن عساکر: ٤/ ١٤٧ ، والجامع الصغير: ٢/ ٦٣ .

ومضافاً إلى الإشكال في سندها، فقد يكون حدثها وقع وانتهى ، ولا ينافي ذلك قوله: فذلك أول الملاحم ، فهو يستعمل بمعنى أحداث ظهور المهدي عليه السلام ، وقد يقصد به ملاحم في ذلك العصر .

والنتيجة: أنه لا يصح عد هذه الروايات من علامات ظهور المهدي عليه السلام ، مضافاً إلى ضعفها وإرسالها .

كذبة كعب في أن الدجال من مصر

قال ابن حجر في فتح الباري: ٢٧٧/١٣: «وأخرج أبو نعيم أيضاً من طريق كعب الأحبار أن الدجال تلده أمه بقوص من أرض مصر قال: وبين مولده ومخرجه ثلاثون سنة! قال: ولم ينزل خبره في التوراة والإنجيل، وإنما هو في بعض كتب الأنبياء .

وأخلق بهذا الخبر أن يكون باطلاً، فإن الحديث الصحيح أن كل نبي قبل نبينا أنذر قومه الدجال، وكونه يولد قبل مخرجه بالمدة المذكورة مخالف لكونه ابن صياد، ولكونه موثقاً في جزيرة من جزائر البحر... وأقرب ما يجمع به بين ماتضمنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجال، أن الدجال بعينه هو الذي شاهده تميم موثقاً، وأن ابن صياد شيطان تبدى في صورة الدجال في تلك المدة، إلى أن توجه إلى أصبهان فاستتر مع قرينه إلى أن تجيء المدة التي قدر الله تعالى خروجه فيها!»!

ثم اعترف ابن حجر بتناقض أحاديثهم الصحيحة في الدجال فقال: «ولشدة التباس الأمر في ذلك سلك البخاري مسلك الترجيح فاقصر على حديث جابر عن عمر في ابن صياد، ولم يخرج حديث فاطمة بنت قيس في قصة تميم، وقد توهم بعضهم أنه غريب فردده وليس كذلك، فقد رواه مع فاطمة بنت قيس أبو هريرة وعائشة وجابر. أما أبو هريرة فأخرجه أحمد من

رواية عامر الشعبي عن المحرز بن أبي هريرة عن أبيه بطوله ، وأخرجه أبو داود مختصراً وابن ماجه عقب رواية الشعبي عن فاطمة .

أقول: يقصد كعب أن الدجال الذي هو ملك اليهود سيولد في مصر كموسى عليه السلام ، ويقود بني إسرائيل !

وقد روى المسلمون قبل كعب أن الدجال يهودي ، ففي مسند أحمد: ٢٢٤ / ٣ ، قال أنس: «قال رسول الله ﷺ: يخرج الدجال من يهودية أصبهان (محلة في أصفهان) معه سبعون ألفاً من اليهود ، عليهم التيجان .» ونحوه مسلم: ٢٠٧ / ٨ .

لكن كعباً جعل الدجال عربياً ، وجعل أنصاره عرباً ! ففي مصنف ابن أبي شيبة: ٦٧١ / ٨ ، و: ١٨٢ / ١٥ : «كأنى بمقدمة الأعور الدجال ست مائة ألف من العرب يلبسون السيجان» . (والدر المنثور: ٣٥٤ / ٥) . وفي كنى البخاري / ٦٥ ، وغيره ، عن ابن عمر: «يتبع الدجال أربعون ألفاً من صلب العرب» .

ثم جعل كعب الدجال عراقياً ، لأن أهل العراق وخاصة القبائل اليمانية كانوا يعرفون زيف كعب ويكذبونه ! فقال كعب كما في عبد الرزاق: ٣٩٦ / ١١ : «يخرج الدجال من العراق» !

وقال كعب لعمر لما أراد أن يسكن العراق: «لا تفعل فإن فيها الدجال ، وبها مرده الجن ، وبها تسعة أعشار السحر ، وبها كل داء عضال يعني الأهواء» . عبد الرزاق: ٢٥١ / ١١ ، والدر المنثور: ٣٥٤ / ٥ .

وقد فصلنا حديث الدجال في معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام. وبيننا أن حركته بعد ظهور الإمام المهدي ونزول عيسى عليه السلام، وبيننا اضطراب روايات أتباع السلطة فيه وتناقضها .

والمشكلة عندهم أنها كلها صحيحة ! فقد قال عمر إن الدجال هو ابن صياد المعاصر له ، وقال تميم الداري إنه رآه موثقاً في جزيرة في البحر ، وقال كعب إنه في جزيرة باليمن موثق من زمن سليمان عليه السلام !

بغض كعب الأحبار لمصر وكذبه عنها

نشط كعب الأحبار في نشر مدح الشام ودم الحجاز ومصر والعراق ، وتحولت أقواله على يد تلاميذه الى أحاديث نبوية ! منها حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «دخل إبليس العراق فقضى حاجته ، ثم دخل الشام فطردوه ، ثم دخل مصر فباض فيها وفرخ ، وبسط عبقرية» ! أي فرش بساطه ، واستقر في مصر ! (رواه الطبراني في الأوسط: ٢٨٦/٦، والكبير: ٢٦٢/١٢، ووثقه في الزوائد: ١٠/٦٠).

وفي تاريخ دمشق: ٣١٧/١ و٣١٨: «ثم دخل الشام فطردوه حتى بلغ بساق» وعقبه بساق: في طريق الذهاب الى مصر ! (معجم البلدان: ١/٤١٣).

وفي معجم الطبراني الأوسط: ٢٨٦/٦، والكبير: ٢٦٢/١٢، وتاريخ دمشق: ١/٩٩، عن إياس بن معاوية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « إن الله تعالى قد تكفل لي بالشام وأهله ، وإن إبليس أتى العراق فباض فيها وفرخ ، وإلى مصر- فبسط عبقرية واتكأ !

وقال: جبل الشام جبل الأنبياء».

كما روى الحاكم: ٤/٤٦٢ ، نبوءة كعب وأحلامه بخراب مصر ، قال: «الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية ، ومصر- آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة، والكوفة آمنة من الخراب حتى تخرب مصر-، ولا تكون الملحمة حتى تخرب الكوفة ، ولا تفتح مدينة الكفر حتى تكون الملحمة ، ولا يخرج الدجال حتى تفتح مدينة الكفر» .

وكل هذا من مكذوباته ، ولعله اتفق مع الروم فأشاع في المسلمين أنهم إذا فتحوا القسطنطينية فسيخرج الدجال ، وتخرب مكة والمدينة ، وتخرب مصر وبلاد المسلمين !

وروى ابن حماد: ١/٢٣٦: «عن كعب قال: رأس الأرض الشام وجناحها.

ولا مصر والعراق والذنباء أي الحجاز! وعلى الذنباء يسلمح الباز» !

وهذا ذم يهودي خبيث لمصر والعراق والحجاز مركو النبوة ! والعجيب أن رواة

الخلافة وعلماء المذاهب ، قبلوه ورووه ، ولم يردوا عليه !

ختام في مشاهد أهل البيت وذرياتهم في مصر

هذا العنوان موضوع لكتاب أو كتب ، وإنما أردنا منه الإشارة الى هذه الحقيقة المهمة التي تكشف عن العلاقة العقائدية العريقة لأهل مصر بأهل البيت عليهم السلام . ونكتفي هنا بإيراد موضوعات وصفية لمشهد الإمام الحسين عليه السلام في القاهرة ، كتبها الأخ العزيز الصحفي الدكتور نبيل شرف الدين ، وهو من كُتَّاب صحيفة الأهرام وغيرها من الصحف المصرية والعربية ، وكان يكتب بإسم « مالك الحزين » .

كتب هذه المقطوعات في شبكة هجر الثقافية ، منها بتاريخ (٢٠٠١/٤/٣) بعنوان: سيِّدنا ، قال:

إنه لمركز صميم البؤرة ، والمنطلق إلى الجهات الأربع ، أصلية وفرعية في القاهرة أو غيرها من مدن مصرية.. تلك منزلة مسجد وضريح سيدنا الحسين رضي الله عنه عند المصريين قاطبة .

إذا ما قيل على مسمع من القوم: سيدنا.. فهذا يعني الحسين. وإذا ما قيل مولانا.. فهذا يعني الحسين .

وإذا ما قيل: الحسين.. فهذا يعني كثيراً.. يعني الإستشهاد من أجل الحق ، وإقرار العدل ، وافتداء الجمع بحياة الفرد ، لكي يتحول الوجود المادي إلى معنوي ممتد ، فلا زمن يحده ، ولا مكان يقيده..

وقد شاء لي حظي أن أقيم سنوات على مقربة من مسجده ، الذي يحوي ضريحاً يضم رأسه الشريف ، فارتبطت حواسي كلها به ، بمعالمه ونقوشه ومعماره ، وما ينبعث من أرجائه.. ذلك العطر الخفي ، والظلال الهادئة ، وطوابير الساعين إلى الصلاة في رحابه وزيارة مرقد الرأس الشريف ، لا ينقطعون ليلاً أو نهاراً ، يسعون إليه من القرى النائية ، والواحات المعزولة في الصحراء ، والمدن القريبة والبعيدة ، تنتظم حوله الحياة في أجمل مشاهدتها ، يفيض المكان بالطمأنينة ، بالسكينة ، بالرضا .

منذ صدر شبابي كنت أتطلع إلى الآية الكريمة: **قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**، مكتوبة بخط جميل ، حروف خضراء على خلفية من اللون البني، ومحفورة في الجدران ، أقرأها فأرق ، وأرددها فأستكين، وقد صاحبني طوال مراحل عمري ، ومع بلوغ العمر نقطة متقدمة أستعيدها.. فأحن وأفهم ، وأسترجع مغزى ودلالات استشهاد: سيدنا.. و.. مولانا . إذا ما قيل: الحسين.. فهذا يعني مكاناً أيضاً.. تُعرف مناطق القاهرة القديمة بمراقد آل البيت.. السيدة زينب ، السيدة نفيسة ، السيد عائشة ، سيدي زين العابدين . المركز هو: الحسين . إنه المركز الروحي لمصر- كلها وليس القاهرة فقط بل في العالم الإسلامي كله . وانظر لما يقوله المقريري في موسوعة المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، ما نصه: « قال الفاضل

محمد بن علي بن يوسف بن ميسر: وفي شعبان سنة إحدى وتسعين وأربع مائة خرج الأفضل ابن أمير الجيوش بعساكر جمعة إلى بيت المقدس وبه « سكان » والغازي « أرفق » في جماعة من أقاربها ورجالها وعساكر كثيرة من الأتراك ، فراسلها الأفضل يلتمس منها تسليم القدس إليه بغير حرب فلم يجيباه لذلك ، فقاتل البلد ونصب عليها المنجنيق ، وهدم منها جانباً ، فلم يجداً بداً من الإذعان له وسلمها إليه ، فخلع عليها وأطلقها ، وعاد في عساكره ، وقد ملك القدس .

فدخل عسقلان وكان بها مكان دارس فيه رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنها فأخرجه .. وعطره وحمله في سفظ إلى أجل دارها ، وعمر المشهد ، فلما تكامل حمل الأفضل الرأس الشريف على صدره وسعى به ماشياً إلى أن أحله في مقره .

وقيل إن المشهد بعسقلان بناه أمير الجيوش بدر الجمالي ، وكمله ابنه الأفضل .. وكان حمل الرأس إلى القاهرة من عسقلان ووصله إليها في يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمس مائة ، وكان الذي وصل بالرأس من عسقلان الأمير سيف المملكة تميم واليها ، والقاضي المؤمن .. ويذكر أن هذا الرأس الشريف لما أخرج من المشهد بعسقلان ، وجد دمه لم يجف ، وله كريح المسك ، فقدم به الأستاذ مكنون في عشاري

من عشاريات الخدمة ، وأنزل به إلى الكافوري ، ثم حمل في السرداب إلى قصر الزمرد ، ثم دفنه عند قبة باب الديلم بباب دهليز الخدمة ، فكان كل من يدخل الخدمة يقبل الأرض أمام القبر ، وكانوا ينحرون في يوم عاشوراء عند القبر الإبل والبقر والغنم . هذا ما ذكره المقرئ في خطه الشهيرة .



وكتب الدكتور شرف الدين بتاريخ (١٩٩٩/١٢/١٩) بعنوان: مسجد الحسين ومنزلته في نفوس المصريين:

يُعَدُّ جامع سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب من أهم معالم القاهرة الذي يحرص أي مسلم زائر لمصر على زيارته .

وبلغ تقديس المصريين له أقصى المدى مما دفع الكثير من المؤرخين إلى إطلاق اسم مسجد الحرم المصري عليه ، نظراً لإيمان المصريين المطلق بأن رأس الحسين مدفون في هذا المسجد الذي يقع في قلب القاهرة ، رغم اختلاف الروايات حول هذه الحقيقة.. ففي مظفر التذكرة للشعراني: أنه قد ثبت أن الصالح طلائع ، الذي بنى المشهد الحسيني بالقاهرة ، نقل الرأس إلى هذا المشهد ودفع في ذلك نحو أربعين ألف دينار، وخرج هو وعسكره فنقلوه من خارج مصر .

كما يذكر الرحالة العربي ابن جبير أن من مشاهد القاهرة المشهد العظيم الشأن ، حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، وقد بني عليه بنيان مجلل بأنواع الديباج ، فيه من أنواع الرخام المجزء غريب الصنع ، بديع الترصيع مالا يتخيله المتخيلون .

ويقع جامع الحسين قرب الجامع الأزهر الشريف ، وسوق خان الخليلي الشهير ، وأنشأه الفاطميون سنة ٥٤٩ هجرية ، تحت إشراف الوزير الصالح طلائع .. بني الجامع بالحجر المنحوت ، ويضم ثلاثة أبواب مبنية بالرخام الأبيض ، تطل على خان الخليلي ، وباباً آخر بجوار القبة ، ويعرف بالباب الأخضر .

ويضم الجامع منبراً خشبياً دقيق الصنع مطلياً بالذهب ، نقل إليه من جامع أزبك بك بالعتبة الخضراء أربعة وأربعون عموداً ، عليها بوائك تحمل السقف المصنوع من الخشب ، متقن الصنع والمنقوش باللازورد ، والمطعم بالذهب . وفي السقف ثلاث مناور مرتفعة مسقوفة ، بها ثلاثون شباكاً من النحاس المطلي بالذهب ، يعلوها في الجهة البحرية شبابيك صغيرة ، دوائرها من الرخام .

وعلى المشهد الشريف نقش من الأبنوس المكسو بالإستبرق الأحمر

المزركش ، في أعلاه كمامة من الحرير الأخضر ، وبجوانبه أربعة عساكر من الفضة ، وبدائرة مقصورة الجامع ، وقبته ألواح مزخرفة بخطوط مذهبة ، مكتوبة بالخط الثلث والكوفي . وبأعلى الباب الذي يلي المنبر نقشت العبارات البليغة: الشفاء في تربته ، والإجابة تحت قبته ، والأئمة في ذريته . وقد اهتم أمراء وأكابر مصر في كل عصر بهذا الجامع الكبير فنمت عمارته وزخرفته ، وأضيئت قاعاته وطرقاته وممراته ، وفرشت أرضياته بالسجاجيد النفيسة . وقد عمره الأمير عبد الرحمن كتحدا في سنة ١١٧٥ ميلادية .

كما عزم والي مصر عباس باشا على توسعته وزيادة مساحته ، فقام بشراء الأملاك المجاورة له وهدمها ، وشرع في بناء الأساس ثم توقفت الإنشاءات بعد أن وافته المنية ، وبقي الحال على ما هو عليه حتى تقدم مصطفى بك العناني لشراء الأرض التي كان اشتراها عباس باشا ، وعمرها لنفسه وأقام عليها فنادق وخانات وبنيات لحسابه . ويقال أنه اكتشف كنزاً خلف قبة المشهد الحسيني .

وفي سنة ١١٩٩ ميلادية أمر الخديوي إسماعيل باشا بتجديد الجامع وتوسعته ، وكلف على مبارك باشا برسم التصور المعماري لتجديد الجامع ، بحيث يتسع لاستقبال أحياء ومريدي الإمام الحسين رضي الله عنه ، وكلف الأمير راتب باشا ناظر ديوان الأوقاف المصرية أن يشرف بنفسه على تنفيذ

إنشاءات الجامع الجديدة ، التي صممها علي باشا مبارك . وفي إطار هذا التجديد هدم كل الجامع ، ما عدا القبة والضريح الشريف .

وبدأت الإنشاءات في سنة ١٢٨٢ هجرية وانتهت في ١٢٩٠ هجرية بالشكل الذي سبق وصفه، ومن العناصر التي تخلفت من المشهد القديم حتى الآن: الباب المعروف باسم الباب الأخضر ، ومبني من الحجر وعلى يساره دائرة مفرغة بزخارف ، وتعلوه بقايا شرفة جميلة . كما تخلف من المنارة الأيوبية التي أنشأها فوق هذا الباب أبو القاسم السكري القسم الأسفل منها وهو المربع الذي يحتوي على زخارف جصية نادرة وعلى تاريخ الإنشاء .

أما التابوت الخشبي ، فهو أيوبي الطراز ويعتبر تحفة نادرة تمثل طراز الحفر على الخشب في عصر الأيوبيين في مصر ، وهو محفوظ حالياً بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة .

وهناك الحجرة التي شيدت عام ١٨٩٣ ميلادية لتحتوي على الآثار النبوية ، وهي مجاورة للقبة من الجهة القبليّة وتشمل من الآثار النبوية الشريفة على قطعة من قميصه الشريف ، ومكحلة ، وقطعة من العصا الشريفة وشعرتين من اللحية الشريفة ، وبها أيضاً مصحفان بالخط الكوفي .

وإلى الآن يعتبر مسجد سيدنا الحسين من أهم المزارات الدينية التي يحرص المصريون والمسلمون عموماً على زيارتها والتبرك بها ، فكثيراً ما نرى داخل

المسجد أو المشهد أشخاصاً يقومون بإيقاد الشموع لسيدنا الحسين بعد شفاء مريض لهم ، أو خروجه من أزمة ما ، كما يلجأ العامة للدعاء بداخله . أما مولد سيدنا الحسين ، فيعد من المناسبات التي ينتظرها الكثيرون ، حيث تتحول ساحة المسجد والميدان الذي يطل عليه إلى مهرجان عظيم ، يكتظ بحلقات الذكر والإنشاد الديني وقراءة القرآن.. وهو يجتذب الزائرين والمريدين ، من جميع أنحاء مصر والعالم العربي .

فاتني أن أذكر اللوحة الرخامية الكبيرة المعلقة على باب المسجد المؤدي للمشهد الحسيني ، وقد كتب عليها بالذهب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحسن والحسين مني ، من أحبهما أحببته ، ومن أبغضهما أبغضته .

وللعلم هناك أضرحة لآل البيت في القاهرة ، ومنهم: السيدة زينب ، والسيدة نفيسة ، والسيد أحمد البدوي في طنطا ، ولهذه الأضرحة منزلة عالية في نفوس المصريين . وقد حاول بعض المتطرفين من عينة «السلفية» فلم تفعل الحكومة شيئاً ، بل تصدى لهم الناس ، ولما كادت تحدث فوضى ، تدخلت الشرطة لوقف هذه المشاكل ، حدث ذلك في السبعينات إبان ظهور هؤلاء الهمج .

والمصريون البسطاء يذهبون لأضرحة الحسين والسيدة نفيسة ، وغيرهما

للتبرك بهما ، ولم نسمع أن ذلك شركٌ وحرامٌ ، إلا مع ظهور هؤلاء الهمج ! هناك قدر هائل من العادات الشيعية في مصر ، كالإحتفال بيوم عاشوراء والأذكار ، والتبرك بآل البيت ، وغير ذلك مما يتطلب جهداً بحثياً كبيراً لرصده وتحليله ودراسة ما إذا كانت تلك من بقايا تراث العصر الفاطمي ، أول دولة شيعية في التاريخ.. ولذلك تجد المصريين السنة ، بما فيهم علماء الأزهر لا يكفرون الشيعة ، ولا يحملون كل هذا العدا الذي صدمت حينما رأيت في مواقع الحوار عبر الشبكة ! فإذا سألت مصرياً عن الشيعة فسيرد عليك ببساطة ، هذا مذهب الذين تشيعوا علي وآل البيت .

كل ما أريد أن أقوله إن هناك بالفعل تجارب عملية وإنسانية على التقارب بين السنين والشيعة ، وتعالوا مصر لتروها ، ولعل البعض لا يعرف أن الأزهر الشريف نفسه كان أول جامعة شيعية في العالم ، قبل مدينة قم وغيرها ، وأدعو المهتمين بدراسة التاريخ أو علم الاجتماع ، أو التأصيل أن يولوا هذه الفكرة اهتمامهم باعتبارها تجربة هامة ، ربما لا يلتفت إليها الكثيرون .



وكتب بتاريخ (٤/٥/٢٠٠٠) بعنوان: المشهد الحسيني في القاهرة:

على باب ضريح الإمام الحسين في القاهرة لوحة رخامية كبيرة كتب عليها بالذهب الحديث النبوي الشريف: الحسن والحسين مني.. من أحبهما

أحبيته ، ومن أبغضهما أبغضته..

وداخل المسجد أكبر ثريا « نجفة » في العالم العربي ، كما يؤكد إمام المسجد ، وهي للحق آية في الجمال والبهاء ، ووزنها كما هو مثبت في دليل تاريخ الضريح وصاحبه يصل إلى خمسة أطنان ، من الكريستال المحلى بالذهب الخالص ، وقوائمه من الفضة الخالصة..

أما السجاد فحدث ولا حرج ، فقد تبرع العام الماضي أحد كبار التجار من طائفة البهرة « يقيمون حول الضريح » بسجادة فارسية تعود إلى القرن العاشر الميلادي ، وحجمها يبلغ ١٦ متراً مربعاً ، وهي من الحرير الخالص ، وقد فرشت في المقام « الضريح » الذي يقع في الجانب الشرقي داخل المسجد..

ويعقد داخل المسجد يومياً أكثر من خمس مائة عقد قران ، تصل أيام الخميس والجمعة إلى الألف ، حيث يجرح آلاف المصريين على عقد قرانهم داخل المسجد الحسيني ، وبعضهم يأتي من مدن مصرية بعيدة ، قد تبعد عن القاهرة أكثر من سبع مائة كيلو متراً .

للحسين ، ومسجده ، وضرجه ، ومشهده ، منزلة خاصة في نفوس المصريين . وفي شهر رمضان يستحيل على المرء أن يجد موضعاً لقدم في هذا الميدان المعروف بالمشهد الحسيني .

باعة المصوغات الذهبية للتحف والفنون اليدوية.. مكتبات ضخمة..
مقاهي شديدة الجمال.. مطاعم شهيرة.. حلقات ذكر.. ندوات دينية
وأخرى ثقافية.. مواكب زواج.. سياح أجنب يقفون مذهولين لروعة
المكان وتلك الأعداد الغفيرة من الزوار..

كل هذا في كفة.. و.. مجاذيب الحسين.. في كفة أخرى ، فهناك حول
الضريح تجدد عشرات ممن ارتدوا الخرقه الصوفية.. وتركوا بيوتهم وأعمالهم
واستأنسوا بالحسين.. أقاموا حول الضريح يلتحفون السماء ويفترشون
الأرض.. يأكلون ما يجود عليهم به أهل الخير.. وما أكثرهم هناك..
ويصلون الصلوات الخمس في المسجد..

في رمضان لست مضطراً لأن تدفع نقوداً لكي تفطر ، إذا ما كنت في ميدان
الحسين ، فأهل الخير يحملون آلاف الوجبات ، ويقدمونها مجاناً للصائمين
وعابري السبيل.. وفي كل شهور السنة يحرص الكثير من الأغنياء على
توزيع زكواتهم وصدقاتهم على الناس حول الضريح..

أما في صلاة العيدين فحدث ولا حرج.. تغسل الأرض والله العظيم
غسلاً.. لا تكاد تميز بين عامل النظافة الموظف رسمياً لهذا الغرض ، وبين
مئات الشباب والشيب ، الذين يشمرون عن سواعدهم ويحملون المقشات
ليكنسوا الميدان.. بعضهم أطباء ومهندسون وضباط وأساتذة جامعات

وتجار أثرياء..

وكلهم يعتقدون أن الله تعالى سيبارك لهم ، عندما يتواضعون ويكنسون الميدان ، ويرشون الماء..

في الفجر يحضر الركب الرسمي لرئيس الجمهورية ، ومعه كل الوزراء وشيخ الأزهر.. ويحظر سير السيارات في هذا الميدان ، وكافة الشوارع المؤدية إليه.. لكن يتجاوز عدد المصلين المليون شخص كل عيد... طيلة الوقت تستمع لابتهالات الشيخ سيد النقشبندي.. وإنشاد الشيخ ياسين التهامي.. حتى يرفع المؤذن الأذان.. الله أكبر الله أكبر.. فيتحول الكون كله لمستمعين لهذا النداء الساوي الجليل..

عجائز أتين من أقصى الصعيد ، حملن بضع قروش يوزعنها وفاء لنذر تحقق.. سيدات يتعلقن بأستار الضريح راجيات تحقيق أملهن في إنجاب طفل حرمن منه ، أو عودة ابن غريب اضطرت له الحياة الصعبة للرحيل في بلاد الله.. وثمة رجل طاعن في السن يذرف دموعه حري وهو يناجي صاحب الضريح قضاء حاجة يعلمها الله وحده..

يتعامل الناس هنا في مصر مع الحسين ، كأنه ما زال حياً داخل الضريح.. يتحائمون إليه في منازعاتهم.. يتحدثون إليه في كروهم.. بعضهم يرسل إليه خطابات عبر البريد..

وصلت خلال العام الماضي إلى أكثر من مليون رسالة كما أكدت هيئة البريد المصرية ، التي تسلمها لخدام الضريح ..

المرسل: ... المرسل إليه: حضرة الإمام سيد شهداء الجنة الحسين بن علي رضوان الله عليهما.. العنوان: القاهرة... مسجد الإمام الحسين .

رائحة العطور تغمر أنوف زوار الضريح.. وأنوار لا تنطفئ.. ولم تنطفئ منذ قرون.. وجلال لا يضاهيه حتى ضريح السيدة زينب التي يجلو للمصريين إطلاق عدة ألقاب عليها.. منها أم العواجز.. ورئيسة الديوان..و.. الطاهرة .

في المسافة الممتدة بين الضريحين تقع أجمل وأبهى أحياء القاهرة.. الدرب الأحمر.. القلعة.. الحسينية.. باب الخلق.. باب النصر... باب الفتوح.. الباطنية.. الجمالية.. الكحكيين.. المغربلين.. الخ .

لأهل البيت في مصر منزلة ، لا يشعر بها إلا من يعرف المصريين جيداً.... فحينما حاول بعض المتطرفين ذات يوم تفجير قبلة في منطقة الحسين.. خان الخليلي.. لم يسلمهم الناس للشرطة ، بل فتكوا بهم.. فحينما وصلت قوات الأمن لم تجد سوى جثث هامدة.. ولم يزل الفاعل مجهولاً حتى اليوم ، فقد تفرقت دماؤهم بين القبائل ..



تعقيب المرجع الشيخ الصافي على الموضوع

نشرنا هذه المواضيع في المجلد التاسع من كتاب الانتصار، وهو قطف من مناظراتنا مع الوهابية، مع تعقيبات عدد من الإخوة الكتاب على الموضوع. وقد اطلع عليه يومها المرجع الديني الكبير الشيخ لطف الله الصافي حفظه الله، فكتب ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الحمد والصلاة، فإني لا أقدر على وصف ما حصل لي من الوجد والشوق، والإحساس بالقرب والحضور، والجلوس على بساط المحبة والأنس والخشوع لله تعالى.. عندما طالعت ما كتبه بعض الأدباء العارفين عن الحالات العطرة والروحانية القدسية، التي تحصل لزوار مشهد مولانا سيد أهل الإباء، وواحد أهل المباهلة والعباء، أبي عبد الله الحسين عليه السلام في مصر، القطعة الشريفة من وطننا الإسلامي الكبير، التي حازت شرف ولاء أهل البيت عليهم السلام من أول ما أشرق عليها نور شمس الدعوة المحمدية والرسالة الإلهية.

لقد كررت مطالعة هذا التصوير الجميل لمظاهر الولاء ومحبة النبي والآل صلوات الله عليهم، والاجتماعات والإحتفالات والحلقات في مشاهدهم النورانية، العامرة بذكر الله تعالى وعبوديته.

إن مشهد الإمام الحسين عليه السلام، من البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، بل هو من أفاضلها كما رواه السيوطي ، ولو لم يكن بيت علي وفاطمة الزهراء وسيدي شباب أهل الجنة ، بعد بيت النبي صلى الله عليه وآله أفضل تلك البيوت ، فبيت من يكون ؟

وجدت نفسي بعد قراءة هذا المقال ، مفعمة شوقاً وحضوراً وأنساً بالله تعالى ، ورغبةً في زيارة هذا الضريح الشريف ، والمشهد الجليل ، الذي تسطع منه أنوار الجمال المحمدي ، والجلال العلوي ، المشعة من جلال الله تعالى وجماله الأزلي سرمدي.. وهي معان يدركها ويشعر بها من يدرك بحقيقة إيمانه بالله ورسوله ما لهذه المشاهد المرفوعة التي تخدمها ملائكة الله تعالى ، من قدر عند الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله .

وجدت نفسي كأني في مصر ، في جوار الضريح الشريف والحضرة الحسينية ، بين إخواني الزائرين المصريين الواهين ، الموالين لأهل البيت عليهم السلام ، وهم يتبركون بالمقام ويغتنمون الفوز فيه بالصلاة والإبتهاال ومناجاة الله تعالى ، يطلبون حاجاتهم من ربهم عنده ، ويصلون على النبي وعلى شهيد الإخلاص والإباء ، شهيد معالم الإنسانية الكبرى ، شهيد كل المكارم ، أبي عبد الله الحسين.. حسين التضحية والجهاد والإيثار ، حسين الصبر والشجاعة ، حسين الإسلام والإنسانية .

اللهم كحل بصري بمشاهدة تراب ضريحه في مصر وكربلاء .
 نعم ، وجدت نفسي في هذه البقعة المباركة التي شرفها الله تعالى بكرامة
 الإنتساب إلى سبط النبي صلى الله عليه وآله ، فرأيت بعين قلبي ملائكة الله تعالى محققين
 بها.. فهنيئاً لزوار تلك البقعة المباركة ، مركز تقرب أولياء الله ، ومهبط
 ملائكة الله .. وهنيئاً لإخواننا أهل مصر ما هم فيه من جوار ضريح سيد
 شباب أهل الجنة. هنيئاً لهم هذا الفوز العظيم ، ثم هنيئاً لهم ما هم فيه من
 ولاء أهل البيت عليهم السلام . هنيئاً لشيوخهم وشبانهم ، رجاءهم ونسائهم ،
 علمائهم وتلاميذهم ، أساتيدهم وطلاب جامعاتهم . فياليتنا معهم فنفوز بما
 يفوزون به عند هذا الضريح المبارك.

ويا مولاي يا حسين ، يا أبا عبد الله ، يا ابن رسول الله ، يا من استنقذت
 عباد الله بتضحيتك الكبرى من جهالة الضلالة .
 أشهد أنك رفعت أعلام الدين ، وكسرت صولة المستكبرين والمستعبدين ،
 ونصرت الله ورسوله ، مجاهداً صابراً .
 وأشهد أن الله يحب من أحبك ، ويبغض من أبغضك ، وأن الله طهركم يا
 أهل البيت من الرجس تطهيراً . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

١٢ صفر المظفر - ١٤٢١ هـ . لطف الله الصافي



فهرس موضوعات الكتاب

مقدمة- ٣

الفصل الأول: معاني تفضيل البلاد وأهلها-٥

- ٨ حديث الصحابي عمرو بن الحمق الخزاعي رضي الله عنه
- ١١ أحاديث نبوية أخرى في مدح مصر وأهلها
- ١٢ جواب ملك مصر المؤدب للنبي ﷺ
- ١٥ علاقة المصريين بعثمان وعلي ؓ
- ١٧ تفضيل علي ؓ لمصر على بلاد الشام
- ١٨ مدح نهر النيل

الفصل الثاني: مصر في خلافة وعمر وعثمان-١٩

- ١٩ تم فتح مصر بدون قتال وأسلم قسم من أهلها
- ٢٥ سبب ادعاء الحكام أن مصر فتحت عنوة
- ٢٨ أول حركة رقابة على نظام الحكم الإسلامي كانت مصرية
- ٣١ صبيغ التميمي ناشط مصري وقع في قبضة عمر
- ٣٣ حركة المصريين ضد الخليفة عثمان
- ٣٥ المحمدان يجركان مصر
- ٣٩ أرسل عثمان وفوداً إلى مصر
- ٤٠ معركة ذات الصواري
- ٤٦ ملاحظات

- ٤٩ زاد نشاط المحدثين في جيش ذات الصواري
- ٥١ طرد أهل مصر واليهيم وبايعوا محمد بن أبي حذيفة !
- ٥٣ وأرسل أهل مصر رسالة نصيحة الى الخليفة عثمان
- ٥٤ وذهب المصريون في جيش صغير الى عثمان
- ٥٥ الحركة ضد عثمان من غير المصريين
- ٥٧ محاصرة الجيش المصري لعثمان التي انجرت الى قتله
- ٦٨ تظاهرة المهاجرين والأنصار يهتفون باسم علي عليه السلام

الفصل الثالث: مصر في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام - ٧١

- ٧١ اهتمام علي عليه السلام بمصر
- ٧٢ مصر عند مقتل عثمان وخلافة علي عليه السلام
- ٧٨ الخطأ الذريع الذي وقع فيه قيس بن سعد !
- ٨٣ نقاط عن شخصية قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه
- ١٠٣ ولاية محمد بن أبي بكر على مصر
- ١٠٣ أسرة محمد بن أبي بكر رضي الله عنه
- ١٠٦ ولاية محمد بن أبي بكر لمصر
- ١٠٧ رسالة أمير المؤمنين عليه السلام الى أهل مصر واليهيم
- ١١٧ ملاحظة على هذه الرسالة
- ١١٧ أجوبة أمير المؤمنين عليه السلام على مسائل محمد بن أبي بكر
- ١٢٠ كُتِبَ علي عليه السلام لمحمد بن أبي بكر تقع في يد معاوية
- ١٢٣ رسالة محمد بن أبي بكر الى معاوية وجوابه
- ١٢٥ رسالة الإمام عليه السلام الى محمد عندما عين الأشر مكانه
- ١٢٦ غزو معاوية لمصر بعد معركة صفين

- ١٣٩ محاولة علي عليه السلام نصره محمد بن أبي بكر رضي الله عنه
- ١٤٥ حزن أمير المؤمنين عليه السلام على محمد بن أبي بكر
- ١٥٠ منشور أمير المؤمنين عليه السلام في أبي بكر وعمر
- ١٥١ حزن أسماء على ابنها وعائشة على أخيها محمد
- ١٥٣ معاوية خال المؤمنين ومحمد بن أبي بكر ليس خالهم !
- ١٥٦ لم يتهنأ ابن العاص بملك مصر !
- ١٥٩ شخصية محمد بن أبي حذيفة رضي الله عنه
- ١٧٢ ولاية مالك الأشتر على مصر
- ١٧٤ رسالة الإمام عليه السلام إلى أهل مصر لما أراد معاوية غزوها
- ١٧٧ رسالة أخرى بعثها الإمام عليه السلام إلى أهل مصر
- ١٧٨ شهادة مالك الأشتر رضي الله عنه
- ١٨٠ حزن الإمام عليه السلام على مالك الأشتر
- ١٨٢ قبر مالك الأشتر رضي الله عنه في مصر
- ١٨٣ عهد الإمام عليه السلام إلى مالك الأشتر

الفصل الرابع: علاقة المصريين بأئمة العترة عليهم السلام

- ١٩٩ الإمام يرسل الملك الصالح والياً على مصر !
- ٢١١ علاقة المصريين بأئمة العترة عليهم السلام
- ٢١١ في عهد أمير المؤمنين عليه السلام
- ٢١٢ سكن النسائي في مصر وقتله أهل الشام !
- ٢١٣ مصر ملجأ العلويين المضطهدين
- ٢١٥ الكعبة لا تأكل ولا تشرب
- ٢١٦ زنديق يؤمن على يد الإمام الصادق عليه السلام

- ٢١٩ ذو النون المصري يروي عن الإمام الصادق عليه السلام فلسفة الحج
- ٢٢٠ مصريون مع الإمام الرضا والجواد عليهما السلام
- ٢٢٠ مصريون يزورون قبر الإمام الرضا عليه السلام

الفصل الخامس: المصريون ينصرون للإمام المهدي عليه السلام

- ٢٢١ مصريون يبحثون عن ولادة الإمام المهدي عليه السلام
- ٢٢٣ مصر في عصر ظهور الإمام المهدي عليه السلام
- ٢٢٣ نجباء مصر وزراء الإمام المهدي عليه السلام
- ٢٢٦ وفد مصر الذي يحمل البيعة للإمام المهدي عليه السلام
- ٢٢٧ أمير الأمانة في مصر سنة ظهور المهدي عليه السلام
- ٢٢٨ الإمام المهدي عليه السلام يدخل مصر ويجعلها مركزه الإعلامي
- ٢٣١ الأبقع الذي تسانده مصر
- ٢٣٢ دخول جيش المغرب الى مصر
- ٢٣٤ كذبة كعب في أن الدجال من مصر
- ٢٣٧ بغض كعب الأحبار لمصر وكذبه عنها
- ٢٣٩ مشاهد أهل البيت وذرياتهم في مصر
- ٢٥٢ تعقيب المرجع الشيخ الصافي على الموضوع